دراسات وبحوث
مختارة

تساؤلات التداولية
وتحليل الخطاب



ترجمة وتنسيق

د. حافظ إسماعيلي علوي
د. ذهبية حمو الحاج
د. منتصر أمين عبد الرحيم



تساؤلات التداولية
وتحليل الخطاب



دراسات وبحوث
مختارة

تساؤلات التداولية
وتحليل الخطاب

ترجمة وتنسيق

د. حافظ إسماعيلي علوي
د. ذهبية حمو الحاج
د. منتصر أمين عبد الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ ٢٠١٦م



تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب

ترجمة وتنسيق :حافظ إسماعيلي علوي، ذهبية حمو الحاج، منتصر أمين عبدالرحيم

الطبعة الأولى 2016م 1437هـ

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: **2015/8/3910**

ردمك: **ISBN: 978-9957-74-534-9**

حقوق الطبع محفوظة©



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع

www.darkonoz.com

عمان - وسط البلد – شارع الملك الحسين – طلوع سرفيس جبل الحسين رقم(9)

هاتف 877 4655 فاكس 875 4655 6 00962

خلوي 494 5525 79 00962

E-mail: info@darkonoz.com dar_konoz@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة . لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه أو استنساخه أو نقله، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright © All Rights Reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

تصميم الغلاف والإشراف الفني: محمد أيوب mohayyoub@gmail.com

المحتوى

المقدمة

انشغل الفلاسفة في مراحل مختلفة من التفكير الفلسفي بتساؤلات عديدة شكّلت محاور الوعي بقضايا الإنسان والوجود ، وقدّموا إجابةً عنها تفسيرات تطرح قضايا معرفيّة وانطولوجيّة ووجدانيّة مما فتح المجال لأفق متسع من تساؤلات جديدة ، فقيمة التّساؤل مرهونة في الدرس الفلسفي بما يكفل اتساع المعرفة ورجاحة مناهج مقاربتها.

إنَّ قيمة التّساؤل ووظيفته في العلوم الإنسانيّة لا تختلف عن وظيفته ودوره في الفلسفة ، ولعل تتبع تطور اللّسانيّات واختلاف مناهجها ومقارباتها يعطينا صورة واضحة عن أدوار التّساؤل في تأطير طرائق الوصف والتّفسير والتّنقل من منهج إلى آخر ، فإذا أمكن عدّ التّداوليّة وتحليل الخطاب إطارًا جديدًا في مقاربة اللّغة يسعى إلى الكشف عن الجانب الوظيفيّ لاستعمالاتها المختلفة وما يحيط بها من سياقات لها أثرها في إثراء هذا الجانب ، فإنّه مما لا شك فيه أنْ يكون التّحول إلى هذا الإطار قد استحضرته تساؤلات متنوعة تميزه عن إطار سابق ومقاربة بديلة مختلفة.

ونقدّم في هذا الكتاب مجموعة من المقالات التي رأيناها مفيدة للقارئ العربيّ نظرًا إلى ما تضمنته من تساؤلات تؤسس لمرحلة جديدة من مراحل الدّرس التّداوليّ ومقاربات تحليل الخطاب ؛ إذ تمثّل مصراعًا لانفتاح بحثهما على مناهج وعلوم متصلة لها أثرها في تقييم فرضيّاتنا الحاليّة ، وفي تعرّفنا على طرائق جديدة في التّحليل ، وتطويعها لغايات تضمن فهمًا أعمق للظاهرة اللّغويّة موضوع البحث.

فمن تّساؤلات التّداوليّة ما يتصل بتاريخها وأفكارها التي سبقت ظهور

أعمالها التّأسيسيّة الباكرة ، ومنها ما يتصل بمدى الفائدة المجتباة من توجهها الإمبريقي ، وكيفية تحقيق هذا التّوجه ، أو يتصل بعلاقة التّداوليّة في نسختها الفلسفيّة بالتّداوليّة العياديّة مما يجعلها تتمتع بجانب كبير من الشّموليّة يضمن لها مقاربة الكفاية التّداوليّة وصورها لدى الإنسان في مختلف حالاته.

أما التّساؤلات بشأن تحليل الخطاب ، فتدور حول إشكاليّة التّعريف ، وتقويم المناهج ، وجدوى الاستمرار في التّحليل ، وتعيين حدود المنهجيّة المبتغاة ، وعلاقة تحليل الخطاب بالنّظريّات الذّهنيّة ومآلاته وأهدافه على ضوء تفاصيل هذه العلاقة. ناهيك عن دور المحلل وأهمية التّحليل في ظل تضارب إيديولوجيّ وصراع حاد حول مكانة الخطاب وسلطة التّحليل.

ولا يفوتنا في سياق هذه المقدمة أن نقدّم جزيل الشّكر والعرفان إلى الأستاذ مهند حلوة الذي لم يدخر جهدًا في إخراج هذا الكتاب بهذه الحلة.

والله ولي التّوفيق

التداوليّات قبل أوستين: واقع أم تهيؤات؟
بريجيت نرليش ودافيد د. كلارك

ترجمة
د. حافظ إسماعيلي علوي

١- مقدمة

تعنى التداوليات بدراسة الأفعال اللغوية، واستعمال اللغة في السياق والخطاب. وعمومًا تظل التداوليات تخصُّصًا معرفيًا ناشئًا. لكن عندما ننظر إلى التداوليات عن قرب، ندرك أنها تمتح من تقاليد شتَّى، تضرب بجذور عميقة في البلاغة، وعلم النفس، وفلسفة القانون، إلى جانب تخصصات أخرى.

وسنقدم في هذا المقال لمحة عامّة عن التداوليات في أوربا خلال القرن التاسع عشر، من خلال إعادة رسم مسار ثلاثة تيارات كبرى، شكّلت الفكر التداولي الأوربي، وهي: الفرع الفرنسي الذي يدرس سمات الذاتية في الكلام، والفرع الألماني الذي يدرس السمات الحوارية في اللغة، علاوة على وظيفة اللغة التي تحدد التأثير في الآخرين، وأخيرًا الفرع الإنجليزي، الذي انشغل، ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر، بتحليل الأفعال اللغوية، بوصفها عمليات اجتماعية. ويمكن أن نضيف إلى هذه التقاليد الثلاث، ذات الجذور الأوربية، تقليدًا رابعًا، يتعلق الأمر بالنسخة الأمريكية للتداولية المنبثقة عن الذرائعية pragmatisme، ولكننا لن نتحدث عنها في سياق هذا المقال.

أربعة تقاليد كبرى:

التقاليد الأنكلوساكسونية:

أوستين Austin ، وسورل Searle ، وغرايس Greice ، وسبربر Sperber وويلسون Wilson . . .

السياقية والوظيفية البريطانية

التقليد الجرماني:

هابرماس Habermas ، وآبل Apel . . .

التقليد الفرنسي:

بنفنيست Benveniste ، وديكرو Ducrot ، وريكاناتي Recanati .

التقليد الأمريكي:

بورسPeirce ، وموريس Morris . . .

لقد استعملت هذه التقاليد جميعها بعض الكلمات المفاتيح لتبلور نسخها الخاصة من «التداولية» Pragmatique ، وهذه الكلمات المفاتيح مجتمعة هي التي تحدّد الحقول المتعددة والمتغيرة ، ولكن المترابطة ، للبحث في المظاهر التداولية للغة .

الكلمات المفاتيح:

التقليد الأنجلوأمريكي:

الفعل الكلامي Speech act ، المعنى meaning ، الاستعمال use ، القصد intention ، السياق context ، الوظيفة function ، التداولية pragmatic ، الإنجازية performatif .

التقليد الجرماني:

الفاعل الترانسدانتلي (المتسامي) Transzentales ، الفاعل Subject ، الحوار Dialog ، الضمائر Prononem ، الفعل الكلامي Sprechakt ، العمل الكلامي Sprechhandlung .

التقليد الفرنسي:

الذاتية subjectivite ، سمات الذاتية marqueures de subjectivite ، التحيين actualisation ، التأشيرية indexicalite ، القول والفعل dire et faire ، الفعل الكلامي/الفعل اللغوي Acte de parole-langage .

التقليد الأمريكي:

الذرائعية pragmatism ، الدلالة meaning ، الفعل action ، السلوك behaviour ، المؤول interpretant ، السيميوزيس semiosis .

تجد هذه التقاليد وكلماتها المفاتيح جذورها في فلسفات اللُّغة المختلفة ، كما أنها تأثَّرت ببعضها البعض .

الجذور التاريخية وخطوط التأثير:

التقاليد الأنجلوساكسونية:

نظرية الأفعال اللغوية:

* جذور في مؤلف هوبز Hobbes وريد Reid ، ولكن لا يتم الإحالة عليها ،
* جذور مباشرة في مؤلف فريجه Frege ، ومؤلف بريتشار Pritchard ،
* لها جذور في تعارضها مع الوضعية المنطقية Positivisme logique ،
* لم يكن لها اتصال بما سيأتي .

السياقية والوظيفية البريطانية:

* لهـا جـذور في أعـمـال سـمـارت Smart ، وويلبي Welby ، ومـالينوفـسكي Malinowwski ،
* تأثرت بالتـقليـد الأمـريكي من خـلال المراسـلات بين بورس Peirce وويلبي Welby ،
* تأثرت بالتداولية الألمانية من خلال أعمال فيغنر Wegener وبوهلر Bühler .

التقليد الجرماني:

التداولية الترنسدانتالية [المتسامية] والكونية:

* لها جذور معترف بها في مؤلفات التداولية البدئية protopragmatique لكانط Kant وبوهلر Bühler ،
* تأثرت بنظرية الأفعال اللغوية منذ ١٩٧٠م ،
* تأثرت بالذرائعية الأمريكية منذ قراءة آبل Apel لبورس Peirce .

التقليد الفرنسي:

نظرية فعل القول:

* لهـا جـذور مـعلنة في تراث التـداوليـة البـدئيـة التي تمتـد من لوك Locke وكونديلك Condillac وصولًا إلى بنفنيست Benveniste ، مرورًا ببـريال Breal وبالي Bally ،
* تأثرت بنظرية الأفعال اللغوية منذ ١٩٥٨م ،
* تأثرت بالنـفـعـيـة الأمـريكيـة منذ قـراءة ياكـوبسـون Jakobson وبنفنيـست Benveniste لبورس Peirce وموريس Morris .

التقليد الأمريكي:

الذرائعية/ التداولية باعتبارها جزءاً من السيميوطيقا Semiotique :

* لها جذور في نظرية القرون الوسطى للعلامات ، وسيميوطيقا لوك locke ، وفلسفة كانط Kant .

هذه التقاليد «التداولية» (وأخرى غيرها) ، دُرست منذ انبثاق تداولية أوستين الرسمية ؛ يعني منذ سنة ١٩٧٠م (انظر برونورث Braunroth وآخرين ١٩٧٨م ، شليبن- لانج Scllieben- Lange 1979 ، نرليش Nerlich ١٩٨٤ ، ١٩٨٦م) ، ولكن لم تأخذ التأملات حول «تاريخ» للتداوليات مسارها الحقيقي إلا سنة ١٩٩٠م[1] . إن المفارقات التي يمكن أن تواجهنا عندما نريد كتابة «تاريخ التداولية» قد اكتشفت في الماضي القريب (انظر نرليش وكلارك Nerlich et Clarke ، أورو Auroux ١٩٨٨م) .

ونقترح هنا نظرة عامة عن بعض التطورات الأساسية للتقاليد الأوربية الثلاث . ولمن يودّ التوسع أكثر ، فإننا سنذيل المقال بملحق ببعض الاستشهادات المهمة (وهي ، بطبيعة الحال ، اختيارات ذاتية بالأساس) .

٢- نماذج عن «تداولية ما قبل التداولية»

إن مصدر الأفكار التداولية في ألمانيا هو الفلسفة الترنسدانتالية والهرمينوطيقا ، والجدل بين الذات والموضوع ، الذي عوَّضه الجدل بين الذات والمستمع . وفي إنجلترا ، شكلت فلسفة الحس المشترك Philosophie de sens commun ، ونقد تصورات لوك حول فلسفة اللغة مصادر للأفكار التداولية . فتصور الكلمات باعتبارها ممثلًا للأفكار والأشياء استُعيض عنه بنظرية الأفعال

---

(١) انظر ضمن آخرين :

Schuhmann et Smith 1990; Biletzki 1996; Nerlich 1996; Nerlich et Clarke 1994, 1995, 1996; Verschueren et al, 1995; Posner et al., 1998; Seuren 1998; les articles d'Auroux, Larcher, Rosier-Catach et Tollis dans Histoire Épistémologie Langage XX/I,1998; Noordegraaf et Vonk.

اللغوية باعتبارها عمليات اجتماعية في السياق . أما الأفكار التداولية في فرنسا فقد انبثقت من نقد المذهبيين من جهة ، ومن الموضوعات التي يؤثرها المذهبيون ومُشايعوهم من جهة أخرى ؛ لنذكر على سبيل المثال وصف الوسائل التي من خلالها يتم إدخال العلامات اللغوية الافتراضية حيز الإنجاز ، ووصف النقاش المتمحور حول رتبة الكلمات في الجملة .

لقد حاولنا في كتابنا «اللغة ، الفعل والسياق» (نرليش وكلارك ١٩٩٦) ، إعادة بناء هذه العناصر حول التفكير التداولي قبل أوستين. وفي هذا المقال سنحلل بعض الحالات التي يمكن أن تكون مقبولة كنظريات تداولية قبل التداولية ، وبإمكان القارئ أن يحكم ما إذا كان الأمر يتعلق هنا ، فعلًا ، بحقائق أم بتهيؤ .

١-٢- برناردي Bernhardi وفيغنر Wegener

يعتبر معظم لسانيي القرن التاسع عشر الألمان اللغة بمثابة جسم organisme مستقل ؛ لذلك لم يهتموا قط بعناصرها التداولية . غير أن أشياع فلسفتي كانط Kant ولوك Locke ، واصلوا ممارسة التأثير في فلسفة اللغة التي كانت تحيا على هامش اللسانيات التاريخية والمقارنة . إن المفهومين الأكثر أهمية اللذين أدمجهما كانط Kant ولوك Locke قد كانا ، على التوالي ، مفهوم العمل الاختياري والتلقائي للذات المفكرة ، ومفهوم الفعل الاختياري والسيميائي للذات الدالة . وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، درس جوهان سيفيرين فاتر Johann Severin Vater النشاط السيميائي بشكل خاص ، ودرس أوغست فيرديناند برناردي August Ferdinand Bernhardi النشاطَ الترنسدانتالي . فكل منهما كتب مؤلفه على هامش فلسفة للغة أغرقتها الأعمال المنجزة التي كتبت في إطار التقليد المهيمن للسانيات التاريخية والمقارنة .

لقد أقام فاتر Vater تمييزًا بين اللغة بوصفها وسيلة للتواصل ، والكلام باعتباره فعلًا للتواصل وللتمثيل والدلالة (Vater 1801, 136) . ومرّة أخرى

سنجد هذا التصور للكلام باعتباره فعلًا دلاليًا قصديًا أو Bedeutungsverleihung عند هومبولت Humboldt (وبعد ذلك عند هوسرل Husserl وبوهلر Bühler) ؛ فاعتبار الكلام تمثيلًا أو تصورًا Darstellung ، على العكس من ذلك ، يعتبر إرثًا عن الفلسفة الكانطية ، التي أعاد صياغتها روث وبرناردي Roth et Bernhardi على نحو جديد (انظر نرليش ١٩٩٨) .

فقد نشر برناردي مؤلفه «النحو» Sprachlehre خلال الفترة نفسها التي نشر فيها فاتر Vater كتابه ؛ فاللغة بالنسبة إليه هو أيضًا ، هي ملكة تمثيل (darstellen) تمثلاتنا (Vorstellungen) من خلال أصوات منطوقة (Bernhardi, 1801. 16) . ومع ذلك فإن التمثيل ليس ذاتيًا صرفًا ، إنه نوع من التذاوت ، ومن الحوارية . فالفهم هنا على الدرجة نفسها من أهمية التمثيل ، والتمثيل لا يكون في الحقيقة تمثيلًا تامًا إلا من خلال الفهم . وفي تصور برناردي فإن اللغة ليست أيضًا مجرد نظام بسيط من العلامات مستعمل لتمثيل الأفكار ، بل هي فعل خارجي من خلاله تُربط «دواخل» المتكلم والمستمع ، إنها حدث تخاطبي interlocutionnel . فالرابط بين المتخاطبين يتم من خلال الصوت المنطوق . يتعلق الأمر هنا ، إذن ، بنقل اللغة إلى كلام عبر فعل ذاتي للمتكلم ، ونقل الكلام باعتباره تخاطبًا إلى لغة بوصفها نظام علامات- تلك هي الأفكار التي سنجدها في النظريات التداولية البدئية الفرنسية .

كادت هذه الأفكار حول التداولية البدئية أن تُنسى تمامًا في ألمانيا ، حين احتل التاريخ المقارن للألسن والأصوات طلائع المشهد اللساني . ولكن إرث كانط ولوك سيعاود الظهور خلال نهاية القرن التاسع عشر ، في حين كان التفكير الفلسفي حول اللغة يتداخل بتفكير من طبيعة بسيكولوجية ، وليس أدل على هذا الاتجاه من أعمال فيليب فيغنر Philipp Wegener .

نجد لدى فيغنر نظرية للخطاب مدرجًا في المقام والسياق ، وكذلك نظرية للفعل اللغوي باعتباره عملًا ؛ فالأول شكّل محور كتابه الصادر سنة ١٨٨٥م «أبحاث حول المسائل الأساسية في حياة اللغة Untersuchungen tiber die

«Grundfragen des Sprachlebens» ، والأخير هو موضوع مقال نشر سنة (١٩٢١م) بعد وفاته ، حول الجملة- الكلمة . وقد بنيت هذه النظريات للإجابة عن سؤالين جوهريين هما :

١ . ما وظيفة اللغة؟

٢ . كيف نفهم اللغة؟

بالنسبة إلى فغينر فإن وظيفة اللغة ليست هي التعبير عن الأفكار أو تمثيلها ، ولكن هي التأثير في الآخر ، والحصول على وَقع فيه ، مادامت اللغة تستمد منبع وجودها فلسفيًا وأنطولوجيًا من الآثار التي تحدثها في المتلقي . فالوظيفة اللسانية تصبح شكلًا ، وهذا موضوع سنلفيه لدى بريال Bréal . سنجد إذن ، كما هو الحال عند فاتر ، المتكلم والمستمع ، والهدف من الكلام ، لكن فغينر يركز أكثر على المقام والسياق . بحيث يمكن للمستمع أن يفهم ما يقوله له المتكلم (ويكون ذلك أحيانًا بشكل ضمني) فقط ضمن سياق لساني ومعرفي وغير لساني مركب فحسب . ومرة أخرى يقول فغينر إنه من هنا تبرز اللغة . إنها ليست نظامًا قاراً من العلامات لتمثيل الواقع ، بل هي نظام من العلامات في تطور دائم ، يمتح من هذا الواقع ، ويشكل جزءاً من لغة الاستدلالات Inferences المرتكزة على التأويل السياقي (انظر فغينر ، ١٨٨٥/١٩٩١ ، ٦٦- ٦٧) .

إن تصور فغينر للغة هو تصور سياقي إذن ، لكنه أيضًا تصور وظيفي وتداولي . فهو تداولي لأن الوحدة المعتمدة في التحليل هي الفعل اللغوي الذي يعد فعلًا قصديًا يتوخى هدفًا ما . وفي سنة ١٩٢١م تحدث فغينر أيضًا عن الفعل اللغوي القصدي .

وقد حلل فيغينير في كتابه «أبحاث Untersuchungen» فعل الأمر باعتباره فعل اللغة الأساس ، وفعل ترويض لساني . ففعل القول عنده هو أمر أو تعليمات موجَّهة إلى مستمع لاستحضار وضعية ما ، وتعد كل كلمة أمرًا Imperatif جديدًا . إن طلب فهم جملة معينة ، والعمل الاستنتاجي للمستمع

الذي يدرك معناها ، يصيران من خلال التكرار عملية طقوسية ، وبذلك يصبح الفهم عملية آلية (فغينر ١٨٨٥ ، ص١٠٠) .

ولنمض الآن إلى الأمر باعتبارها كذلك ، فجملة : «جعة!» (Une bierre) على سبيل المثال . (Wegener1921, 150) كيف يمكن أن نفهم هذا الملفوظ كأمر بإحضار جعة؟ فمفاتيح الفهم ليست ماثلة في هذه الجملة- الكلمة نفسها (باستثناء التنغيم) ، إنها ماثلة خارج الجملة في المقام النمطي داخل الحانة ، حتى في النطق بهذه الكلمة معزولة ، وتهييء المستمع (النادل مثلًا) لسماع جملة ما في مقام كهذا .

ينظر فغينر إلى اللغة إذن ، بوصفها ممارسة اجتماعية في سياق ، ويتبنى الفعل اللغوي كموضوع أساس في اللسانيات ، وهي مقاربة كانت وراء ظهور أعمال أخرى في ألمانيا ، كأعمال مارتي Marty وبوهلر Bühler ، وتبناها في إنجلترا الأنثروبولوجي مالينوفسكي Malinowski ، وعالم الآثار المصرية غاردنر Gardiner ، واللساني فيرث Firth .

٢-٢ ريد Reid وغاردنر Gardiner:

يمكن أن نجد بدايات التفكير في البحث السياقي والعاملي Actantielle في اللغة في مؤلفات الفلاسفة السكوتلانديين حوالي القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر . فنقطة البداية هي فلسفة الحس المشترك عند توماس ريد ، الذي كان له أيضًا تأثير حاسم في فرنسا بإلهامه فلاسفة الاستعراش Restauration ككوزان Cousin وجوفروي Jouffroy ، وإثارة تحليل أولي للأفعال اللغوية عند غارنيي Garnier . وفي إنجلترا ، ستفضي هذه الفلسفة إلى تفكير حول اللغة في السياق وفي الاستعمال عند ستيوارت Stewart وسمارت Smart . ومن المحتمل جدًا أن تكون فلسفة الحس المشترك هذه قد ألهمت أيضًا ، فلسفة القانون والوعد كفعل لغوي لدى أدولف رايناخ Adolf Reinach ، الذي اشتغل في ألمانيا تحت تأثير كل من مارتي Marty ، وفريجه Frege وهوسرل Husserl .

وفي محاولاته حول القوى الفكرية للإنسان (١٨٧٢/١٧٨٥م) ، انتقد ريد التصور الأرسطي ، الذي بموجبه يكون نوع الجملة الوحيد القابل لأن يحلل فلسفيًا هو الحكم . فبالنسبة إليه هناك أنواع أخرى من الجمل يمكن أن نعالجها بالكيفية نفسها (ليس فقط في الخطابة) مثل الوعود ، والتنبيهات ، والاعتذارات ، وخلافًا «للعمليات المنعزلة» للعقل مثل الحكم ، يطلق عليها اسم العمليات الاجتماعية أو «الأفعال الاجتماعية» نظرًا إلى أنها دائمًا موجهة نحو الآخر . وهي أبعد ما تكون عن الأفعال الذهنية الثانوية ، فهذه الأفعال الاجتماعية تحظى بالأولوية . بينما الأفعال المنعزلة متفرعة عنها . نلاحظ هنا ما يمكن أن نسميه مبدأ الأولوية التداولية . فاللغة ، ليست بالأساس تعبيرًا عن الفكر ، بل هي تعبيرًا عن إرادة موجهة نحو تحقق الفهم عند الآخرين . وجدير بالإشارة أن هناك أفعالًا للغة ، كالوعد ، تتوقف الدلالة ، بل ووجودها نفسه ، على إدراكها Uptake من الآخر .

لقد كانت فلسفة اللغة لريد Reid معروفة جدًا في إنجلترا ، وخصوصًا في كامبريدج ، حيث قرأ عالما النفس ستوت Stout ووارد Ward أعمال ريد ، مثلما قرأ أعمال راسل Russel ومور Moore ، وربما فيتجنشتاين Wittgenstein . كما قرأه أيضًا غرايس Grice في أوكسفورد ، ومن المحتمل جدًا أن يكون أوستين على معرفة به أيضًا . إن نظرية الوعد ، التي ناقشها ريد جاءت من هيوم Hume ، وكانت مألوفة أيضًا عند أوستين ، لكنه تعرف عليه من خلال مؤلف زميله هارلود آرثر بريتشارد Harold Arthur Pritchard الذي حلل هذه القضايا خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين ، التي كان على علم بها .

من جهة أخرى ، وُجد أيضًا تراث «لساني» للتفكير التداولي في إنجلترا . في هذا التراث ، شأنه شأن التراثين الألماني والفرنسي ، فإننا لا نعالج التقابل بين الإخبار والوعد ، أكثر مما نعالج التباين الحاصل بين الإخبار والأمر . وفي هذه الحالة فإن تأثير فغينر كان مهمًا في تقدم الوظيفية والسياقية [النهج السياقي] الإنجليزية .

لقد أهدى السيد ألان غاردنر Alan Henderson Gardiner ، عالم الآثار المصرية كتابه المشهور حول «نظرية الكلام واللغة The Theory of Speech and Language» (١٩٣٢م) إلى فغينر ، لكنه كان على اطلاع أيضًا على مؤلفات بوهلر وسوسير Saussure . فقد تقاسم مع بوهلر وجهة النظر التي مفادها أن التمييز بين اللغة والكلام الذي قام به سوسير يحتاج إلى أن يترسخ في نظرية تداولية- سيميائية للغة .

ومباشرة بعد نشر المقال المهم لفغينر حول الجملة- الكلمة ، نشر غاردنر سنة ١٩٢٢م مقالًا حول «الكلمة والجملة» . ميَّز فيه تمييزًا جوهريًا بين الكلمة بوصفها وحدة لسانية (التعيين) ، والجملة بوصفها وحدة للخطاب (اختيار قصدي Volition) (انظر دواي ، ١٩٨٤ ، ص٥٠٧) ، ولكنه تحدث فيه أيضًا عن واقعة لسانية أخرى ، أراد وصفها ، يتعلق الأمر بفعل اللغة . إنه بيت القصيد في كتابه الذي نشر عشر سنوات بعد ذلك .

فبفضل الفعل اللغوي ، سواء أكان اجتماعيًا أم فرديًا ، تصبح اللغة كلامًا . وفي كتابه الصادر سنة ١٩٣٢م ، يتجاوز غاردنر سوسير ، إذن ، ويتقدم في الاتجاه نفسه شأنه في ذلك شأن منظري فعل القول في فرنسا ، من بالي ، إلى بنفنيست وريكور Ricoeur .

المثال النمطي عن فعل الخطاب بالنسبة إليه هو القول «Il pleut» . فإذا كان اللسان نسقًا من الرموز ، فإن الكلام هو «نشاط إنساني يتطلب على الأقل وجود شخصين يمتلكان اللسان نفسه ، ويوجدان في المقام نفسه» (غاردنر ١٩٣٢ / ١٩٥١ ، ص٧ ، الترجمة الفرنسية ، ١٩٨٩م ، ص١٣) . نجد هنا العوامل الأربعة للنموذج الأداتي Organonmodell لبوهلر ، الذي يحيل عليه غاردنر بشكل صريح . ولكن هناك أيضًا تشابهات بين غاردنر وأب نظرية فعل القول الفرنسي بنفينست . بالنسبة إلى غاردنر فإن الفعل الكلامي ، إذا جاز استعمالنا لمصطلحات بنفينست ، هو فعل فعل فردي ذو بعد اجتماعي . فالمبادرة تكون من المتكلم ، وإن كان المستمع معنيًا أيضًا «فدوره فاعل وإبداعي في مستوى فاعلية

المتكلم» (Douay, préface à Gardiner 1989, VU) .

«فالخطاب إذن ، بحسب غاردنر ، هو إنتاج مشترك ؛ وسيرورة دينامية ترتكز على تفاعل دائم بين المتكلم والمستمع» (نفسه) . ثم أقام غاردنر اختلافًا بين المعنى والدلالة أو الشيء المدلول ، الذي يقارن اعتمادًا على تمييز بنفينست بين المعنى والدلالة . يطرح أيضًا تمييزًا بين الشكل والوظيفة . فالكلمة باعتبارها شكلًا لا يمكن أن تعمل ، بمعنى تتحمل قوة إنجازية ، إلا داخل فعل خطابي يتميز بأن له هدفًا معقولًا . وتوجد ، بحسب غاردنر ، أربعة أهداف تناظرها أربعة أنواع من الجمل : تعجب ، استفهم ، أمر ، وأكد . هذه الأنواع الثلاثة من الجمل تقارن بثلاث وظائف في اللغة ميزها بوهلر لمعرفة التمثيل ، والتعبير ، والمناداة .

إن الفعل الخطابي ، إذن ، يتمتع بكل السمات المحددة للفعل . وبما أن كل فعل يمكن أن يتحقق بطرائق قددا ، فإن فعل اللغة يمكن أن يتحقق بأوجه مختلفة أيضًا . يمكن أن نعبر عن نزول المطر بواسطة جمل مختلفة ، كأن نقول : «السماء تمطر» ، أو «آه! المطر» إلخ . فشكل العبارة يختلف ، لكن الوظيفة تبقى هي نفسها . ولكن يمكن أن توجد أيضًا أفعال للقول تتنوع فيها القوة التخاطبية ، ويبقى المحتوى القضوي هو نفسه : «السماء تمطر» ، «هل تمطر؟» . لقد اهتدى غاردنر مبكرًا إلى الفرق بين المحتوى القضوي والقوة التخاطبية . فهاتان السمتان تميزان كل فعل لغوي لم يُعد أوستين اكتشافه من جديد إلا عبر التفاف ما ؛ يتعلق الأمر بتفرع لفعل القول التقريري ، وفعل القول الإنجازي .

ومع أن غاردنر قد عرف راسل Russel وريل Ryle ، فإن تأثيره في فلسفة اللغة العادية ، وتأثيرها فيه كان تأثيرًا ضعيفًا . ولم يعرف غاردنر فيتجنشتاين Wittgenstein معرفة مباشرة ، ولا يبدو أنه عرف أوستين . وقد ثمَّن أوستين بدوره تمييز غاردنر بين اللغة والكلام ، ومع ذلك ظل لا يرى فيه إلا فيلسوفًا عاديًا (انظر الملاحظات في مخطوطة كتاب كيف نفكر بالكلمات ، بودلاين ، أكسفورد ، المجلد الثاني ، ص١٦) لقد تجاهل ، إذن ، أن تكون مصادر التداولية قد بدأت مع كتاب الكلام واللغة ، وقد كان عنوانه الفرعي «أصول التداولية» في ترجمته الفرنسية) .

٣-٢- تيبو وبولهان Thiébault et Paulhan

حللت بريجيت شليبن لانج Brigitte Schlieben-Lange في مقالها الصادر سنة ١٩٨٩م حول عناصر النظرية التداولية في الأنحاء العامة حوالي ١٨٠٠م ، مؤلفات سيكارد Sicard ، وساسي Sacy ، وتيبو Thiébault ودستوت دي تراسي Destutt de Tracy ، وقارنتها بمؤلفات برناردي Bernhardi وهومبولت Humboldt .

إن الجامع بين هومبولت وبرناردي والمذهبيين هو المكانة المركزية التي أسندت إلى الذات . التي تحظى بحساسية عند المذهبيين ، الذات المبدعة والمتعالية عند هومبولت . فتحليل الذات في اللغة انطلاقًا من بريال Bréal إلى بنفنيست Benveniste ، وبشكل خاص تحليل إشاريات (مؤشرات) هذه الذات (كالضمائر عند تيبو Thiébault ، مثلًا) في اللغة ، شكلت مركز الدراسات التداولية في فرنسا (انظر استشهاد تيبو Thiébault الطويل في الملحق) .

تبنى وجهة النظر هذه أيضًا ، بولهان Paulhan وليروي Leroy ودولاكروا Delacroix في مؤلفاتهم ، وقد أسهموا جميعهم في النظرية التداولية للغة ، والتي تناساها فيما بعد منظرو فعل القول من أمثال بنفنيست . لقد تجاوز بولهان دراسة الذات في اللغة من خلال تحليل الأفعال التي يمكن أن تنجزها الذات المتكلمة باللغة .

وفي سنة ١٨٨٦ نشر عالم النفس واللساني بولهان ، المشتغل في إطار تقليد علم النفس الترابطي ، الذي يربطه بتصور النشاط الحر للذات عند كانط ، -مقالًا حول «اللغة الباطنية» . حلل فيه ما يطلق عليه «فعل الكلام» . وعلى غرار فغينر وغاردنر فإن التكلم عن بولهان ، لا يعني فقط التعبير عن الفكرة . فبولهان يهتم ، على وجه الخصوص ، بالعلاقة بين معنى فعل الكلام ، ورد فعل المستمع ؛ أي بتأثيره في المستمع ، وبحسب بولهان ، فإننا لا نكون واثقين بأن الآخر قد فهمنا إلا عندما نلاحظ فعله (أو رد فعله) ، أو على الأقل نزوعًا أو توجهًا نحو الفعل (أو رد الفعل) ، ومثال ذلك أن يكون رد فعل متلقي القول : «إنها تمطر» الذهاب للبحث عن مظلته . إن فعل القول ، في سياق محدد ،

ليس ، إذن ، فقط ذا وظيفة رمزية ، بل هو أيضًا ذو اجتماعية وعملية ، وقد تم وصف الوظيفة المزدوجة للغة ، أي باعتبارها أداة للتعبير والتفكير ، وأداة للفعل بتفصيل في مقال نشر سنة ١٩٢٧ ، وهو مقال يعالج «الوظيفة المزدوجة للغة» ، وقد حلل فيه بولهان اللغة باعتبارها نظامًا من العلامات ، وأداة للفعل (Moyen d'action 1927,22) . وتضاف إلى هاتين الوظيفتين ، وظيفة ثالثة هي الوظيفة الإيحائية .

وتطابق وظائف اللغة هذه أدوار مختلفة يمكن للغة أن تؤديها في المجتمع ، فاللغة- العلامة ، تصلح لتوحيد العالم الروحي للجماعة ، بينما تصلح اللغة- أداة الفعل Le langage-moyn d'action وقائعَ جديدة مغيرة بذلك العلاقة بين المتكلم والعالم والمستمع . فالأمر ، على سبيل المثال ، يُوجب على المستمع إنجاز فعل ، وعلى تغيير العالم (Paulhan 1927, 29) . أما فيما يتعلق باللغة- الإيحاء فإنها تخلق التفكير ، إنها الوظيفة «الشعرية» بامتياز ، ولا تعتبر فيها العلامات أبدًا بدائل للواقع ، وإنما هي «ذريعة (ذرائع) لابتكار أفكار جديدة وصياغتها» (ص ٢٤) . وإذا كانت الوظيفة الرمزية تسعى إلى أن تخلق الانسجام في المجتمع وتعمل على استقراره ، فإن الوظيفة الشعرية تسعى إلى إدخال التنافر فيه ومن ثمة الاختلاف (انظر ص٧١) .

فبدل أن تصبح اللغة مجرد أداة للتعبير عن مزاجنا ، تصبح وسيلة تدفع الآخر إلى التفكير ، وإلى الإحساس والحركة وفق ما نريد . وبذلك فإن الكلمة لا تكون علامة ، بقدر ما هي أداة فعل بينفسية واجتماعية (ص٢٢ وما بعدها) لقد تأثر بولهان بالتحليل النفسي الاجتماعي لغابرييل وتارد Gabriel Tarde (وكان تارد من جهته مطلعًا على أعمال بولهان) .

ويمكننا أن نسترسل هنا في عرض أفكار حول تحليل الحوار التخاطبي عند غابرييل تارد . ولكن في حدود هذا المقال ، فإن مؤلفات رواد التداولية البدئية وهم برنهاردي Bernhardi وريد Reid وتيبو Thiébault وأفكار هؤلاء التداوليون قبل ظهور التداولية ، وهم فيغنر وغاردنر وبولهان نعتبرها كافية لتقديم مقترح

يقضي بأن التداولية قبل التداولية ليست فقط محض توهم ، لكنها واقعة محتملة . لقد اقتصرنا هنا على بعض القرون ، وعلى بعض البلدان ، وعلى اللسانيات ، وعلى بعض الحقول المتاخمة كعلم النفس . ولكن هناك عناصر أخرى لتاريخ التداولية قبل التداولية يمكن أن تصدر من بلدان أخرى ، وفي فترات أخرى ، وضمن حقول معرفية أخرى .

ملحق

التداولية قبل أوستين (شواهد مختارة)

التهميش الفلسفي للأفكار التداولية:

إن كل جملة دالة [...] ، ولكن ليس كل جملة تقريرية تعد جملة ، فقط تلك التي تحمل الصدق أو الكذب ، وليس ثمة صدق أو كذب في الجمل جميعها ؛ فالدعاء جملة ولكنه لا يكون صادقًا أو كاذبًا قط . والبحث الحالي إنما يتعامل مع الجملة الخبرية ، ونستطيع أن نغض الطرف عن الجمل الأخرى لأن محل الاهتمام بها يقع في دراسة الخطابة أو فن الشعر (Aristotle, De Interpretatione, 17 a 1-5) .

إضفاء الشرعية الفلسفية على الأفكار التداولية:

التقليد الأنكلوساكسوني:

«إن الاستفهام والطلب والوعد ، أعمال تقبل أن يحلل كل منها بوصفه قضية ، ولكننا لم نجد أن هناك من حاول هذا ، فلسنا نعطي هذه التعبيرات اسمًا يختلف كثيرًا عن العمليات التي تعبر عنها»

(Reid, 1872, vol. I:245)

كتب ريد Reid أن أرسطو كان على حق عندما قال :

«إلى جانب ذلك النوع من الكلام المسمى «قضية» ، التي هي دائمًا إما صادقة أو كاذبة ، نجد أنواعًا أخرى لا تكون صادقة أو كاذبة مثل الدعاء والتمني ، والتي يمكن أن نضيف إليها الاستفهام والطلب والوعد والعقد وقضايا أخرى كثيرة» .

(Reid, 1872,]1774[, 692; quoted in Schuhmann& Smith 1990, 53)

«وكل هذا مختلف تمامًا عن أن (معنى الكلمة = الفكرة (BNDC ، كلماتنا عندما تُخْتَبَر منعزلة ، فإنها عادة لا تكون عديمة المعنى كالحروف التي تتكون

منها ؛ إذ يشتق معناها بصورة أساسية من خلال الربط أو العلاقة التي تربطها بغيرها» .

(Stewart,1854-1860, V: 154-155; 1810, 209-210)

التقليد الفرنسي:

ليس بالإمكان وجود لغة دون وجود متكلم بها ، أو شخص يفترض فيه أن يتكلمها : فسيكون من العبث أن نتخيل أننا نتكلم دون أن نكلم أحدًا : في الأخير من المستحيل أن نتحدث بالفعل ، وألا نتحدث عن شيء . إنها طبيعة الأشياء نفسها إذن ، والضرورة ذاتها هما اللتان تضفيان على اللغة طابع [كذا] المشهد المسرحي الذي نربط فيه الصلة بين ثلاثة فئات من الممثلين . وهكذا فإن لنا في اللغة بالضرورة ثلاثة أدوار علينا القيام بها ، ثلاثة أدوار نحس بالحاجة المطلقة إليها بمجرد الرغبة في التحدث ، ثلاثة أدوار يكون من الضروري ، من ثمة ، قبولها والاعتراف بتمييزها في تحليل الخطاب .

(Thiébault 1802, 206-207)

تمييز الإرادة عن الأمر:

ميز ريد أيضًا الإرادة عن الأمر ، الذي غالبًا ما نخلطه بها في اللغة العادية . فالقبطان يأمر جنوده ، لكن بعبارة دقيقة فإنه لا إرادة له في هذا الأمر ، بالمعنى الذي يتوجب فيه على هؤلاء الجنود تقبُّل تنفيذه . إن إعطاء الأمر يفترض : ١ . احتلال الآمر منزلة أعلى من المأمور بتنفيذ الأمر . ٢ . الطابع الإلزامي أو الأخلاقي للفعل المأمور به . ٣ . إرادة التلفظ بالأمر واتخاذ إجراءات ضمان تنفيذه . إنه العنصر الإرادي الوحيد حقًا للأمر . إذا ذكَّر جندي جنديًا آخر بواجبه يكون بالفعل قد أعطاه رأيًا لا أمرًا ، وإذا لم يطلب القبطان من الجندي خدمة عمومية ، بل خدمة خاصة فإنه لا يعطيه أمرًا ، بل يطلب منه شيئًا ، وللجندي حق الامتناع عن القيام بذلك . الأمر إذن ، ظاهرة مركبة جدًا لا تشكل فيه الإرادة الحقة إلا جزءًا . إن كلمة «أريد» في صياغة الأمر تعني «أعلن

عن أن هذا الفعل إلزامي» ، ولدي الصفة الكاملة للقيام بهذا التصريح وأتلفظ بهذا الأمر على نحو إرادي ، ولدي إرادة اتخاذ إجراءات إلزامك بالتنفيذ .

(Garnier 1852, I, 323-324)

التقليد الألماني:

«يمكن تعريف هذه المفاهيم [العلامة مثلًا] من خلال وجهة النظر التالية : (١) الشخص الذي يدلل [يستخدم العلامة] و(٢) الذي تستخدم العلامة من أجله [المدلَّل له] ، و(٣) الغرض من هذه الدلالة ، و(٤) نجاح تبادل الغرض و(٥) العلامة ، بوصفها أداة ، و(٦) الشيء المدلول عليه» .

(Vater, 1801: 137)

اللغة بقدر ما هي تصور (Darstellung) ، يمكن بالرغم من هذا مقاربتها من خلال وجهتي نظر مختلفتين ؛ أولًا . بوصفها تمثيلًا خالصًا وحرًا يحقق وينجز ذاته ، ومن ثم فإن سمة القابلية للنقل يفترض أنها ليست ضرورية هنا ، فالممثل يكتفي بذاته ويحدد تمثيله لنفسه ومن ثم للآخرين ، ففي كل الأحوال ، فإن الاستخدام الذي يصنعه الآخرون من هذا الأمر ذو أهمية ثانوية ، أو أن نتصورها على أنها تمثيل تولده الحاجات وهو موجه إلى الآخرين ومعناها لديهم ، وفي هذه الحالة يبدو التواصل سمة أساسية ، فالإشارة إلى شخص مستقبل يعبر عنها بصورة أكثر أهمية ، وأن يفهمها جمع محدد من المستمعين أمر ضروري .

(Bernhardi 1801, 101)

«من الأهمية بمكان في اللغة أن تلعب الثنائية دورًا أساسيًا داخل اللغة قياسًا إلى أي شيء آخر ، فكل كلام يعتمد على التحاور Wechselrede [حرفيًا : تبادل الكلام] التي يفترض المتكلم من خلالها دائمًا وجود المخاطب كشخص يقف في مواجهته ، وحتى عندما يكون أمام جمع كبير من الناس [...] ولعل تقسيم البشر إلى صنفين ؛ أصدقاء وأعداء ، هو أساس جميع الروابط الاجتماعية البدائية» .

(Humboldt, 1963 [1827]: 137-138)

١. التداولية قبل تسميتها:

التقليد الأمريكي:

نودُّ أن نقارب اللغة ، لا من خلال وجهة النظر الخاصة بالمعاني الداخلية التي سيُعبَّر عنها ، بل من خلال سياقها الأعم للتعاون بين الجماعة ، تتحقق عبر الإشارات والإيماءات ، فالمعاني لا تتكشف بدون هذه السيرورة (Mead 1934, 6) .

سنسمي التداولية كامل مجال تلك البحوث التي تُدخل في اعتبارها [...] الفعل ، والحالة ، وبيئة الشخص المتكلم أو المستمع ، للكلمة الألمانية «blau» (أزرق) ، مثلًا .

(Carnap 1939, 146)

ماز موريس التداولية بوصفها «علم علاقة العلامات بمؤوليها» ، وأنها «تتعامل مع مظاهر حيوية للسميوزيس ، وهي جميع الظواهر السيكولوجية والبيولوجية والاجتماعية التي تصاحب توظيف العلامات» (Morris 1938, 108) . علاوة على أن البنية اللغوية هي نظام من السلوك باعتبار وجهة النظر التداولية (p110) .

التقليد الألماني:

«في الكلمة- الجملة «حذائي» فإن الكلمة- الصورة الخالصة لا تعضد تمثيل الحقائق التي مفادها : (١) أن شخصًا يطلب فعلًا ما و(٢) ماذا يكون هذا الفعل؟ و(٣) مَن الذي يتوجب عليه تنفيذ هذا الفعل؟ كل هذا يمكن استنتاجه فقط من المقام والإشارات/الإيماءات . فالكلمة- الصورة تستدعي تمثيل شيء محدد هو في ذهن المتكلم باعتباره شيئًا» .

(Wegener 1921: 9-10)

إن إعلان شخص ما عن حياته النفسية ليس هو الشيء الوحيد أو الأساسي في التحدث المتعمد ؛ ذلك أن ما هو مقصود بالفعل هو أكبر من مجرد التأثير أو

السيطرة على الحياة النفسية الداخلية للمستمع ، فالتحدث المتعمد هو نوع من الفعل غرضه استدعاء ظاهرة نفسية معينة لدى الموجودات الأخرى وفي علاقته بهذا القصد يبدو الإبلاغ عن العمليات داخل النفس مجرد أثر جانبي pârergon .

(Marty 1908, 284)

وبالنسبة إلى رايناخ Reinach فإن فعلًا من قبيل «أعطى» في «أعطي الأمر» ، لا يمكنه أن يوجد بوصفه فعلًا ، إلا عندما :

لا ينقسم إلى إنجاز ذاتي لفعل أو حالة عارضة ، ولكنه يشكل وحدة داخلية للإنجاز والمنطوق المتعمد ، إن التجربة هنا مستحيلة في ظل غياب المنطوق ، والمنطوق بمكوناته ليس شيئًا تتم إضافته كملحق عارض إضافي ، فهو بالأحرى يقف لخدمة الفعل الاجتماعي في سبيل أن يحقق وظيفة الإبلاغ [kundgebende Funktion] ، بالتأكيد ثمة عبارات عارضة تتعلق بالأفعال الاجتماعية مثل : «أعلنت طلبًا» غير أن مثل هذه العبارات تتصل حينها بالفعل الاجتماعي الكلي من خلال بعدها الخارجي .

(Reinach 1913, 708; Engl. transi. 1983, 20)

التقليد الفرنسي:

إن محتوى هذه الجمل [في الكتب المدرسية] يعنينا بشكل كبير ، وغالبًا ما نخطئ في اعتبارها موضوعية أكثر من اللازم ، أو بعبارة أخرى أدق وصفية أكثر من اللازم ، ومستقاة أكثر من خارج الحياة الواقعية للطفل . فاللغة لم توضع فقط لقول «الشمس تضيء القرية» «تصب الأنهار في البحر» . بل توظف اللغة أيضًا ، وقبل كل ذلك ، للإفصاح عن الرغبات ، وصياغة الطلبات ، والتعبير عن الإرادات . فمن الأفضل أن نخصص حيزًا لهذا الجانب الذاتي إذا أردنا أن نستميل التلميذ لاستعمال الأداة الموضوعة تحت تصرفه [...] ولا أحد يتحدث عن تطبيق القواعد النحوية .

(Bréal 1877, 361-362)

كي اعتبر أنني قد فهمت الكلمتين «السماء تمطر» يكفي أن أحمل مظلتي على نحو واع أو شبه واع ، في الوقت الذي أهم فيه بالخروج . إذا تصرفت على هذا النحو ، يمكنني أن أقول بالفعل إنني قد فهمت الكلمتين «السماء تمطر» ، حتى وإن كنت لم أربطهما أبدًا بالصورتين اللتين تمثلانها .

(Paulhan 1886, 47)

بتوالي السؤال والجواب نكون قد باشرنا مقدمات حوار . لكن إذا كان السائل دائمًا هو نفس الشخص الذي يسأل ، والآخر هو الذي يجيب ، فإن الاستجواب الأحادي الجانب المعني ليس تخاطبًا ، أي ليس استجوابًا متبادلاً ، وتسلسلاً وتعالقًا للأسئلة والأجوبة والمعلومات والاعتراضات المتبادلة .

(Tarde 1973, 145)

يجب أن يتم بحث اللغة في جميع التنوعات الخاصة بوظائفها ، وقبل مناقشة الوظيفة الشعرية لابد أن نحدد موقعها من وظائف اللغة الأخرى ، إن بيان تلك الوظائف يتطلب إيضاحًا مختصرًا لجميع العوامل الفاعلة في أي حدث لغوي وفي فعل التواصل اللفظي .

(Jakobson 1960, 353; 1987, 66; italics by us)

الآن «أقسمُ» هي صورة لقيمة مميزة يتموضع فيها واقع القسم على الشخص الناطق (أنا) ، إن هذا المنطوق هو أداء [وليس إنجازًا] فـ«يقسم» تتكون تحديدًا من المنطوق «أقسمُ» الذي تتقيد به الأنا ، إن المنطوق «أقسم» هو فعل يلزمني تمامًا وليس وصفًا للفعل الذي أشكله ، فبقولي : أعد ، أضمن . أصنع بالفعل وعدًا وضمانًا [...] فيتحدد المنطوق بالحقيقة عينها ، ولكن هذا الشرط ليس مستفادًا من معنى الفعل ، إن موضوعية الخطاب هي ما تجعله ممكنًا .

(Benveniste 1966 [1958], 265; Engl. transi. 1971, 229)

التقليد الإنجليزي:

سأغامر بصورة لافتة كي أبين أن اهتمامي ليس منصبًا على ما يسمى

«معنى» كل ما «يثبت إدراكه وفهمه» ولكن على تحليل الفكرة التي نطلق عليها بالإنجليزية ، للأسف ، المصطلح «معنى» ، إنه في الحقيقة قصد وغرض وهدف وموضوع وربما يكون دافعًا ، لذا حينما أستخدم رمزًا ما أقصد أن تفهم ما يشير إليه ، أقصد إلى إيصال بعض التصورات أو المفاهيم أو معرفة خاصة ببعض الحقائق ، فالعلامات والرموز لا «تعني» إنها ترمز وتشير ، فقط مَن يستخدمها يستطيع أن يعني بها شيئًا آخر .

(Welby, February 4, 1904; voir Noordegraaf 1991, 288)

التكلم ، بالنسبة إلى مالينوفسكي هو «شكل من أشكال الفعل» والتعاون . فللغة في الجوهرطابع تداولي . (p316)

تستعمل الكلمة حين تكون قادرة على إنتاج فعل وليس على وصفه ، وبصفة أقل على ترجمة الفكر .

(Malinowski 1923, 322)

إن الكلمة تعني إلى المتحدث الأصلي الاستخدام الشائع للشيء الذي تشير إليه . (p321) .

إن اللغة كما أطمح أن تراها تدرس عاملًا اجتماعيًا لا ينفصل عن البيئة التي تعطي دافعه ، ولا ينفصل عن المستمع الذي يبرهن بفعل أو باستجابة لفظية على توظيفه العملي ، إنها آلية لتوصيل الفكر فهي ليست نظيره أو روحه .

(Gardiner 1919, 5)

ثمة محاولة فجة لوصف فعل كلامي وحيد وتحليله قدمت في ورقة خاصة بي لم تلق قبولاً عندما عرضت للنشر ، وبمناشدة د . راسل Russell الذي كان متعاونًا ليعبر عن رأي مفاده أن محتوياتها يمكن أن تكون نواة مناسبة لكتاب .

(Gardiner 1951 [1932], ix)

٢ . الفلسفة تعيد اكتشاف التداولية:

بينما يمكن للوعد أن يكون إما عن يقين جيد أو غير جيد ، فإنه لا يسمح

الجميع بأن يكون الوعد إما صادقًا أو كاذبًا ، علاوة على أنهم يصرون على أن الوعد يشبه طرح سؤال أو طلب حيث يصر على تقديم تصريح ، بل فعل شيء معين بالمعنى الذي يجعلنا نضع الفعل في مقابل مجرد التكلم .

(Prichard 1949, 171)

هناك في جمل لغتنا الطبيعية ما وظيفته الأساس ليس وصف الأشياء أو الأحداث أو الأشخاص أو أي شيء آخر ، ولا حتى التعبير عن المشاعر الطيبة والأحاسيس ، ولكن لفعل أشياء مثل المطالبة بالحق (هذا لي) ، أو إعطاء الحقوق حين تتم المطالبة بها (هذا لي) أو نسبة الحقوق وعزوها سواء أتمت المطالبة بها أم لا (هذا له) ونقل الحقوق (هذا لك الآن) وكذلك الاعتراف أو النسبة أو صناعة اتهامات بالمسؤولية (أنا فعلت هذا / هو فعل هذا/ أنت فعلت هذا) فربما يكون الغرض الأساسي من هذا المقال هو اقتراح أن التحليل الفلسفي لمفهوم الفعل الإنساني غير مناسب ومربك على الأقل في جزء منه ، لأن جملاً من قبيل (هو فعل هذا) تم النظر إليها بصورة تقليدية على أنها وصفية بالأساس ، في حين أن وظيفتها الجوهرية أجازف بتسميتها (عزوية) بمعناها الأكثر حرفية وهو عزو المسؤولية عن الأحداث ، ومثلها الوظيفة الأساسية لجمل من الصورة (هذا له) فهي تعزو حقوق الملكية .

(Hart 1951 [1948], 145)

بالنسبة إلى فئة كبيرة من الحالات -وليس جلها- التي نوظف فيها الكلمة «معنى» يمكن تعريفها على النحو التالي : معنى كلمة ما هو استخدامها داخل اللغة .

(Wittgenstein 1958, 43)

إن صدق عبارة ما أو كذبها لا يعتمد فقط على معاني الكلمات ولكن على الفعل الذي تشكله في ظروف معينة .

(Austin 1962, 145)

٥. فلسفة اللغة تنسى تاريخ التداولية:

إن أحد الأسباب التي تجعل موضوع أفعال الكلام موضوعًا ممتعًا جدًا ، هو أنك لا تقلق بشأن ما يقوله كل أعلام الماضي العظماء ، لأن معظم الفلاسفة الكبار لم تكن لديهم نظرية حول أفعال الكلام ، فلن تجد ، بحسب علمي ، رؤية لكانط حول الاعتذار أو التهنئة .

(Searle 1984, 25)

المراجع:

أ . المراجع المذكورة في الملحق:

A) Sources primaires (références des textes cités en appendice)

Austin, J. L. (1962). *How to Do Things with Words. The William James Lectures delivered at Harvard University in 1955*, éd. par J. O[pie] et M. Sbisà, Oxford, Oxford University Press.

Benveniste, E. (1966 [1958]). "De la subjectivité dans le langage", *Problèmes de linguistique générale*, vol. 1, 258-276, Paris, Gallimard [trad, angl., Benveniste, E. (1977), *Problems in General Linguistics*, trad, par M. E. Meeks, Coral Gables, Fia., University of Miami Press].

Bréal, M. (1877). *Mélanges de mythologie et de linguistique*, Paris, Hachette.

Brock, J.E. (1981). "An Introduction to Peirce's Theory of Speech Acts", *Transactions of the Charles S.* Peirce Society 17, 319-326.

Bühler , K. (1932). "Das Ganze der Sprachtheorie, ihr Aufbau und ihre Teile", Kafka, G. (éd.), *Bericht tiber den XII. Kongress der Deutschen Gesellschaft fur Psychologie in Hamburg vom 12.-16. April 1931, 95-122*, Jena, Fischer.

Carnap, R. (1939). *Foundations of Logic and Mathematics*, Chicago and London, University of Chicago Press [=International Encyclopedia of Unified Science, vol. 1, n\ 3].

Gardiner, A. H. (Sir) (1919). "Some Thoughts on the Subject of Language", *Man* 2, 2-6.

Garnier, A. (1852). *Traité des facultés de l'âme, comprenant l'histoire des principales théories psychologiques*, 3 vols, Paris, Hachette.

Hart, H. L. A. (1951 [1948]). "The Ascription of Responsibility and Rights", Flew, A. (éd.), *Essays on Logic and Language (First Series), 145-166, Oxford, Blackwell.*

Humboldt, W. v. (1963). *Werke in Fiinf Bdnden*, Flitner, A. et K. Giel, K. (éds), Schriften zur Sprachphilosophie, vol. Ill, Darmstadt, Wissenschaftliche Buchgesellschaft.

Humboldt, W. v. (1963 [1827-1829]). "Über die Verschiedenheiten des menschlichen Sprachbaues", Humboldt, W. v. (éd.), *Werke in Fiinf Bànden*, vol. HI, 144-367, Darmstadt, Wissenschaftliche Buchgesellschaft.

Jakobson, R. (1960). "Closing Statement : Linguistics and Poetics", Sebeok, T.A. (éd.), *Style in Language*, 350-77, Cambridge, Mass., MIT Press.

Malinowksi, B. (1953 [1923]). "The Problem of Meaning in Primitive Languages", Ogden, C. K. et Richards, I. A. (éds), *The Meaning of Meaning*, 296-336, New York, Harcourt, Brace & Co, Inc.; London, Routledge & Kegan Paul.

Marty, A. (1908). *Untersuchungen zur Grundlegung der allgemeinen Grammatik und Sprachphilosophie*, vol. I, Halle a.d. S., Niemeyer.

Mead, G. H. (1934). *Mind, Self, and Society*, Chicago, University of Chicago Press.

Morris, C. (1938). *Foundations of the Theory of Signs*, Chicago, University of Chicago Press [= "Foundations of the Theory of Signs", International Encyclopedia of Unified Science, vol. 1, n°2. Chicago, University of Chicago Press].

Noordegraaf, J. (1991). "Van Eeden, Bolland en Lady Welby. Significa in

het licht der Rede", *Voortgang, Jaarboek voor de Neerlandistiek* 12, 281-298.

Peirce, C. S. (1931-35). *Collected Papers*, Vols. 1-6, éd. par C. Hartshorne et P. Weiss, Cambridge, Mass., Harvard University Press.

Prichard, H. A. (1949). *Moral Obligation; essays and lectures*, Oxford, Clarendon.

Reid, T. (1872 [1774]). "A Brief Account of Aristotle's Logic, with Remarks", *Works*, vol. II.

Reinach, A. (1913). "Die apriorischen Grundlagen des biirgerlichen Rechts", *Jahrbuch fier Philosophie und phanomenologische Forschung* 1/2, 685-847 [trad. angl : "The Apriori Foundations of the Civil Law", par John F. Crosby, *Aletheia* 3, 1983, 1-142].

Searle, J. R. (1984). "Interview [with G. Heyer and D. Munch]: Von der Sprechakttheorie zur Intentionalität", *Information Philosophie*, Janv. 1984, 24-30.

Stewart, D. (1810). *Philosophical Essays*, Edinburgh, Creech.

Tarde, G. (1973). *Ecrits de psychologie sociale*; choisis et présentés par A.M. Rocheblave-Spenlé et J. Milet ("Radamanthe"), Toulouse, Edouard Privât.

Thiebault, D. (1802). *Grammaire philosophique, ou la métaphysique, la logique, et la grammaire, réunies en un seul corps de doctrine*, 2 vols, Paris, Courcier.

Wittgenstein, L. (1958). *Philosophical Investigations* [2e éd. revue et corrigée, 1958, Oxford, Blackwell (lre éd. 1953)].

ب . بيبليوغرافيا (النصوص المذكورة في المقال):

Auroux, S. (1998). "Présentation: où naît la pragmatique?", *Histoire Épistémologie Langage* XX/I, 93-100.

Bernhardi, A.F. (1801). *Sprachlehre*. Erster Theil. *Reine Sprachlehre*, Berlin, Frôlich [réimpr. Hildesheim-New York,Olms, 1973].

Biletzki, A. (1991). "Richard Johnson: A Case of 18th-Century Pragmatics", *Historiographia Linguistica* 18/2-3, 281-300.

Biletzki, A. (1996). "Is there a history of pragmatics?", *Journal of Pragmatics* 25, 455-470.

Braunroth, M. et al. (1978 [1975]). *Ansdtze und Aufgaben der linguistischen Pragmatik*, Frankfurt a.M., Athenaum.

Douay, C. (1984). "Pour une histoire des théories de renonciation: *The Theory of Speech and Language de A. H. Gardiner (1932)", Auroux, S. et al., Matériaux pour une histoire des théories linguistiques. Essays toward a History of Linguistic Theories. Materialien zu einer Geschichte cler sprachwissenschaftlichen Theorien*, 505-513, Villeneuve d'Ascq, Presses Universitaires de Lille.

Gardiner, A.H. (1932/1951). *The Theory of Speech and Language*, Oxford, Clarendon Press [2e éd. avec additions (p. 328-344), 1951; reimpr., 1963].

Gardiner, A.H. (1989). *Langage et Acte de Langage*. Aux sources de la pragmatique, [trad. fr. de Douay, C, Villeneuve d'Ascq, Presses Universitaires de Lille].

Nerlich, B. (1984). "Pour une histoire de la pragmatique", *Archives et Documents de la Société d'Histoire et d'Épistémologie des Sciences du*

Langage 4, 45-68.

Nerlich, B. (1986). *La Pragmatique : Tradition ou révolution dans l'histoire de la linguistique française?*, Frankfurt a.M./Bern/New York, Peter Lang.

Nerlich, B. (1996). "Einfuhrung in die Geschichte der Pragmatik", *Zeitschrift fur Semiotik* 18/4, 413-421.

Nerlich, B. (1998). "Linguistic Representation as 'Darstellung': From Bernhardi to Biihler", *Cannocchiale. Rivista di studi filosofici* 1, 193-223.

Nerlich, B. et Clarke, D.D. (1994). "Language, Action and Context. A history of pragmatics in Europe and America, 1800 to 1950", *Journal of Pragmatics* 22, 439-463.

Nerlich, B. et Clarke, D.D. (1995). "The 1930s: At the birth of a pragmatic conception of language", *Historiographia Linguistica* 2211, 311-334.

Nerlich, B. et Clarke, D.D. (1996). *Language, Action, and Context. The early history of pragmatics in Europe and America*, 1780-1930, Amsterdam/Philadelphia, John Benjamins.

Nerlich, B. et Clarke, D.D. (1998). "Reconstructing Research Programmes: Semantics and Pragmatics", Schmitter, P.; Van der Wai, M. (éds), *Metahistoriography. Theoretical and Methodological Aspects in the Historiography of Linguistics*, 155-163, Munster, Nodus Publikationen.

Noordegraaf, J. et Vonk, F. (éds) (en préparation). *The History of Semantics and Pragmatics in the Low Countries*, Amsterdam/Philadelphia, John Benjamins.

Paulhan, F. (1886). "Le Langage intérieur et la pensée", *Revue*

Philosophique 21, 26-58.

Paulhan, F. (1927). “La Double fonction du langage”, *Revue Philosophique* 104, 22-73.

Posner, R., ROBERING, K. et SEBEOK, T. A. (éds) (1998). *Semiotics. A handbook on the sign-theoretic foundations of nature and culture*, 3 vols (HSK Band 13), Berlin-New York, Walter de Gruyter.

Reid, T. (1872 [1785]). “Essays on the Intellectual Powers of Man”, *Works*, vol. I.

Reid, T. (1872 [1863]). *The Works of Thomas Reid*, Now Fully collected, with selections from his unpublished letters. Preface, notes and supplementary dissertations, by Sir William Hamilton. Prefixed, Stewart's account of the life and writings of Reid, vols I and II. Seventh edition. Edinburgh, Maclachlan and Stewart; London, Longman, Green, Longman, Roberts, and Green [reimpr. Hildesheim, Olms, 1967 et 1983].

Schlieben-Lange, B. (1979 [1975]). *Linguistische Pragmatik*, Stuttgart/ Berlin /Koln/Mainz, Kohlhammer.

Schlieben-Lange, B. (1989). “Elemente einer pragmatischen Sprachtheorie in den Grammaires générales um 1800”, *Zeitschrift fiir Literaturwissenschaft und Linguistik* 76, 76-93.

Schuhman, K. et Smith, B. (1990). “Elements of Speech Act Theory in the Work of Thomas Reid”, *History of Philosophy Quarterly* 7/1, 47-66.

Seuren, P. A.M. (1998). *Western Linguistics. An historical introduction*, Oxford, Blackwell.

Vater, J.S. (1801). *Versuch einer allgemeinen Sprachlehre. Mit einer*

Einleitung iiber Begriff und Ursprung der Sprache und einem Anhange iiber die Anwendung der allgemeinen Sprachlehre auf die Grammatik einzelner Sprachen und auf die Pasigraphie, Halle a.d.S., Renger [réimpr. avec une introduction et un commentaire par Herbert E. Brekle. Stuttgart-Bad Canstatt, Friedrich Fromann Verlag, 1970].

Verschueren, J., Ôstman, J.-O. et Blommaert, J. (éds) (1995). *Handbook of Pragmatics: Manual*, Amsterdam/Philadelphia, John Benjamins.

Wegener, P. (1885/1991). *Untersuchungen Uber die Grundfragen des Sprachlebens*, Halle a.d.S., Niemeyer [Nouvelle éd. par E.F.K. Koerner avec une introduction par Clemens Knobloch, Amsterdam/Philadelphia, John Benjamins, 1991].

Wegener, P. (1921). "Der Wortsatz", *Indogermanische Forschungen* 39, 1-26.

هل التداولية علم إمبريقي.؟![*]

إيفارج. تونيزن

ترجمة

د . منتصر أمين عبد الرحيم

سأركز في هذا المقال على دراسة اللغات الطبيعية ، وسوف أعدُّ التداولية فرعًا من البحث في اللّغات الطبيعيّة ، وعلى الرّغم من هذا يبدو أنه ليس هناك اتفاق حتى الآن حول نوع النّظريات التي يمكن أن تقع ضمن التّداوليّة حتى لو قصرناها على دراسة اللغات الطّبيعيّة .

في الأصل تم تقديم مصطلح التّداوليّة على يد شارلز موريس Charles Morris كجزء من نظرية العلامات[1] ، ويمكن النّظر إلى اللّغة الطبيعيّة على أنها حالة خاصة من وظيفة العلامات ؛ ومن ثم فإن تعريف التّداوليّة لدى «موريس» ينطبق على دراسة اللّغات الطبيعيّة ، ولتسوية الخلاف حول التّعريف المناسب للتّداوليّة أعتقد أنه ينبغي العودة إلى تعريف «موريس» سنة ١٩٣٨ بما أنه صاحب الحق التّاريخي لهذا المصطلح ، وأن نحاول أن نجد تصورًا مثمرًا للتّداوليّة يتماشى وحدود تعريف «موريس» ، إذ عرّف «موريس» التّداوليّة - بشيء من الاتساع - على أنها دراسة العلاقة بين العلامات ومؤوليها ، ولعل الإشارة إلى

(*) Ivar J. Tonissen 1981: Pragmatics - An Empirical Science? Philosophica, Vol. 27, (1): 95-106.

(1) Charles Morris, Foundations of the Theory of Signs, (1938).

المؤولين تضع التداولية بعيدًا عن التركيب الذي عرفه «موريس» على أنه دراسة العلاقات بين العلامات وغيرها ، وتضعها كذلك بعيدًا عن الدلالة التي عرفها على أنها دراسة العلاقات بين العلامات والأشياء التي تنطبق عليها . إن التقرير الواضح من هذه الفروق الذي ينطبق على دراسة اللغات الطبيعية واللغات الاصطناعية يعود إلى رادولف كارناب Rudolf Carnap حيث بيّن أن النظرية التداولية يمكن أن تتضمن عناصر دلالية وتركيبية(١) .

-١/٠-

بصورة عامة تعد اللسانيات الآن علمًا إمبريقيًا مع بعض الاستثناءات القليلة ، ومن الطبعي تمامًا اعتبار التداولية - بوصفها مكونًا من مكونات دراسة اللغات الطبيعية - فرعًا من هذا العلم الإمبريقي ، على الرغم من بعض التصورات التداولية التي لا تبدو مناسبة لإطار العلم الإمبريقي(٢) ، وبهذه الرؤية تبدو التداولية بالإضافة إلى ذلك فرعًا من علم معياري يتعامل مع التواصل

(1) Rudolf Carnap, Introduction to Semantics, (1962).

(٢) لم أذكر متعمدًا العمل الذي قدمه كاشر Asa Kasher ذلك أنه غير واضح لدي إذا كانت التداولية وفقًا لرؤيته علمًا إمبريقيًا أم لا ، فعلى سبيل المثال يصعب تقييم مبدأ العقلنة لدى كاشر [Asa Kasher (Ed.): Conversational Maxims and Rationality. In Language in Foucus, 1976, p. 210] ، فلا أعرف كيف يتواصل الفاعل العقلاني ، ومن ثم أجد أن تعريف كاشر غير محدد ، انظر : Kasher: Mood Implications: a Logical Way of Doing Generative Pragmatics. In Theoretical Linguistics, No. 1/2, p. 7 and p. 19 فالواضح بالنسبة إليّ أن المناسبة اللغوية يجب أن تكون واضحة ومحددة بصورة جيدة قبل أن تستعمل في تفسير المفاهيم التداولية الأخرى ، وحتى يصدر كاشر طبعة أكثر تماسكاً من عمله فمن المبكر جداً تقييمه ؛ ومن ثم حاولت أن أتجنب مناقشة عمل كاشر في هذه المقالة ، ولكني أبحث عن تفسير لفكرته عن المتكلم المثالي في مجتمعات لغوية مثالية .

العقلاني . فإذا تصورنا التداولية بهذه الطريقة فإن نظرياتها لا يمكن أن تُدحض من خلال المعطيات القائمة بصورة أساسية على ملاحظة السلوك الإنساني . ولأن جانبًا كبيرًا من أدبيات اللسانيات يهتم بتأكيد النظريات أو دحضها باستخدام معطيات إمبريقية ، فإن من الضروري ملاحظة أن هذا النوع من النشاط لا يتصل بتحديد قيم الصدق للنظريات التداولية بوصفها نظريات معيارية ، إن المعطيات الإمبريقية يجب أن تبقى متصلة بهذه النظريات ؛ لأنها سوف تفرض شروطًا إضافية على المعايير المعقولة ، فعلى سبيل المثال المعايير الخاصة بالتواصل العقلاني - التي لا يمكن للمرء إدراكها بصورة تقريبية - ستكون غير مهمة ، ولكنها في الحقيقة ليست خاطئة .

-٢/٠-

الآن أقدم بيانًا مقتضبًا لهذا المقال ، في البداية سوف أناقش ما يتعلق بمفهوم غرايس Paul Grice عن العقلانية ، وكيف يتصل هذا المفهوم بفكرة العلم الإمبريقي ، وسوف أفترض أن مفهوم العقلانية هذا مفهوم معياري لا يشكل جزءاً من علم إمبريقي ، فإذا كانت التداولية جزءاً من علم إمبريقي لا يمكن أن تكون جزءاً من نظرية حول التواصل العقلاني ، ثانيًا : سوف أهتم بالنتائج المترتبة على عد التداولية علمًا إمبريقيًا ، ثالثًا : سوف أبحث في إمكانية النظر إلى التداولية بصورة معقولة على أنها جزء من هذه النظرية حول التواصل العقلاني ، وفي الخاتمة أحاول تقييم أي البدائل تبدو أكثر منطقية .

-١-

كي نبدأ هذا سوف أهتم بمفهوم العقلانية في بعض نظريات التواصل العقلاني ، فالعقلانية - في السياق الذي أقصده - تعنى بصورة واضحة بتأثيرية التواصل ، وأن التواصل العقلاني هو الطريقة الأكبر تأثيرًا في نقل الرسائل بين الناس ، إن تأثيرية التواصل تتزايد إذا كانت هناك أخطاء قليلة

محتملة في عملية النقل ، وإذا كان طول عملية النقل وتعقيدها أقل ، وأعتقد أن هذه الملاحظات العامة تميز بصورة دقيقة -تبعًا لأهدافي- مفهوم العقلانية المقصود هنا ، ولكن من الطبعي أن هذا المفهوم للعقلانية مجرد مفهوم واحد فقط من مفاهيم كثيرة محتملة .

والسؤال الآن هو إذا كان مفهوم العقلانية هذا يمكن أن يقع في إطار علم إمبريقي أم لا ، ومن أجل فهم هذه المسألة سوف أضع مفهوم العلم الإمبريقي في مقابل مفاهيم : العلوم المعيارية ، والعلوم الصورية ، والتخصصات غير العلمية ، وسأتخذ الفيزياء نموذجًا للعلم الإمبريقي ، ونظرية اللعبة كما طورها جون فون نيومان John von Neumann وأوسكار مورجنسترن Oskar Morgenstern نموذجًا للعلم المعياري ، والرياضيات البحتة نموذجًا للعلوم الصورية ، والثيولوجيا نموذجًا للتخصصات غير العلمية ، وفي مقابل الأنواع الأخرى من العلوم التي ذكرتها هنا من المتفق عليه بصورة عامة أن فرضيات علم إمبريقي ما يمكن دحضها ، أو على الأقل لا يمكن تأكيدها بدليل ما يعتمد على الملاحظة[1] . فالدليل يمكن أن يعود دائمًا إلى الملاحظة الحسية من خلال السلاسل العليّة (السببية) ، ولكن ليس من المقبول في العلم تنفيذ هذا البرنامج بصورة فعلية ، علاوة على أنه يجب أن نتذكر أن هذا الدليل هو محمل النظرية دائمًا ؛ لأن السلاسل العلية التي تربط هذا الدليل بالملاحظة الحسية يمكن إنجازها باستخدام نظريات أخرى ، وسوف أسمي هذا النوع من الأدلة الذي ذكرته دليلًا إمبريقيًا ، وبصورة مجملة فالسؤال هنا هو إذا

---

(١) من بين العديد من المصادر يمكننا الإشارة إلى :

Mario Bunge. Metascientific Queries, (1959), p.33./Peter Caws. The Philosophy of Science, (1965). P.137./Carl G. Hemple. On the Nature of Mathematical Truth, (1945), p 3; Readings in Philosophical Analysis (1945) edited by Herbert Feigl and Wilfried Sellars (1949)./Karl Popper. The Demarcation between Science and Metaphysics. (1955). In Conjectures and Refutations, (1962).

كانت النظرية التداولية -وهي جزء من نظرية عامة في التواصل العقلاني- يمكن دحضها بدليل إمبريقي أم لا ، وإذا كانت النظرية التداولية - التي نفهمها بهذه الطريقة - يمكن دحضها بالدليل الإمبريقي فإن هذا المفهوم من العقلانية سوف يقع بالضرورة في إطار نظرية إمبريقية ، من ناحية أخرى إذا كان لا يمكن دحض مثل هذه النظرية التداولية بدليل إمبريقي ، فإن هذا المفهوم من العقلانية يجب أن يكون من نوع مختلف عما في النظرية الإمبريقية . وهذا هو الحال لأن هذا المفهوم من العقلانية هو المفهوم الوحيد في هذه العلاقة الذي ينظر إليه كما لو كان لا يتناسب مع إطار عمل نظرية إمبريقية ما .

ودعني أجري تجربة عقلية تفحص النظرية التداولية بوصفها جزءاً من نظرية التواصل العقلاني ، وأفترض أن التواصل اللفظي الإنساني فشل بوضوح في تلبية متطلبات النقل الفاعل للأفكار الذي تصفه نظرية تداولية من هذا النوع ، وفي هذه الحالة هل يمكن دحض هذه النظرية التداولية بالدليل الإمبريقي؟ من الواضح أن الإجابة بالنفي (لا) فهذا يبيّن فقط أن البشر لا يتواصلون بطريقة عقلانية تبعًا لهذه النظرية ، والمقصود أنه ليس هناك طريقة لدحض هذا المفهوم من العقلانية بالدليل الإمبريقي ، هذه الحقيقة تبيّن بطريقة مناسبة أن هذا المفهوم من العقلانية يصف بعض معايير التواصل الفاعل الذي ربما لا يكون موجودًا في الواقع الحقيقي ، ومن ثم فإن هذا المفهوم من العقلانية هو مفهوم معياري ليس عرضة للدحض بالدليل الإمبريقي .

١/١ : لنكرر ما سبق ، هناك اتفاق عام - مع قليل من الاستثناءات- على أن اللسانيات المعاصرة علم إمبريقي أو يجب أن تكون كذلك ، وأعتقد أن الباحثين الذين يفترضون أن اللسانيات ليست علمًا إمبريقيًا مخطئون ، ولكن دحض آرائهم يقع بعيدًا عن مجال هذا المقال[١] ، فأنا افترض ببساطة أن

---

(١) يعد Esa Itkonen هو الاستثناء الرئيس ، انظر على سبيل المثال مقاله Was Fur Wissenschaft ist die Linguistik eigentlich. In Wissenschaftstheorie der Linguistik (1976) edited by Dieter Wunderlich ففي هذا العمل وغيره من أعماله العديدة وضع رؤيته التي تشذ بصورة لافتة عما هو مألوف .

اللسانيات علم إمبريقي ويجب أن تكون كذلك ، ولعل الدراسة العلمية للغة – على الرغم من هذا – ليست حكرًا على اللسانيات ، ففروع من علم النفس وعلم الاجتماع والذكاء الصناعي والفلسفة – على سبيل المثال – تهتم أيضًا باللغة ، وعندما تتداخل هذه الفروع مع اللسانيات فإن هذا النوع من الدراسة سوف ينتمي على الأقل إلى علمين ، وداخل هذه المساحات من الدراسة افترض أن نظريات عديدة حول اللغة الطبيعية يمكن صياغتها ، وسوف أسمي مجال النظريات المتداخلة هذه نظرية اللغة الطبيعية ، هذا المجال كما أفترض هو علم إمبريقي ، ويجب النظر إليه على أنه كذلك ، وسوف يجد بعض الفلاسفة أنه من الغريب أن توجد فروع من الفلسفة بوصفها علومًا إمبريقية ، ولكني أعتقد أن هذا هو الحال في الحقيقة ، وأعتقد كذلك أن معظم الباحثين الذين يتعاملون مع النظريات الدلالية المقترحة بخصوص اللغات الطبيعية داخل مجال الفلسفة سوف يتفقون معي على أن مثل هذه النظريات هي نظريات إمبريقية ، ولعل عمل تيرنس بارسونز Terence Parsons يمثل حالة نموذجية في هذا المجال[1] ، وعليه فإن هناك نظريات فلسفية تشكل نظريات إمبريقية . وأنا لا أزعم أن فلسفة اللغة جميعها تقع في إطار العلوم الإمبريقية ، بل على العكس من هذا سوف أذكر – على سبيل المثال – بعض أعمال «غرايس» حول فلسفة اللغة التي تقع خارج حدود العلوم الإمبريقية ، ومازلت أبقي – على الرغم من هذا – على أن جميع النظريات التي هي جزء مما أسميته نظرية اللغة تقع في حيز العلم الإمبريقي ، بل يجب أن تكون كذلك ، ومن خلال هذا الربط لست مضطرًا إلى تعيين حدود عمل ما –على وجه الدقة– ينتمي إلى نظرية اللغة الطبيعية وعمل آخر لا ينتمي إليها ، وسوف يكون كافيًا أن نبين بعض العلوم الجوهرية – مثل : اللسانيات النفسية ، واللسانيات الاجتماعية ، واللسانيات

---

(١) نسخة غير منشورة من عمل له بعنوان A Semantics for English (١٩٧٢) تمثل بصورة كاملة رؤى بارسونز ، هذه النسخة ما زالت تمثل معالجة كاملة لتركيب الإنجليزية ودلالاتها .

الحاسوبية ، وعلم الدلالة الشكلي بالنسبة للغات الطبيعية - التي يجب أن يتضمنها هذا المجال بصورة نهائية .

إن مطلبي الأساسي هنا لا يتمثل فيما إذا كانت التداولية جزءاً من المحتوى الإمبريقي لنظرية اللغة أو أنها يجب أن تكون كذلك ، بل إنها يجب أن تكون أيضًا علمًا إمبريقيًا ؛ ذلك أن أي مجال فرعي من المحتوى الإمبريقي للعلم الإمبريقي يجب أن يكون بنفسه علمًا إمبريقيًا .

٢/١ : كما ذكرت من قبل هناك دليل كاف على أن مفهوم العقلانية الذي أناقشه هنا في هذا المقال هو مفهوم معياري ؛ لأنه يصف بعض قواعد التواصل الفاعل ولا يمكن دحضه بدليل إمبريقي ، ولكن على الرغم من هذا هناك احتمالية لأن يعيّن مفهوم العقلانية هذا حدود علم إمبريقي ما وإن لم يكن جزءاً من إطار أية نظرية إمبريقية ، وبهذه الطريقة يمكن لمفهوم «معياري» أن يلعب دورًا داخل علم إمبريقي ، على الرغم من أنه ليس جزءاً مباشرًا من أية نظرية إمبريقية ، والسؤال الآن هو أي نوع من التأثيرات غير الحقيقية التي يجب أن يتجاهلها الفرد حتى يصل إلى جوهر موضوع التواصل ، إن مفهوم تشومسكي Chomsky عن الكفاءة يشكل شرطًا مثاليًا لهذا النوع من النظريات النحوية ، وهذا المفهوم من العقلانية ربما يلعب دورًا قياسيًا في النظريات التداولية ، والسؤال هو إذا ما كان هذان المفهومان يتساويان مع مفهوم علم إمبريقي والعكس بالعكس؟ ، أفترض أنهما ليسا كذلك ، أولاً لأن مفهوم الكفاءة وظِّف كي يعمل على تجاهل القيود السيكولوجية غير الأساسية بالنسبة لملكة اللغة ، بينما هذا المفهوم من العقلانية يستبعد كثيرًا من الظواهر الهامشية داخل التواصل ، إن القدرة على توصيل معلومات مناسبة فقط إلى شخص ما كي لا نجرح شعوره هي السمة الجوهرية للكفاءة التواصلية البشرية ، ولكن هذه القدرة ربما تعوق في الحقيقة معظم النقل الفاعل للمعلومات ، علاوة على أن هذه الوظائف للتواصل البشري ليس إساءة استخدام للتواصل الطبيعي كما في حالة الكذب والخداع ، ثانيًا إن الفرق بين أداء اللغة الفعلي والكفاءة ليس كبيرًا جدًا ، فإذا لم تكن

الكفاءة في معظم الحالات هي اقتراب من الأداء الفعلي للغة من جانب المتحدث الأصلي فإن مفهوم الكفاءة لن يعد شرطًا مثاليًا للاستخدام الفعلي المشترك[١] . إن التواصل العقلاني ليس مثاليًا في حالات وثقافات كثيرة ، والمثالي - على سبيل المثال - أن تصنع انطباعًا جيدًا لدى شخص ما بدلًا من إعطائه معلومات كاملة ذات صلة تشوه مكانتك .

وبالإجمال فإن مفهوم العقلانية المعتبر هنا لا يمكن أن يكون شرطًا حدوديًا لعلم إمبريقي في هذه الحالة ؛ ومن ثم فإن هذه النظرية حول التواصل العقلاني لا يمكن أن تكون علمًا إمبريقيًا لأنها تحوي أفكارًا لا تلعب دورًا في العلم الإمبريقي الذي يتصل بها .

٣/١ : تم النظر إلى التداولية على أنها جزء من نظرية اللغات الطبيعية وفي الوقت نفسه بوصفها جزءاً من هذه النظرية الخاصة بالتواصل العقلاني في عديد من الدراسات الحالية ، ولعل مبادئ «غرايس» هي أفضل ما عرف من المعايير العقلانية المقترضة في التداولية والتي سوف أناقشها فيما بعد ، ولقد وسّع جيرالد جازدر Gerald Gazdar - على سبيل المثال - مجال تطبيق هذه المبادئ على ما يسمى التداولية ذات التوجه الإمبريقي ، وذلك في كتابه التداولية Pragmatics[٢] . ومن خلال هذا التوسع قام جازدر أيضًا بفصل هذه المبادئ عن سياقها لدى «غرايس» ، ولأن محاولته هذه هي الأكثر نجاحًا في تحقيق الغرض من هذا المنظور ، فسوف أركز على هذا النوع من عمله حينما أناقش التداولية بوصفها علمًا معياريًا ، وفي هذا النوع من العمل لا أريد أن أضم إليه أعمالًا أخرى كانت أكبر حرصًا في صياغتها .

من المهم هنا أن نبيّن أن مبادئ «غرايس» كان لها تأثير كبير على التداولية

---

(١) ربما استمرت رؤيتها بوصفها أَمْثَلة لحالات خاصة .

(٢) Gerald Gazdar. Pragmatics, (1979) من أفضل الأعمال التي تتماشى ومقترحاتنا ، وتمثل الصفحات من ٥٥ إلى ٦٢ جزءاً منها .

وأن كثيرًا من الكتّاب قد استخدم هذه المبادئ ، ولقد اخترت من أجل ذلك أن أذكر فقط مثالًا جيدًا من هذا العمل يمثل بصورة مناسبة الاتجاه المعاصر في التداولية ، وبسبب ضيق المساحة هنا أفترض للأسف أن القارئ على دراية بنظرية «جازدر» ، على سبيل المثال في الصفحة الثامنة والخمسين من الكتاب دمج «جازدر» بشكل واضح أحد مبادئ «غرايس» فيما يفترض أنه نظرية إمبريقية ، وأخذ هذا المبدأ بعيدًا عن سياق استخدامه داخل عمل «غرايس» ، بصورة مجملة إن مصطلح جازدر «im-plicature الاقتضاء» يبدو جذابًا ؛ لأن مقبوليته تعتمد على صورة خاصة من مبدأ الكمية Quantity لدى «غرايس»[١] ، وباعتبار أن هذا المبدأ ليس مفهومًا إمبريقيًا فإن مصطلح الاقتضاء يعوزه المحتوى الإمبريقي ؛ بمعنى أنه من المستحيل رفض الاقتضاء المزعوم الذي يتطابق مع تعريفه (IV) من خلال الاستشهاد بمعطيات إمبريقية ، على سبيل المثال تخيل مجتمعًا لغويًا تستخدَم فيه الفونولوجيا والتركيب والدلالة بطريقة موحدة ، ولكن مستخدمي اللغة لهم معتقدات ومقاصد ليست مسطورة بصورة مناسبة داخل النصوص المتاحة ، هذه الصورة عن خلفية اللغة تبدو ملائمة لمفهوم «تشومسكي» عن الموقف المثالي لبحث اللغة الطبيعية ، إن رؤية «جازدر» كما أفهمها - والتي تكمن في أن باحث اللغة الطبيعية لا يمتلك فقط الاقتراب من بعض أنواع مواد اللغة المنطوقة والمكتوبة ، بل له أيضًا قدرة عجيبة على النظر مباشرة إلى عقول المتكلمين - أي : مفهوم السياق فوق اللغوي - تتعارض مع التراث اللغوي ، فتبعًا لهذا التراث لا يعد عقل المتكلم جزءاً من المعطيات الإمبريقية المتاحة بشكل مباشر للباحث اللغوي ، وبدلًا من هذا فإن الطريقة التي يعمل من خلالها عقل المتكلم يمكن بيانها من خلال المعطيات الإمبريقية المتاحة التي تقوم على النصوص ، وتحليل الخطابات ، واختبارات استنباط الأحكام وغيرها ، فبالاعتماد على هذا الدليل غير المباشر يمكن للباحث اللغوي

---

(١) في الصفحة ٥٥ يعترف جازدر أن مفهومه هذا عن الاقتضاء يعتمد على مبدأ الكمية لدى غرايس .

أن يعيد - بطريقة ما - بناء ما يحصل في عقل المتكلم ، ولكن يظل نجاحه يعتمد بصورة كبيرة على نوعية البيانات غير المباشرة التي سوف يبدأ بها ، وافترض الآن أن عضوًا من مجتمع لغوي هو A يقول : «أعتقد أن X فعل غير أخلاقي» وافترض أيضًا بالإضافة إلى هذا أن هذا العضو هو راو موضوعي شديد الحساسية للأمور الأخلاقية ، وأنه يؤمن بأن المعتقدات الأساسية حول القواعد الأخلاقية تتساوى بالقدر نفسه مع معرفة هذه القواعد ، فعندما يقول A : «اعتقد أن x فعل غير أخلاقي» فهو ليس مستعدًا بالتأكيد لقبول جملة «أنا لا أعرف إذا ما كان x فعلا غير أخلاقي» ، لذا -ووفقًا لتعريف «جازدر»- فإن الجملة الأخيرة هي اقتضاء واضح لجملة A الأولى[1] ، وعليه فإنه عندما ينطق بالجملة الأولى ربما يكون مصرًا على الحديث إلى جميع المستمعين حول المعتقدات الأخلاقية بوصفه راويًا موضوعيًا تبعًا للفرضية التي تقول بأن هذا هو قصده الواضح ؛ ومن ثم فالخروقات المقصودة لقاعدة (الكمية) لدى «غرايس» ومفهوم «جازدر» للاقتضاء لا تناسب هذه الحالة ، ففي هذا المثال تفشل النصوص في تقديم الدليل الكافي لإبطال هذا الاقتضاء ، ولكن فكرة إبطال الاقتضاء هي فكرة غير جديرة أن نبدأ بها ، فمن غير المعقول أن نبدأ - أولًا - ببناء الاقتضاءات ؛ ومن ثم أن نحاول - ثانيًا - تجزئتها بأداة قوية تعتمد على معرفة كاملة بجميع السياقات وراء اللسانية ذات الصلة كما فعل «جازدر» ؛ ذلك أن الاقتضاءات لن تخرج إلى حيز الوجود في هذه الحالة ، وعلى الرغم من أن مثالي لا يدحض نظرية الاقتضاءات إلا أنه يبين فقط أن المفهوم غير مناسب ، فما يبينه مثالي هو أن الاقتضاءات الحقيقية ليست منفصلة عن نوايا ومعتقدات متحدثي لغة معينة ، وأن هذه النوايا والمعتقدات قد يعرفها باحث اللغة بصورة جزئية فقط .

---

(١) في الصفحة ٥٨ يقول جازدر إن « . . . علم واعتقد . . .» مقياس ، وفي الصفحة ٦١ في مثاليه رقم ٧١ ، و ٧٢ استخدم جازدر هذا المقياس .

٤/١ : مما سبق يمكننا القول إن التداولية يجب النظر إليها كجزء من نظرية اللغات الطبيعية بعيدًا عن دراسة التواصل العقلاني الذي تصبح فيه علمًا إمبريقيًا ، أو كجزء من الدراسة المعيارية حول التواصل العقلاني ، ولكن لا تجمع بينهما معًا ، وإن القصد إلى تضمين التداولية - كعلم إمبريقي - مفهوم التواصل العقلاني قصد خاطئ ببساطة ، وفي الجزء التالي سوف أبحث النتائج المترتبة على هذا .

-٢-

ولنبدأ هذا سوف أناقش الرؤية التي مفادها أن التداولية علم إمبريقي وجزء من نظرية اللغة .

١/٢ : يمكن لنا أن نميز بين مستويات مختلفة من التداولية ، وأعتقد أن هناك ثلاثة مستويات رئيسة لها ، وأن التفريق بين هذه المستويات يساعد على فهمها باعتبارها علمًا إمبريقيًا ، فعمل ريتشارد مارتن Richard M. Martin يقترح علينا وجوب النظر إلى مستويات التداولية[1] ، ولأنني -على الرغم من ذلك- لا أتفق مع بعض مقترحات محددة في عمل «مارتن» سوف أضع هنا تصنيفي الخاص[2] :

المستوى الأول من التداولية يتعامل مع علاقة مستخدمي اللغة -أي المتكلم والمستمع- بالتركيب والدلالة وفونولوجيا اللغة التي يستخدمونها ، وأعني

---

(١) ناقش ريتشارد مارتن مفهوم مستويات التداولية في الصفحة ٩ من كتابه Richard M. Martin. Toward a Systematic Pragmatics, (1959) .

(٢) انظر مارتن : المرجع السابق ، ويبدو لي أن المستوى الأول من التداولية لدى مارتن يفترض مسبقًا المستوى الثالث لها ، ولا أريد أن أؤكد على هذه الفكرة ، ولكن يبدو أن مارتن نفسه قد فعل هذا ، ومن ثم يبدو أن هذه المستويات بمقياسه هو مشكوك فيها ، وبدلًا من هذا وضعت تأكيدًا على درجة تعقيد الظاهرة في كل مستوى وذلك بوضع أقلها تعقيدًا داخل المستوى الأول وهكذا .

بالعلاقات هنا العلاقات الخارجية البعيدة عن عقل المستخدمين التي تتطلبها جميع الأنحاء Grammars ، ويتضمن المستوى الأول وظائف الإشاريات والإحالة إلى الأشخاص غير الموجودين في النص والتنغيم المعطى لتأكيد عنصر ما مرغوب وغير ذلك .

المستوى الثاني من التداولية يهتم بالعلاقات الداخلية بين المستخدمين ، مثل العلاقة داخل عقل المستخدمين التي تجمع بين المستخدمين وسياقهم الاجتماعي ، ويتضمن هذا المستوى الافتراضات المسبقة والمعاني المقترحة ، ولعل باحثي اللغة الطبيعية لا يصلون مباشرة إلى المعلومات الخاصة بهذا المستوى ، ولكن يجب عليهم بناؤها من المعطيات الإمبريقية المتاحة .

المستوى الثالث من التداولية يتعامل مع التواصل الذي يجري بين مستخدمي اللغة موضع الاعتبار ، وأعني بالتواصل جميع أنواع تبادل الأفكار ، وفي هذا المستوى من الطبعي التغاضي عن أخطاء التواصل ودراسة كفاءة التواصل البشري اللفظي ، الذي -كما ناقشت سابقًا- لا يتضمن أي مفهوم للعقلانية بمعنى النقل الفاعل للمعلومات .

ولتحديد جميع هذه الوظائف لاستعمال اللغة فإن كلا من السياقات اللغوية وفوق اللغوية تعلب دورًا جوهريًا ، إن تصنيفي هذا يبين أن هناك ظواهر عديدة – يمكن رؤيتها كجزء من التداولية – هي جزء من التداولية التي يمكن اعتبارها علمًا إمبريقيًا .

٢/٢ : ما ينقصنا هنا هو مبادئ «غرايس» وجميع النتائج المترتبة عليها والمفاهيم المشابهة لها ، وسأعمل على أن يكون واضحًا أن عزل المفاهيم المعيارية عن التداولية لن يجعلها مجالًا فارغًا ، وبعيدًا عن هذا هناك بحث موسع لابد من إنجازه في العديد من المجالات التي تعد بالفعل جزءاً من التداولية ، وفي النهاية لابد من النظر إليها منفصلة حتى نرى إذا ما كانت تنضوي تحت مجالات العلم الإمبريقي أم لا ، وهدفي وراء هذا خلق إدراك واع بهذه المشكلة .

من الملائم في هذه المرحلة اعتبار التداولية جزءاً من نظرية التواصل العقلاني الذي ناقشته سابقًا وليست جزءاً من نظرية اللغات .

١/٣ : السؤال الأول حول أي نوع من التواصل العقلاني تقترحه مبادئ «غرايس» ، وللإجابة عن هذا يجب مناقشة هذه المبادئ بشيء من التفصيل[1] ، هذه المبادئ هي : (١) الكمية Quantity ، وهي أن تجعل مشاركتك تحتوي على قدر من المعلومات يتطلبها الغرض من الحديث ، ولا تكون زائدة عما هو ضروري ، (٢) النوعية Quality ، وهي أن تجعل مشاركتك صحيحة ، ولا تصرح بما تعتقد أنه خطأ أو ينقصك عليه الدليل ، (٣) الصلة Relation ، وهي أن تجعل حديثك ملائمًا ، (٤) الطريقة Manner ، وهي أن تكون واضحًا تتجنب غموض التعبيرات وإبهامها ويكون حديثك موجزًا ومرتبًا ، ومن المنطقي والمعقول - على الرغم من هذا - أن يتم اختراق هذه المبادئ خاصة إذا ما أخذت بعيدًا عن سياقها لدى «غرايس» كما فعل «جازدر» ومتوقع من الكثيرين أن يفعلوا مثله ، خذ أولًا -على سبيل المثال- مبدأ (الكمية) إذ من المحتمل أن تكون متحفظًا وتعطي معلومات أقل مما هو مطلوب عندما يسألك منافسوك في العمل ، وثانيًا إذا أخذنا مبدأ (النوعية) فربما تنتصح بعدم ذكر الحقيقة إذا كنت تخبر الأطفال أو توضح للناس بعض الحقائق المخيبة للآمال ، وإذا أخذنا ثالثًا مبدأ (الصلة) ربما يكون مخرجك هو عدم مراعاة هذا المبدأ إذا كنت بشأن الإجابة عن ظروف لا تريد توضيحها ، ورابعًا إذا أخذنا مبدأ (الطريقة) فستجد أن الدبلوماسيين دائمًا يستخدمون لغة غامضة كي تبدو الممارسات مقبولة لأسباب وجيهة ، فإشارة التوقيع على معاهدة ما ربما كانت أكثر أهمية من الموافقة الفعلية على التفاصيل ، فعدم مراعاة الترتيب ربما يخلق أثرًا فاعلًا يفهمه القارئ بيسر ،

---

(1) Paul Grice. Logic and Conversation, (1967). In Syntax and Semantics Volume 3 edited by Peter Cole and Jerry Morgan, (1975), see pp. 45-47.

وقـد يكون هذا الأثر هزليًـا (فكاهيًـا) أو يحـمل بعض المشـاعـر ، وهذا يبين – حسبما أعتقد – أن مبادئ «غرايس» قصد بها نقل فعّال للمعلومات بين شركاء يعـزون أهميـة قصوى لتبـادل المعنى الوصـفي باسـتخـدام جـهد أقل ، وهذا أمـر واضح بصورة نموذجيـة في حـالات كثـيرة من التـواصل بين البـشـر ، إن مـبـادئ «غرايس» معيارية بطبيعتها ولا يمكن دحضها بأمثلة مضادة واقعية ، وهذا يوضح أنها لا يمكن أن تعمل بوصفها شروطًا داخل علم إمبريقي ، كذا يمكن اعتبار هذه المبـادئ نمذجـة مـثاليـة للتـواصل اللفظي الفـعلي حيـث لا تتـمـاشـى والمقـاصـد الإنسـانيـة الأسـاسـيـة من التـواصـل في الحـالات التي أشـرت إليـهـا آنفًـا . اضطر «غرايس» في سبيل دراسـة تبادل معلومات أكثر فعاليـة إلى تقنين النوايا البشرية في مـبـادئه ؛ ومن ثم لا تلعب هذه المبـادئ أي دور داخل العـلم الإمـبـريقي ، بالطبع هناك مهمـة إمبريقية لدراسـة ما إذا كان الناس يتبعون هذه القواعد أم لا ، ولكن هذا لا يجعلها جزءاً من إطار العمل داخل العلم الإمبريقي ، وملاحظتي الأخـيـرة هنا أنه حـتى بعض المفـاهيم القـائمـة على مـبـادئ «غـرايس» لا يمكن دحضها ومع ذلك ستبقى غير معقولة ، ولكن عدم معقوليتها هذه ليست بالأمر المماثل للدحض .

في هذا الصـدد أريد أيضًـا أن اقـتـرح أن مـفـهـوم الاقـتـضـاء يمكن أن يدرس بصورة جيدة دون اللجوء إلى مبـادئ «غرايس» ، غير أن مناقشة مثـل هذا الأمر بالتفصيل تقع بعيدًا عن إطار هذا البحث ، وأشك – على الرغم من هذا – في أن يرتبط الاقتضاء بتقديرات احتمالية موضوعية .

السؤال الثاني هو : ما نظرية التواصل العقـلاني؟ وعلى أي أسس يمكن أن نرفض هذه النظرية أو نقـبلهـا؟ فـبـجـانب المقـبـوليـة الرسـمـيـة يجب أن تتـحلى النظرية ببعض الأمور البـديهية حتى يتم قبولها ، وهذا ليس كل ما هو مطلوب ، ولكن حتى اليوم من الصعب أن نقول المزيد ؛ لأنه ليس هناك أحد – على حد علمي – قـد اقـتـرح نظرية دقـيـقـة حـول التـواصـل العـقـلاني ، ولعـل مـحـاولات يورجن هابرماس Jurgen Habermas تعـد أكـثـر تنظيـمًـا وأقل رسـمـيـة لتـقـدم يد

العون[١] ، فعندما قدم دراسات تخطيطية لجميع أشكال التواصل الإنساني فشل في تقديم دليل أكبر دعمًا ، وكان يجب عليه على الأقل أن يبرهن على أن مخططاته قابلة للتجريب ، ولكن لسوء الحظ وجدتُ أن مناقشاته غالبًا ما تكون غير مقنعة[٢] ، فما نحتاجه هو شيء يشبه العمل الرسمي لنظرية اللعب ، إن إصدارًا أكثر حفزًا وتقريرية لنظرية التواصل العقلاني سوف يفسر مشكلات هذا المجال المعياري .

-٣-

كما ذكرت إن نظرية كافية حول التواصل العقلاني غير موجودة اليوم ، وهذا يجعل من الصعب تقييم الرؤية الخاصة باعتبار التداولية جزءاً من اختصاص حول التواصل العقلاني ، وأشك - على الرغم من هذا - في أن نظرية وافية حول التواصل العقلاني سوف يتم اقتراحها في المستقبل القريب ، وهذا يجعل من الصعب النظر في قيمة التداولية بوصفها علمًا إمبريقيًا خلال الفترة الزمنية ذاتها .

---

(1) Jurgen Habermas. What is Universal Pragmatics. (1976) translated by Thomas McCarthy in Communication and the Evolution of society, (1976).

(٢) انظر المرجع السابق الحاشية رقم ٢ ، والصفحات من ٢٠٨ : ٢١٠ ، والصفحة ٤٠ ، والمناقشة في الصفحات من ٢ : ٤ ، فكثير من حالات التواصل والفهم تجري وإن لم يثق المتحدثون في بعضهم البعض ، فالمعالج النفسي أثناء جلسة علاج مريض عدواني يستمر في الحصول على المعلومات من هذا المريض ، ولقد فشل هابرماس في مناقشة الأمثلة البديهية المضادة لفرضيته ، وأعتقد أنه فشل أيضًا في فهم وظيفة المنهج العلمي الفرضي- الاستنتاجي ، فالنظريات الإمبريقية يمكن أن تستخدم بوصفها تفسيرات عندما تنجز درجة ملائمة من التأكيد ، ولكن الفرضيات الإمبريقية هي بوضوح ليست تفسيرات بالمفهوم المعتاد ، فتفسير ما قد لا يشكل بصورة واضحة نظرية إمبريقية ، وقد جعل كارناب هذا الأمر واضحًا تمامًا ، وهذا الخطأ جعل مناقشة هابرماس للعلوم الإمبريقية صعبة القبول ، انظر المرجع السابق الصفحات من ٨ إلى ٢٠ .

-٤-

في الختام تبدو التداولية - بوصفها مجالًا معياريًا للدراسة - مجالًا غير واعد في المرحلة الراهنة ، وعلى العكس من هذا فإن التداولية بوصفها علمًا إمبريقيًا لها مستقبل مشرق ؛ ومن ثم أعتقد أنها يجب أن تكون علمًا إمبريقيًا على قدم المساواة مع الدلالة والتركيب والفونولوجيا ، وكما ذكرت سابقًا فإن هذا الاقتراح ستكون له نتائج بعيدة المدى على البحث وتشكل النظرية داخل التداولية .

لماذا تحتاج التّداوليّة الفلسفيّة إلى تداوليّة عياديّة؟(*)

إنِس أدُرنِتي

ترجمة

د . منتصر أمين عبد الرّحيم

ملخص : تهدف هذه الورقة إلى توضيح إمكانية أن تكون التداولية العيادية Clinical Pragmatics معتمدًا مثمرًا للنماذج النظرية الكلاسيكية التي تم اقتراحها من قبل التداولية الفلسفية ، في القسم الأول أزعم أن النظريات التي تمّ اقتراحها في مجال التداولية الفلسفية - تلك التي تم توسيعها على يد أوستين Austin وغرايس Grice - ليست مقبولة على مستوى وجهة النظر الإدراكية ، ولهذا السبب - لا يمكن أن تكون مفيدة في فهم الأخلال التداولية Pragmatics Deficits . وفي القسم الثاني أبيّن أن نظرية الملاءمة Relevance Theory ماثلة على هذه الحدود (لكونها تتوافق مع معتمدات التوظيف الفعلي للعقل) ، ولكني أزعم كذلك أنها تعرض رؤية مقيدة للتواصل الإنساني الذي يتم إدماجه في نموذج استعمال اللغة ذلك الذي يولي اهتمامًا كبيرًا بالسمة التداولية المحورية ؛ أي : انسجام الخطاب Coherence of Discourse .

١- مجال التداولية:

أصبحت التداولية - منذ ظهورها فرعًا من علوم اللغة - موضع عدد كبير

(*) Ines Adornetti 2012: Why Philosophical Pragmatics need Clinical Pragmatics? Humana. Mente Journal of Philosophical Studies, Vol. 23, 159-174.

من الخلافات حول طبيعة موضوع درسها ، وحول تعيين هذا الموضوع وتحديده ، فبينما يتفق علم الدلالة والتركيب -على الأقل على مستوى عام- حول ما يجب أن يكون مجالًا لدرسه ، ليس هناك إجماع عام بين علماء التداولية على ما يشكل مجال دراسة هذا العلم ، إن غياب مثل هذا الإجماع يُمْثُل -على سبيل المثال- في تعريفات مختلفة للتداولية يمكن أن توجد لدى المؤلفين الذين يتعاملون معها .

فبافتراض مركزية اللغة - على سبيل المثال - عرّف سبربر وويلسن (Sperber & Wilson 2005: 468) التداولية عامة على أنها «دراسة استعمال اللغة» وبصورة أكبر خصوصية على أنها «دراسة كيف تتفاعل العوامل السياقية مع المعنى اللغوي لتفسير المنطوقات» ، وانتبه بعض المؤلفين - في مقابل هذا - إلى السمات غير اللغوية (النظرات والإشارات والحركات الجسدية ، إلخ) ووصفوا السلوك التداولي بأنه لا يعتمد على استعمال اللغة (Dronkers, Ludy, & Redfern, 1998) ، وفي حالات أخرى ماز العلماء - على الأقل بصورة ضمنية - بين التداولية اللغوية وغير اللغوية عن طريق استعمال مصطلحات مثل «تلف اللغة التداولي Pragmatic Language Impairment" (Bishop, 2000) أو «اضطرابات اللغة التداولية Pragmatic Language Disorders" (Martin & MacDonald, 2003).

وفي العقود الحالية تأثر تعريف التداولية -بصورة قوية- بالنتائج المستوحاة من التداولية العيادية ؛ إذ أتاحت دراسة الحالات العيادية مصدرًا قيمًا وجديدًا للمعطيات كما أخذت في اعتبارها القضايا المألوفة في التداولية اللسانية والفلسفية (على سبيل المثال دراسة (Cummings, 2009; Perkins, 2007 ، ومن الأُسس التي يقوم عليها هذا النوع من المقاربة المنهجية أن دراسة الأخلال التداولية تمكننا من تعيين القدرات والعمليات الكامنة خلف السلوك التداولي ، والشيء المهم أننا سنكون على وعي بطبيعة هذه الآليات والعمليات عن طريق فحص ما يحدث عندما تؤدي [تلك العمليات] إلى خطأ ما ؛ ومن ثَمَّ يمكننا

-من هذا المنظور- اقتراح نموذج من التداولية يأخذ في اعتباره المقبولية الإدراكية حيث (يجب أن يكون النموذج التأويلي متوافقًا مع المعرفة المتعلقة بتوظيف عقلنا) . وسأفترض -في هذه الورقة- أن التعريف التالي الذي اقترحه كومنز (Cummings, 2009: p.6) هو تعريف مهم للتداولية العيادية :

«التداولية العيادية هي دراسة الطرق المختلفة التي يتعطل بها استعمال اللغة في إنجاز أغراض تواصلية لدى الفرد ؛ فالإصابة الدماغية والأمراض أو الانحرافات الأخرى التي تتسبب في هذا الخلل تبدأ في الفترة التطورية وخلال مرحلة البلوغ أو المراهقة ، أما الاضطرابات التداولية المكتسبة أو التطورية فلها أسباب مرضية متعددة وربما تكون ناتجة عن عدد من العوامل اللسانية والإدراكية ذات الصلة» .

وأرنو هنا إلى بيان أن فهمنا للتداولية يمكن أن يثمر ويتسع أيضًا عن طريق دراسة الأخلال التداولية ، وفي القسم التالي أهدف إلى مناقشة ميزات هذه المقاربة بمقارنتها ببعض النظريات التي قدمتها التداولية الفلسفية .

٢- النظريات التداولية والأخلال التداولية:

على الرغم من التأثير الواضح لنظريات التداولية الكلاسيكية -التي اقترحها الفلاسفة أمثال أوستين (١٩٦٢) وغرايس (١٩٧٥)- في دراسة الأخلال التداولية فإن فهم عيوب التواصل بصورة خاصة لم يكن يلقى عناية هذه النظريات الكافية ، ولعل هذا يعود - بشكل كبير - إلى أن هذه النظريات قدّمت وسائل لوصف التداولية والأخلال التداولية غير أن هذه الوسائل لم تكن كافية بالنسبة للعياديين إلا قليلًا (لمناقشة هذا انظر Perkins, 2007) ، فعلى الرغم من أن نظرية أفعال الكلام لدى أوستين -على سبيل المثال- تُستخدم في دراسة التواصل لدى مجموعات عيادية عديدة تتضمن : البالغين المصابين بالحبسة Aphasia (Wilcox & Davis, 1977) ، والأطفال المصابين بمتلازمة اسبرجر Asperger s Syndrome (Ziatas, Durkin, & Pratt, 2003) ، أو الذاتوية

Autism (Loveland et al., 1988) تجد أنها وضعت بعض القيود (Allan, 1998) التي تعتبر إشكالية من وجهة نظر العياديين . وكمثال على هذا انظر النص التالي الذي لفظ به رجل مصاب بجروح الدماغ الرضية Traumatic Brain Injured (TBI) :

> I have got faults and. my biggest fault is. I do enjoy sport . it's something that I've always done. I've done it all my life. I've nothing but respect for my mother and father and. my sister. and basically sir. I've only come to this conclusion this last two months. and. as far as I'm concerned. my sister doesn't exist. (Perkins, Body & Parker, 1995, p. 305)
>
> لقد ارتكبت خطأ ، وخطئي الأكبر هو . أنا استمتع بالرياضة . هو شيء اعتدت فعله دائمًا . فعلته طيلة حياتي ، أنا لا أملك شيئًا عدا احترام أمي وأبي و . أختي . وبشكل أساسي سيدي ، توصلت بنفسي إلى هذه النتيجة في الشهرين الأخيرين . وإلى حد ما أنا مهتم . أختي غير موجودة .

فكما نرى ، كل منطوق مفرد جيد الصياغة وله القوة الإنجازية للتصريح ، وعلى أي حال إذا نظرنا إلى المنطوق ككل سنجد أن كل جزء من هذه اللغة يبدو غير مناسب من وجهة النظر التداولية ، فهذه الفقرة تعاني من غياب الانسجام Coherence وتمتاز بالسرعة وعدم ارتباط تحولات الموضوع ؛ لذا فالمنطوقات التي يقدمها مصابو جروح الدماغ الرضية تبعًا لنظرية أفعال الكلام ليست إشكالية [بالنسبة لها] على الرغم من أنها غير مؤثرة من المنظور التواصلي الأكبر عمومية . وهنا تبرز المشكلة الخاصة بتوجه نظرية أفعال الكلام إلى التركيز على جمل مفردة منعزلة ومستقلة عن سياق الخطاب (Geiss, 1995) ، ولكن الخاصية المحورية للتداولية (كما سوف أناقشها بصورة أكثر تحديدًا في الفقرة الأخيرة) هي الانسجام Coherence الذي يتصل بمستوى الخطاب أكثر مما يتصل بالجملة المفردة .

ومثل نظرية أفعال الكلام لدى أوستن شكّلت نظرية غرايس إطارًا مفاهيميًا لفهم الأخلال التداولية وتم استخدامها عند بعض العياديين في دراسة المشكلات التواصلية لدى البالغين ذوي الحبسة واضطراب نصف الكرة الدماغية اليمنى (Ahlsén, 1993; Bloom et al, 1999; Stemmer, Giroux & Joannatte, 1994) والأطفال المصابين بالذاتوية (Surian et al., 1996) ، على أي حال يبرهن تطبيق نظرية الاقتضاء الحواري على إشكالية دراسة الأخلال التداولية وعلى أن تطبيقها لم يكن سهلًا أو واضحًا ، فالمشكلة الرئيسة في هذا الإخفاق أن نظرية غرايس (ويصدق هذا بصورة صحيحة أيضًا على التداولية الفلسفية عامة) لم توضّح الأسباب الخفية وراء السلوك التداولي والخلل التداولي ، على أي حال إن الحاجة إلى التمييز بين هذه المستويات ؛ مستوى الوصف والتفسير تبدو معلقة بصورة واضحة ، ولتوضيح هذا انظر النص التالي الذي ناقشه بركنز (Perkins, 2007: p.31) :

A) **Prompt**: the man who sits on the bench next to the oak tree is our mayor

الملقن : الرجل الذي يجلس على المقعد بجوار شجرة البلوط هو عمدتنا .

Gary: amen

جري : آمين .

B) **Adult**: can you think of anymore?

الشاب : هل يمكن أن تفكر في المزيد؟ .

Matthew: a remote-controlled cactus

ماثيو : صبار يتحكم فيه عن بعد .

فالنص (A) هو استجابة «جري» ؛ ولد في الثامنة من عمره ، لمهمة خاصة تقتضي من المختبر أن يكرر الجملة التي سمعها ، والنص (B) يبين جانبًا من محادثة بين «ماثيو» ؛ عمره ثماني سنوات ، وشاب طلب منه تعيين أسماء

بعض الحيوانات الأليفة . إن استجابة «جري» و«ماثيو» يمكن أن توصف – كما هو واضح – بطريقة متشابهة ؛ فهما مثال للسلوك الشاذ تداوليًا ؛ لأنهما يخرقان قاعدة غرايس الخاصة بالملاءمة Relevance ، وعلى أي حال إن استجابة «ماثيو» وحدها حالة حقيقية للخلل التداولي ، والحقيقة أن الأسباب الكامنة وراء كل حالة كما بيّن بركنز (Perkins, 2007) هي أسباب مختلفة تمامًا ؛ فاستجابة «جري» غير المتصلة بسابقها جاءت نتيجة مشكلاته المتعلقة بالذاكرة اللفظية وبالفهم التركيبي ، فالجملة (the man who sits on the bench next to the oak tree is our mayor) جملة طويلة جدًا وأكبر تعقيدًا بالنسبة إليه من الناحية التركيبية . ومن ناحية أخرى يمتلك «ماثيو» تركيبًا طبعيًا وذاكرة لفظية ، ولكن لديه تشخيص باضطراب الطيف الذاتوي Autistic Spectrum ، بمعنى أن مشكلاته مع الإدراك الاجتماعي مسئولة عن عدم قدرته على اتخاذ تقدير مناسب للسياق السابق المحيط بالمحادثة الجارية .

إن الحجج التي تمت مناقشتها تؤدي بنا إلى توضيح قضية مهمة تتمثل في أن تطور نموذج نظري حول طبيعة التواصل لا يمكن عزله عن الإشارة إلى معطيات إمبريقية ، والفكرة في حالتنا هذه أن توسيع النظرية التداولية يجب أن يتقيد بالمعطيات العيادية ، فتحليل الأخلال يجيز بناء نماذج نظرية (موجودة في الإدراك الإنساني) يمكن أن تفسر عمليات التواصل الفعلية دون أن تصفها فقط بصورة مجردة ، والآن على الرغم من أن وجود خلل ما لا يكون بنفسه دليلًا يدعم وجود نظام معالجة يشترك في وظيفة معينة ، ففي رأيي أن دراسة الخلل ومن ثمّ الإشارة إلى توظيف الإدراك تظل أداة ضرورية (إن لم تكن كافية بحد ذاتها) لاختبار الوجاهة الإمبريقية للنموذج النظري . إن قضية الأخلال التداولية تفتح الطريق أمام التساؤل الخاص بالعلاقة بين النظرية التداولية ونظرية الإدراك ، وفي القسم التالي أناقش هذا التساؤل مستخدمًا نظرية الملاءمة (Sperber & Wilson, 1986/95) .

٣- التداولية والإدراك: نظرية الملاءمة

نظرية الملاءمة هي منظور حول طبيعة التواصل تتصل بشكل قوي بنظريات هندسة العقل ، وعلى غير نظرية أفعال الكلام والاقتضاء الحواري تتميز نظرية الملاءمة التداولية بالإشارة إلى العمليات الإدراكية بدلاً من الفعل المسبق أو مبدأ الاستعمال . إن نظرية الملاءمة في الحقيقة تحاول أن تقدم مقاربة حول أنظمة المعالجة في قاعدة التواصل البشري : فالعلماء الذين يعملون في هذا المنظور من البحث يطمحون بصورة واضحة إلى بيان قدرة الوجاهة الإدراكية على شرح سيرورات التواصل ، وفي مثل هذا المنظور تكون الافتراضات الخاصة بطبيعة التواصل موضوعًا للتأكيد أو الرفض أو إعادة الصياغة على ضوء العمل التجريبي الذي يهتم بطبيعة الإدراك (Noveck, Sperber, 2004) والمناهج المتبناة في الحقيقة هي مناهج علم النفس الإدراكي : فبالإضافة إلى الحجج اللسانية والفلسفية الخالصة فإن مناشدة الوجاهة الإدراكية تربط المؤلفين ببناء نماذج لسيرورات التواصل تتماشى مع الدليل الذي تقدمه الدراسات التجريبية حول النقص أو مع التأويلات التي تصدر عن علم النفس التطوري .

وبإتباع حدس غرايس ، الذي يلمح إلى أن التعبير وإدراك المقاصد هو السمة الجوهرية في معظم التواصل البشري ، اللفظي منه وغير اللفظي ، فإن نظرية الملاءمة ترى التواصل عملية تداولية استدلالية يشغل فيها توليد مقصد المتصل واكتشافه موقعًا محوريًا . وبتفصيل أكثر اقترح سبربر وويلسنSperber & Wilson نموذجًا إشاريًا استدلاليًا Ostensive-Inferential Model للتواصل البشري يقدم المتكلم تبعًا له مجرد دليل (مثل : منطوق ما) على مقصده لإيصال معنى محدد ، ويفهم المخاطب معنى المتكلم عبر إنتاج سلسلة من الاستدلالات التي يحكمها هذا الدليل ، ففي هذه العملية التواصلية يشترك مقصدان :

١ . **المقصد الإخباري** :Informative Intention : حيث يُعْلم المتكلم من خلاله المستمع شيئًا ما (المثيرات الإشارية يجب أن تجذب انتباه المستقبلين) .

٢ . **المقصد التواصلي** Communicative Intention : ينوي من خلاله المتكلم أن

يعلم المستمع مقصده التواصلي (المثيرات الإشارية يجب أن تؤدي بانتباه المستقبلين إلى مقصد المتكلم) .

فيكون للتواصل نتيجة إيجابية عندما يفهم المستقبل بوضوح المقصد التواصلي للمتكلم (ومن ثمّ سلوكه التواصلي) . وحتى هذه النقطة فالمثيرات الإشارية (السلوك ، والمنطوق اللفظي ، وغيرها) ربما تستحوذ على انتباه المتلقي وتوجه الانتباه نحو مقاصد المتكلم ، ولكن ما الذي يجعل مثيرًا إشاريًا غير منتبه إليه بصورة جيدة؟ . لقد زعم سبربر وويلسن أن الإجابة عن هذا السؤال تعتمد على المفهوم النظري للملاءمة فقد كتبا :

«الملاءمة ، كما نراها ، خاصية كامنة للمثير الخارجي (مثل المنطوقات والأفعال) أو التمثيلات الداخلية (مثل الأفكار والذاكرة) التي تشكل الدخل Input بالنسبة للعمليات الإدراكية ، فملاءمة دَخْل ما بالنسبة لشخص ما في زمن معين هي وظيفة إيجابية للمزايا الإدراكية التي سوف يحصل عليها عند معالجتها ، ووظيفة سالبة لجهد التجهيز المطلوب لبناء هذه المزايا» (Sperber & Wilson, 2002, p. 14) .

إن الملاءمة مبدأ موجِّه للتواصل ، ومن هذا المنظور فإن الفرضية الأساسية داخل كل تفاعل حواري أن المتحدثين والمخاطبين يجب أن يحاولوا جعل مساهماتهم ملاءمة قدر الإمكان وأن المتصدي لتأويل مساهمات الآخرين يجب أن يأخذ في حسبانه الملاءمة ، على أي حال فإن مبدأ الملاءمة قُصِد به أيضًا التطبيق على مجال الإدراك بصورة عامة ، ففكرة سبربر وويلسن أن الملاءمة هي خاصية الإدراك البشري ، فالعقل البشري مكيّف نحو عزو أهمية كبرى للملاءمة :

«إن نظام الإدراك الإنساني تطور بحيث إن آليات إدراكنا الحسي تميل بصورة ذاتية إلى انتقاء المثير الملاءم المحتمل ، وحيث إن آليات استعادة ذاكرتنا تميل بصورة ذاتية إلى تنشيط الفرضيات الملاءمة المحتملة ، وحيث إن آلياتنا الاستدلالية تميل بصورة ذاتية إلى تنشيطهم بالطريقة الأكبر إنتاجية» (Wilson & Sperber, 2004 p. 610) .

وبما أننا ذكرنا أن نظرية الملاءمة هي نموذج من التداولية يتعلق بكيفية عمل العقل ، فإن من المهم تحليل العلاقات بين نظرية الملاءمة ونظرية الإدراك الإنساني ، فعلى المستوى العام يعد تحديد مقاصد الآخرين ممكنًا من خلال نظام إدراكي محدد هو نسق [من الأنساق] الخاصة بنظرية العقل . هذا المصطلح يستعمل في وصف القدرة على عزو حالات ذهنية مثل : المعتقدات والمقاصد والمشاعر إلى حالات أخرى ، وعلى شرح الأفعال المنبثقة عنها والتنبؤ بها (Baron-Cohen, 1995) ، إن أصحاب نظرية الملاءمة يرون التداولية مكونًا خاصًا - ونسق فهم يقوم على الملاءمة- من مكونات أنساق نظرية العقل Theory of Mind (ToM) تحتفظ بمفاهيمها الخاصة التي تمتلكها وإجراءاتها التي تميزها عن نسق نظرية العقل (Carston, Guttenplan & Wilson, 2002; Sperber Wilson, & 2002) إن التواصل من خلال هذه الرؤية ، وبصورة خاصة الفهم اللفظي ، هو صورة من قراءة العقل Mindreading ، ولقد عيّن «هبي» Happé (1993) مستويات مختلفة من القدرة على قراءة العقل يمكن فهمها على أنها متصل Continuum يتدرج بداية من القدرة الأساسية على تمثيل الحالة الذهنية للآخرين (القدرة التمثيلية Representational Ability) إلى التمثيل المحتمل اللامتناهي للحالات الذهنية الأخرى (القدرة الميتاتمثيلية Metarepresentational Ability) ، وتبدو القدرة التمثيلية تبعًا لـ«هبي» كافية لفهم الاستعارةMetaphor بينما تكون القدرة الميتاتمثيلية Metarepresentational أداة ضرورية في فهم السخرية Irony .

إن الحالة الأوسع شيوعًا في ارتباطها بخلل قراءة العقل هي الذاتوية Autism (Baron-Cohen, 1995; 2001) ، وبما أن نظرية الملاءمة ترى التواصل تمرينًا على قراءة العقل ، فإنها تمتلك إطارًا مهمًا في تحليل الخلل التواصلي لدى مصابي الذاتوية (Dennis, Lazenby & Lockyer 2001; Frith 1989; Happé 1995; Wearing, 2010) فعلى سبيل المثال يعد خلل قراءة العقل مسئولًا عن عدم قدرة مصابي الذاتوية على فهم الأوامر غير المباشرة ، انظر إلى المثال التالي :

T: can you turn the page over?

T : أيمكنك قلب الصفحة؟

C: yes (non sign of continuing)

C : نعم (دون إشارة إلى استمرار)

(from Perkins, 2007, p. 67)

إن هذا الجزء من حوار بين C – وهو طفل مصاب باضطراب الطيف الذاتوي ، في الرابعة من عمره – وT ، وهو معالج لأمراض اللغة والتخاطب ، حيث يبدو الطفل غير قادر على استنتاج أن منطوق T طلب وليس سؤالاً ، مثال ثان على هذا النوع من الخلل التداولي لمرضى الذاتوية يمثله الشكل (١) الذي يبيّن استجابة طفل ذاتوي وضعت أمامه ورقة مرسوم عليها سبعة مستطيلات فارغة وطُلِب منه الطلب التالي : (اكتب أيام الأسبوع في المستطيلات السبعة) (Perkins & Firth, 1991) ، وهذا دليل على أن استجابة هذا الطفل تعزى إلى قراءته الخاطئة لمقصد المتكلم .

The	Days	Of	the	Week		

فكما رأينا من قبل حدّ سبربر وويلسن (٢٠٠٢) التداولية على أنها «فهم استدلالي Inferential Comprehension» موجه نحو اكتشاف الملاءمة ، وهذا معناه أن مبدأ الملاءمة يميز – من وجهة النظر التداولية – جوهر اللغة ، وأرى أن هذا الفهم يمثل رؤية محدودة جدًا للتواصل الإنساني (إذ تركز بصورة كبيرة على مظاهر فهم اللغة ومن ثمّ على دور المستمع) ، وبصورة أكبر خصوصية أعتقد أنه من المناسب أن نضع إلى جانب نظرية الملاءمة نموذجًا تفسيريًا يأخذ في اعتباره خاصية تداولية أساسية أخرى هي الانسجام Coherence التي لها دور رئيس في معالجة الخطاب (فالمعتمدات العيادية تبيّن أن الانسجام خاصية تتصل بصورة أساسية بالبعد الخاص بإنتاج اللغة) ، وفي القسم التالي أبيّن لماذا يعد الانسجام خاصية أساسية للتواصل الإنساني ، وأي نوع من الآليات يجعله ممكنًا .

٤- ما بعد الملاءمة: كيف نبني خطابات منسجمة؟

إن الملاءمة ليست فقط مبدأ يحكم التواصل الإنساني ، فالمتكلمون حسب ما أوضحته – على سبيل المثال – دراسة جيورا (Giora (1997, 1998 لا يتقيدون فقط بالبحث عن الملاءمة ، فالاعتبارات الخاصة بالانسجام إضافة إلى هذا تحكم التواصل وتلعب دورًا رئيسًا في بناء الخطاب وفهمه (Giora, 1997, p. 31) ، وكما ذكرتُ في القسم الفائت إن فكرتي هي أن الانسجام يتصل على نحو خاص ببناء الخطاب وإنتاجه ، وهو من أجل هذا السبب جهد يبذله المتكلم بصورة جوهرية ، ولتحديد هذه النقطة سأناقش بإيجاز حالة المصابين بجروح الدماغ الرضية TBI ، فهذا المثال يسمح لنا بالتأكيد على أهمية بعد الإنتاج والفاعلية الجوهرية لأنظمة الإدراك الأخرى لاسيما الوظائف الإجرائية للتخطيط والتتبع –أو ما بعد نظرية العقل ToM– في التواصل التداولي ، وقبل عرض هذا الموضوع احتاج إلى أن أخص مفهوم الانسجام بمزيد من التفاصيل .

إن الانسجام مصطلح يشير إلى مظاهر تنظيمية مفاهيمية للخطاب خاصة بمستوى ما فوق الجملة ، فانسجام نص ما أو خطاب يعتمد – على الأقل في جانب منه – على قدرة المتكلم على امتلاك وحدة موضوعاتية Thematic Unity (Agar & Hobbs, 1982) ، فمتى يكون الخطاب منسجما؟ إن الفكرة الشائعة بين اللسانيين خاصة أن انسجام الخطاب (المنطوق والمكتوب) يعتمد على العلاقات الخطيّة بين الجمل المتجاورة أي على الاتساق Cohesion بين أزواج العبارات المتتابعة (Bellert, 1970; Bublitz, 2011; Dane?, 1974; Halliday & Hasan, 1976; Tanskanen, 2006) ، ولعل العمل الأكبر تأثيرًا من هذا المنظور هو كتاب «الاتساق في اللغة الإنجليزية Cohesion in English» الصادر سنة ١٩٧٦م لهاليداي وحسن Halliday and Hasan ، فمفهوم الاتساق لديهما مفهوم دلالي ، والحقيقة أن الاتساق في رأيهما يشير إلى (علاقات المعنى الموجودة داخل النص) (Halliday & Hasan, 1976, p. 4) و(يجعل كل جزء من النص يعمل سياقًا للجزء الآخر) (Halliday & Hasan, 1989, p. 489) ، فالاتساق يتحقق في

النص من خلال وسائل معجمية ونحوية ، فيتضمن الاتساق النحوي عناصر مثل : الإحالة ، والاستبدال ، والحذف ، والعطف ، بينما يتأسس الاتساق المعجمي على التكرار (الإعادة ، والترادف . . . إلخ) ، والتضام (الوقوع المشترك للعنصر المعجمي) ، انظر إلى المثال التالي :

After the forming of the sun and the solar system, our star began its long existence as a so-called dwarf star. In the dwarf phase of its life, the energy that the sun gives off is generated in its core through the fusion of hydrogen into helium (from Berzlánovich 2008, p. 2).

«بعد تشكل الشمس والنظام الشمسي بدأ نجمنا وجوده المديد معروفًا بالنجم القزم ، ففي طور التقزم من حياته كانت الطاقة التي تمنحها الشمس يتم توليدها داخل مركزها من خلال اندماج الهيدروجين وتحوله إلى هيليوم» .

فالجمل تترابط كما نرى في هذا النص من خلال الاتساق المعجمي أي عبر العلاقات الاتساقية المعجمية القائمة بين العناصر المعجمية داخل النص (شمس/ نظام شمسي/ نجم/ نجم قزم/ طور التقزم) .

إن الشيء الذي تجب ملاحظته - بالنسبة للأغراض التي أبتغيها من وراء زعمي - أن الاتساق من هذا المنظور شرط ضروري لانسجام الخطاب (لمناقشة هذا انظر Giora تحت الطبع) ، والآن ، على الرغم من أن لعلاقات الاتساق (النحوية والمعجمية) دورًا مهمًا في التعبير عن علاقات الانسجام وإدراكها ، أرى أن الاتساق بين الجمل المتتابعة ليس شرطًا ضروريًا أو كافيًا لانسجام المنطوقات في تسلسل الكلام ، وبالإشارة إلى ذلك الفرق الجوهري بين الانسجام الكلي Global والانسجام الداخلي Local إذ يشير الانسجام الكلي إلى العلاقة بين محتوى التعبير والموضوع العام للمحادثة ، أما الانسجام الداخلي فيهتم بالروابط المفاهيمية بين جمل مفردة أو قضايا ذات معنى معين داخل النص أو الخطاب

(Glosser & Deser, 1990) فإذا كان الانسجام الداخلي ممكنًا عبر علاقات الاتساق فإنني أفترض أن الانسجام الكلي أمر مستقل عن الآليات اللغوية (فهو مستقل عن الاتساق) ، انظر المثال التالي :

I bought a Ford. The car in which President Wilson rode down the Champs Élysées was black. Black English has been widely discussed. The discussions between the presidents ended last week. A week has seven days. Every days I feed my cat. Cats have four legs. The cat is on the mat. Mat has three letters. (Enqvist, 1978, pp. 110-111).

«اشتريت سيارة فورد ، السيارة التي قادها الرئيس ويلسون في شارع الشانزليزيه كانت لونها أسود ، إنجليزية السود نوقشت بصورة موسعة ، المناقشات بين الرؤساء انتهت الأسبوع الماضي ، الأسبوع سبعة أيام ، كل الأيام أطعم قطتي ، القطط لها أربعة أرجل ، القطة على السجادة ، السجادة Mat ثلاثة أحرف» .

ففي هذا النص تترابط الجمل عن طريق آلية التكرار ، وعلي أي حال ، فإن عدة جمل ، على الرغم من وفرة علاقات اتساقية بينها ، لا تفهم على أنها كل منسجم . فالجمل في هذا النص لا تتشابك مع بعضها البعض بطريقة منطقية ؛ فالنص يعوزه الانسجام الكلي .

إن المثال والحجج التي تمت مناقشتها حتى الآن تبيّن أن الانسجام الكلي هو خاصية تداولية لا تعتمد على الأدوات اللغوية . والحقيقة أنني افتراض أن الانسجام يقوم على عمليات إدراكية أكبر عمومية مثل الوظائف الإجرائية لتخطيط الفعل ومراقبته ، فعمليات التخطيط والمراقبة تؤدي (ولو بصورة حدسية) دورًا مهمًا في بناء الخطاب وتدفقه ؛ ولأن الكلام يتألف من تتابع خطي من الكلمات والتعبيرات يجب على المتكلم بصورة دائمة بناء خطة للتعبيرات الكلامية حتى يقرر ما يقوله وكيف يقوله ، وحتى يتم فهمه إذا أراد

أن يعبر عن نفسه بطريقة منسجمة ، علاوة على هذا وخلال إنجاز الخطة أو خلال مرحلة إنتاج الخطاب ، فإن من الضروري الاستمرار في تقييم المهمة من أجل التأكد من أن العناصر المقدمة تتوافق مع الموضوع العام للمحادثة ، ولعل الدليل الإمبريقي يؤكد على الدور الفاعل لهذه العمليات المتتابعة في بناء انسجام الخطاب .

ولعل المعتمدات الأكبر أهمية في هذا الإطار تأتي من حالات مرضى جروح الدماغ الرضية TBI وحالات الاختلال الوظيفي الإجرائي ، فهؤلاء لديهم أخلال في تخطيط الفعل ومراقبته ، بمعنى أنهم لا يستطيعون استكمال سلوك موجه نحو هدف ما عبر سلسلة من الأفعال البسيطة (انظر على سبيل المثال : Eslinger et al., 2011; Shallice 1982; Zalla et al., 2001) ، ومن أجل هذا فإن مرضى جروح الدماغ الرضية لا يستطيعون تنظيم الخطاب أو يتمتعون بانسجام كلي للخطاب (ولو لم تكن لديهم مشكلات على مستوى الانسجام المحلي) ، ومثال هذا انظر النص التالي الذي ناقشه بركنز (2007, p. 86 Perkins) وفيه C – وهو رجل مصاب بجروح الدماغ الرضية – يتحدث مع - Tوهو معالج للغة وأمراض الكلام – حول النقابات العمالية :

C: I admit this government we've got is not doing a good job but the unions are trying to make them sound worse than what they are

إنني أدعم هذه الحكومة ، وما نملكه ليس عملًا جيدًا ، ولكن الاتحادات تحاول أن تجعلهم أسوء مما هم عليه

T: mm

ام

C: they. they. cos I'm a Tory actually but I I do vote. if there's a. er. a communist bloke there I will vote communist but. it all depends what his principles are but I don't agree. with the

Chinese communism. and the Russian communism

هم ، هم ، لأنني من حزب المحافظين في الواقع ، ولكني انتخبت بالفعل ، فإذا كان هناك رجل شيوعي فسأصوت للشيوعي ، ولكن كل هذا يعتمد على ما هي مبادئه ولكني لا أتفق مع الشيوعية الصينية والشيوعية الروسية .

T: right

صحيح

C: but I believe every . should be equal but . I m not knocking the royal family because y . you need them

ولكن أنا أؤمن أن الجميع يجب أن يكونوا متساوين ، أنا لا أشهر بالعائلة الملكية لأنك تحتاج إليهم

T: mm

ام

C: and they they they bring people in to see take photos

وهم هم هم يحضرون الناس للرؤية والتقاط الصور

فعلى الرغم من الروابط الداخلية المتتابعة بين (النقابات العمالية - الحكومة/ الحكومة - حزب المحافظين/ حزب المحافظين - شيوعي/ الشيوعية الصينية الروسية/ الشيوعية - المساواة/ المساواة - العائلة الملكية/ العائلة الملكية - الجذب السياحي) أظهر المتكلم C نوعًا من تحول الموضوع Topic Drift ؛ فلم يكن قادرًا على متابعة ما يتحدث عنه بالفعل ، أو على ربط كل منطوق بخطة أو هدف كلي منسجم . والحقيقة أن المعطيات التجريبية العصبية-اللسانية Neurolinguistic تؤكد على أن مرضى جروح الدماغ الرضية يربطون بين الجمل بصورة صحيحة باستعمال علاقات الاتساق (الأدوات النحوية) ، ولكنهم غير قادرين على بناء أو حيازة انسجام كلي لإنتاجهم اللفظي (أي : لا يستطيعون ربط الجمل المفردة بخطة أو بغرض أكبر عمومية) وما يقدمونه من مواد لا يتصل

عادة بسياق إنتاجاتهم اللفظية الحاصلة (Biddle et al., 1996; Glosser &Deser, 1990; Hough & Barrow, 2003; Marini et al.,2011) . وبسبب عدم قدرتهم على صياغة وتوجيه غرض تواصلي معين يبدو خطابهم غير مناسب من الناحية التداولية .

الخلاصة

من أجل توسيع نموذج تفسيري لطبيعة اللغة فإن من الأهمية بمكان تحليل المعطيات العيادية ودراستها ؛ لأنها تسمح لنا باقتراح نموذج نظري يراعي قيد الصوابية الإدراكية . ولقد بيّنت أن التداولية الفلسفية لا تراعي هذا القيد ، وأنها - من أجل هذا - ليست مناسبة تمامًا لبحث الأخلال التداولية . فنموذج الصوابية الإدراكية للتداولية عرضته نظرية الملاءمة . وعلى أي حال فإن المعطيات العيادية التي تمت مناقشتها هنا بيّنت ضرورة النظر إلى ما هو أبعد من الملاءمة ؛ فرغم أن النظرية التداولية التي تقوم على تحري الملاءمة تفسر عديدًا من مظاهر التواصل الإنساني ، فإن مثل هذه النظرية يجب أن تندمج مع نموذج نظري يأخذ في حسبانه انسجام الخطاب .

REFERENCES

Agar, M., Hobbs, J. (1982).

Interpreting Discourse: Coherence and the Analysis of Ethnographic Interviews. Discourse Processes, 5 (1), 1-32.

Ahlsén, E. (1993).

Conversational principles and aphasic communication. Journal of Pragmatics, 19, 57-70.

Allan, K. (1998).

Speech Act Theory: an overview. In J. L. Mey (Ed.), Concise Encyclopedia of Pragmatics. Elsevier: Amsterdam, 927-939.

Austin, J. L. (1962).

How to Do Things with Words. Oxford: Clarendon Press.

Baron-Cohen, S. (1995).

Mindblindness: An Essay on Autism and Theory of Mind. Cambridge, Mass.: The MIT Press.

Baron-Cohen, S. (2001).

Theory of mind in normal development and autism. Prisme, 34, 174-183.

Bellert, I. (1970).

On a condition of the coherence of texts. Semiotica, 2, 335-363.

Berzlánovich, I. (2008).

Lexical cohesion and the organization of discourse. http://www.rug.nl/let/onderzoek/onderzoekinstituten/clcg/berzlanovich.pdf

Biddle, K., McCabe, A., & Bliss, L. (1996).

Narrative skills following traumatic brain injury in children and adults. Journal of communication Disorders, 29, 447- 469.

Bishop, D. V. M. (2000).

Pragmatic language impairment: a correlate of SLI, a distinct subgroup, or part of the autistic continuum? In D. V. M. Bishop and L. B. Leonard (Eds.), Speech and Language Impairments in Children: Causes, Characteristics, Intervention and Outcome. Hove: Psychology Press, 99-113.

Bloom, R. L., Pick, L. H., Borod, J. C., Rorie, K. D., Andelman, F., Obler, L. K.,
Sliwinski, M., Campbell, A. L., Tweedy, J. R., Welkowitz, J. (1999). Psychometric aspects of verbal pragmatic ratings. Brain and Language , 68, 553-565.

Bublitz, W. (2011).
Cohesion and coherence. In Zienkowski, J., Östman, J., Verschueren, J. (Eds.) Discursive Pragmatics, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam / Philadelphia, 37-49.

Carston, R., Guttenplan, S., Wilson, D. (2002).
Introduction: special issue on pragmatics and cognitive science. Mind and Language, 17, 1-2.

Cummings, L. (2009).
Clinical Pragmatics. Cambridge: Cambridge University Press.

Danes, F. (1974).
Functional sentence perspective and the organization of the text. In F. Dane? (Ed.), Papers on Functional Sentence Perspective . Academia: Prague, 106-128.

Dennis, M., Lazenby, AL, Lockyer, L. (2001).
Inferential language in high function children with autism. Journal of Autism and Developmental Disorders , 31, 47-54.

Dronkers, N. F., Ludy, C. A., Redfern, B. B. (1998).
Pragmatics in the absence of verbal language: descriptions of a severe aphasic and a language-deprived adult. Journal of Neurolinguistics, 11, 179-190.

Enqvist, N. E. (1978).
Coherence, pseudo-coherence, and non-coherence. In J.-O. ?stman (Ed.), Cohesion and Semantics. Åbo: Meddelanden från Stiftelsens för Åbo Akademi Forskningsinstitut, 109-128.

Eslinger, P., Zappalà, G., Chakara, F., Barrett A. M. (2011).
Cognitive Impairments After TBI. In N. D. Zasler, D. I. Katz, R. D. Zafonte (Eds.), Brain Injury Medicine. Second Edition. New York: Demos Medical Pub.

Frith, U. (1989).
Autism: Explaining the Enigma . Blackwell: Oxford.
Geis, M. L. (1995).
Speech Acts and Conversational Interaction. Cambridge: Cambridge University Press.
Giora, R. (1997),
Discourse coherence and theory of relevance: Stumbling blocks in search of a unified theory. Journal of Pragmatics, 27, 17-34.
Giora, R. (1998),
Discourse coherence is an independent notion: A reply to Deidre Wilson. Journal of Pragmatics, 29, 75-86.
Giora, R. (in press),
Cohesion. In G., Khan (Ed.) Encyclopedia of Hebrew Language and Linguistics, Boston: Brill.
Glosser, G., Deser, T. (1990).
Patterns of discourse production among neurological patients with fluent language disorders. Brain and Language, 40, 67-88.
Grice, H.P. (1957).
Meaning. The Philosophical Review, 66, 377-388.
Grice, H.P. (1975).
Logic and conversation. In F. Cole and J. L. Morgan (Eds.), Syntax and Semantics, vol. III Speech Acts. New York: Academic Press, 41-58.
Halliday, M. A. K., Hasan, R. (1976).
Cohesion in English. Longman: London.
Halliday, M. A. K., Hasan, R. (1989).
Language, context, and text: aspects of language in a social-semiotic perspective. Oxford: Oxford University Press.
Happé, F.G.E. (1993).
Communicative competence and theory of mind in autism: a test of relevance theory. Cognition, 48, 101-119.
Happé, F.G.E. (1995),
Understanding mind and metaphors: insight from the study of figurative language in autism. Metaphor & Symbolic activity , 10(4), 275-295.

Hough, M.S., Barrow, I. (2003).
Descriptive discourse abilities of traumatic brain injured adults. Aphasiology, 17(2), 183-191.
Loveland, K. A., Landry, S. H., Hughes, S. O., Hall, S. K. and, McEvoy, R. (1988).
Speech acts and the pragmatic deficits of autism. Journal of Speech and Hearing Research, 31, 593-604.
Marini, A., Galetto, V., Zampieri, E., Vorano, L., Zettin, M., Carlomagno, S. (2011).
Narrative language in traumatic brain injury. Neuropsychologia, 49, 2904-2910.
Martin, I., McDonald, S. (2003).
Weak coherence, no theory of mind, or executive dysfunction? Solving the puzzle of pragmatic language disorders. Brain and Language, 85, 451-66.
Noveck, I., Sperber, D. (2004) (Eds.).
Experimental Pragmatics, New York: Pallagrave.
Perkins, M. (2007).
Pragmatic Impairment. New York: Cambridge University Press.
Perkins, M.R., Body, R., Parker, M. (1995).
Closed head injury: assessment and remediation of topic bias and repetitiveness. In M.R. Perkins, S. J. Howard (Eds.), Case Studies in Clinical Linguistics . London: Whurr, 293-320.
Perkins, M., Firth, C. (1991).
Production and comprehension of modal expressions by children with a pragmatic disability. First Language, 11-61.
Shallice, T. (1982).
Specific impairment of planning. Philosophical Transaction of the Royal Society, Biological Science , 25, 199-209.
Sperber, D., Wilson, D. (1986/1995).
Relevance: Communication and Cognition, Oxford: Blackwell.
Sperber, D., Wilson, D. (2002).
Pragmatics, modularity and mind-reading. Mind and Language, 17, 3-23.

Sperber, D., Wilson, D. (2005).
Pragmatics. In F. Jackson, M. Smith (Eds.), Oxford Handbook of Contemporary Analytic Philosophy . Oxford: Oxford University Press, 468-501.

Stemmer, B., Giroux, F., Joanette, Y. (1994).
Production and evaluation of requests by right hemisphere brain-damaged individuals. Brain and Language, 47, 1-31.

Surian, L., Baron-Cohen, S., van der Lely, H. (1996).
Are children with autism deaf to Gricean maxims? Cognitive Neuropsychiatry, 1(1), 55-71.

Tanskanen, S. K. (2006).
Collaborating towards Coherence. Lexical cohesion in English Discourse. Amsterdam / Philadelphia: John Benjamins.

Wilcox, M. J., Davis, G. A. (1977).
Speech act analysis of aphasic communication in individual and group settings. In R. H. Brookshire (Ed.), Clinical Aphasiology Conference Proceedings . Minneapolis, MN: BRK Publishers, 166-174.

Wearing, C. (2010),
Autism, Metaphor and Relevance Theory. Mind and Language, 25, 196-216.

Wilson, D., Sperber, D. (2004),
Relevance Theory. In G. Ward and L. Horn (Eds.) Handbook of Pragmatics. Blackwell: Oxford, 607-632.

Zalla, T., Plassiart, C., Pillon B., Grafman, J., Sirigu, A. (2001).
Action planning in a virtual context after prefrontal cortex damage. Neuropsychologia , 39, 759-770.

Ziatas, K., Durkin, K., Pratt, C. (2003).
Differences in assertive speech acts produced by children with autism, Asperger syndrome, specific language impairment, and normal development. Development and Psychopatholog , 15, 73-94.

أينبغي مواصلة العمل في تحليل الخطاب؟(*)
آن ريبول وجاك موشلر

ترجمة
د . ذهبية حمو الحاج

الملخّص:
يستند هذا المقال على مشروعية تحليل الخطاب ، ويكمن القصد هنا في تبيان أنّ تحليل الخطاب يركّز على فرضية قابلة الرّفض ، وأنّ مفهوم الانسجام - الذي ارتبط به بشكل صعب - هو مفهوم ما قبل علمي .
وفي الختام ، سنحاول وضع مفهوم بديل للخطاب والانسجام .

الكلمات المفاتيح:
تحليل الخطاب ، الانسجام ، التّحوّل المنهجي ، النّزعة السّياقية ، الأصناف الطبيعية الوجيهة علميا ، القصدية الوضعية ، القصدية العامّة ، القصد التّواصلي ، القصد الاخباري .

١ . مدخل
إنّ تحليل الخطاب هو الميدان ، الذي شهد انطلاقة كبيرة خلال العشريتين الماضيتين ، إلاّ أنّه ومّما يبدو لم تؤخذ بعض المحاذير الابستمولوجية الضرورية

(*) (1996), in Hermes 16, 61-92.

بعين الاعتبار . فأردنا أن نبيّن هنا أنّ الخطاب بالمعنى ، الذي بقي تحديده[1] هو موضوع دراسة شرعية في حدود اعتبارية[2] ، من حيث اقتحامه من منظور اختزالي مختلف عن المنظور المتبنّى عموما . وللقيام بذلك ، سنركّز على مفهوم الصنف الطبيعي الوجيه علميًا[3] ، والذي يمكن تحديده بطريقة فظفاظة بالشكل التالي : يمكن لأيّة ظاهرة أن تتطابق مع صنف طبيعي وجيه علميًا إذا : (أ) تعلّق الأمر بظاهرة طبيعية ، و(ب) لم نتمكّن من اعتبار اختزاله إلى مكوّناته وعلاقات هذه المكوّنات بعضها ببعض . سوف نبيّن أنّ الخطاب إذا استجاب للشرط الأوّل ، فهو لا يستجيب للشرط الثّاني . فضلا عن ذلك ، يركّز الخطاب كثيرا على مفهوم الانسجام ، الذي يبدو لنا على كلّ حال مفهوما قبل نظري بشكل واسع ، صعب التّحديد ، إلاّ إذا كان ذلك بالطريقة الدائرية ، التي تطرح من المشاكل أكثر ممّا تعالج .

سوف نبدأ بتقديم تعريف للخطاب وللمفاهيم المتعلّقة به ، وذلك قبل أن نشير وبالتحديد إلى ما ندعوه بالاختزال ، وتقديم تعريف مفصّل لمفهوم الصنف الطبيعي الوجيه علميًا . وعلى أساس هذه التّعريفات ، سنبيّن أنّ الخطاب ليس صنفًا طبيعيًا وجيهًا علميًا . ثمّ سوف نقتحم مفهوم الانسجام ، الذي يمكن الارتكاز عليه ، إذا أردنا إنقاذ مفهوم الخطاب . بالفعل ، يبدو لنا أنّ هذين المفهومين قابلان للتحديد داخليًا ، دون أن يتمكن أحدهما من أن يستعمل كتحديد أوّلي . وبتعبير آخر ، يبدو التعريف الدّائري لمفهوم الانسجام مستحيلًا ، ولهذا لا نعتقد بوجود إهمال لمفهوم الانسجام ، ولكن يشترط اعتباره مفهومًا حدْسيًا وقبل نظري . وانطلاقًا من ذلك ، وبعيدًا عن إمكانية توظيفه كتعريف للخطاب ، أو إمكانية تفسير اشتغاله ، فمفهوم الانسجام بحاجة إلى تفسير .

---

(١) انظر الفقرة ٢ .

(٢) هو ضروري في مجال صناعات اللغة .

(٣) انظر الفقرة ٣ ، وللتوسع انظر ريبول وموشلر A. Reboul, J .Moeschler 1995 .

ونخصّص نهاية مقالنا، من خلال هذه المقدّمة حول ما قد يكون عليه تحليل الخطاب والانسجام، وفي منظور النّزعة الاختزالية[1] بشكله الواسع، للتّركيز على مفاهيم القصدية الموضعية والقصدية الشاملة في إطار نظرية الملائمة حال تطوّرها عند سبربر وولسن (١٩٨٦-١٩٨٩) Sperber et Wilson .

٢- الخطاب

في الوقت الحالي، وحسب ما نشاهده، يوجد هناك طريقتان جدّ مختلفتان في معالجة الخطاب. في الطريقة الأولى نعتبر الخطاب متوالية من الجمل أو الملفوظات[2]، وتكمن المشكلة بكلّ بساطة في عرض تأويل هذه السلسلة من الجمل والملفوظات. في الطّريقة الثّانية نعتبر أنّ الخطاب وبعيدًا عن اختزاله إلى سلسلة من الجمل أو الملفوظات يُنتج بنية تُفسّر تسلسل الجمل أو الملفوظات بشكل مستقل عن محتواها. وفي هذا المنظور، تكون للخطاب بنية خاصّة، وتفرض عوامل تشكّله دون اختزاله. وبتعبير آخر، فإنّ الإنتاج المستمر للملفوظات موجّه غائيًا نحو إنتاج هذه البنية[3]. وبذلك ننطلق في الحالة الأولى من الملفوظات أو الجمل للوصول إلى الخطاب، وتأويله مبني على أساس تأويل الجمل والملفوظات، وننطلق في الحالة الثّانية من الخطاب، الذي من المفترض أن يفسّر إنتاج الملفوظات والجمل، وفي بقية هذا المقال، نعيّن المقاربة الأولى بعبارة تحليل الخطاب، والمقاربة الثّانية بتحليل الخطابات[4]. ولا نعتقد

---

(١) إلى جانب الاختزالية، نجد كذلك النّزعة السياقية، الفقرة ٨.

(٢) سوف نبيّن أنّ هذين المفهومين غير متعادلين، انظر ديكرو ١٩٧٢، وموشلر وريبول ١٩٩٤.

(٣) نستعير من سورل Searle تعريفه للغائية (سورل ١٩٩٥، ٣٠٧): «يشتغل تمثيل الغرض (...) باعتباره سببًا للسلوك».

(٤) تتطابق المقاربة الأولى بشكل عام، وبمصطلحات معرفية، بما تعيّنت تسميته بالمقاربات Bottom-up، والثّاني بالمقاربات Top-down.

أنّنا سنتمكّن من تقديم تعريف ا للخطاب من منظور تحليل الخطابات[1] ، ولن نحاول ذلك . ولكن يمكن تقديم تعريفا للخطاب من منظور تحليل الخطاب .

(١) تعريف الخطاب

الخطاب هو سلسلة من الملفوظات غير اعتباطية[2]

(٢) تعريف الملفوظ

الملفوظ هو حصيلة الجملة في إنتاجها الخاص ، وفي الأخير تتحدّد الجملة بالطريقة التالية :

(٣) تعريف الجملة

كلّ متوالية نحوية كاملة هي جملة[3]

انطلاقًا من هذه التّعريفات المختلفة ، سنحاول الآن تبيان أنّ الخطاب ليس شيئاً آخر سوى سلسلة من الملفوظات غير الاعتباطية ، وذلك باختزاله إلى المكوّنات التي تشكّله أو الملفوظات ، وإلى العلاقات بين هذه الملفوظات .

٣. النّزعة الاختزالية والصنف الطبيعي الوجيه علمياً

بفظاظة[4] ، سبق أن عرّفنا الصنف الطبيعي الوجيه علميًا باعتباره مجموعة من الظواهر ، التي تحتمل الاختزال . نرغب الآن قول بعض الأشياء حول الاختزال والنّزعة الاختزالية بشكل عام . كانت النّزعة الاختزالية –مثلما نعرف– الأساس المنهجي للعمل العلمي منذ نيوتن على الأقل . وبكلّ بساطة ، تتمثّل هذه النّزعة في تفسير ظاهرة معيّنة انطلاقًا من تحليل عناصرها ، وبالتّالي

---

(١) لا يمكن لهذا الأمر أن يكون غريبا ، فالحالة الثانية هي التي نقصد محاربتها .

(٢) نلاحظ حسب هذا التّعريف ، أنّ المحادثة أو الحوار هما أيضا خطابان ، فنحن نأخذ الخطاب هنا بمعناه الواسع .

(٣) بمفهوم الاكتمال التّركيبي في الخطاب المنطوق والمتميّز ، انظر ريبول وموشلر ١٩٩٥ (في حالة إنجاز) .

(٤) انظر الفقرة ١ .

يمكن أن نقدّم تعريفًا أكثر تحديدًا ، وهذا ما سوف نقوم به انطلاقا من التّمييز بين البروز١ ، والبروز٢[1] :

(٤) تعريف البروز١

الحدث س بارز إذا :

i . كان س مكوّنا من العناصر أ ، ب ، ج ، . . . .

ii . لـ س خصائص ، ليست هي خصائص أ ، ب ، ج ، . . . . ، أو ليست بالضرورة خصائص أ ، ب ، ج ، . . . .

iii . يمكن إحصاء بعض خصائص من انطلاقا من مميّزات ء ، ب ، ج ، . . . .على أساس ترتيبها أو تشكيلها مع بقية العناصر .

iv . كانت الخصائص الأخرى لـ س مفسّرة بوساطة التّفاعلات السببية ، التي تنتج بين أ ، ب ، ج ، . . . . : إنّها مميّزات بارزة سببًا .

(٥) تعريف البروز٢

الحدث سَ بارز٢ إذا :

i . كان سَ بارزًا١

ii . كان لـ سَ اقتدارات سببية لا يمكن تفسيرها بالتّفاعلات السببية لـ أ ، ب ، ج ، . . . .

يمكننا الآن تحديد مفهوم الصنف الطبيعي الوجيه علميًا

(٦) تعريف الصنف الطبيعي الوجيه علميًا

يعدّ صنف ما صنفًا طبيعيًا وجيهًا علميًا إذا اشتمل :

أ) ظواهر طبيعية

ب) ظواهربارزة٢

---

(١) فيما يخص التمييز بين البروز١ والبروز٢ يمكن العودة إلى سورل ١٩٦٥ ، ١٦٠ ، وفيما يخص استعمال هذا المفهوم يمكن العودة إلى موشلر ١٩٩٥ .

إنّ أيّ صنف لا يمتثل لهذا التّحديد ليس بصنف طبيعي وجيه علميًا . وانطلاقًا من هذا ، ولتبيان أنّ أيّة مجموعة من الظواهر لا تتطابق مع صنف طبيعي وجيه علميًا ، يكفي أن نبيّن أنّ هذه الظواهر لا تستجيب للشّروط السابقة ، أو أنّها لا تستجيب لأيّ شرط من الشّروط . في هذا المنظور ، تطبّق النّزعة الاختزالية على الظواهر ، التي لا تندرج ضمن الصنف الطبيعي الوجيه علميًا ، وتتمثّل في اختزالها إلى عناصرها ، وإلى العلاقات بين هذه العناصر .

أخيرا ، وقبل معاينة الخطاب في ضوء تعريف ما يدعى بالصنف الطبيعي الوجيه علميًا ، نودّ الإلحاح على أهمية الرّهان بالنسبة لتحليل الخطاب . إذا كانت مجموعة من الظّواهر ليست صنفا طبيعيا وجيها علميا ، فإنّ مجموع هذه الظّواهر لا تبرّر بصفتها تلك التحليل العلمي . بالفعل ، في هذه الحالة ، تنتقل العلاقة السببية ، التي يحاول التّحليل العلمي استخلاصها من الأجزاء إلى الكلّ ، والتّحليل ، الذي يبحث في محاولة استخلاص السببية العكسية مآله الفشل . انطلاقا من هذا ، كلّ ظاهرة لا تندرج في الصنف الطبيعي الوجيه علميًا تبرّر التّحليل الاختزالي بإقصاء التّحليلات الأخرى .

وفي هذا الاعتبار ، إذا كان الخطاب ليس بصنف طبيعي وجيه علميًا ، فعلى تحليل الخطابات الاختزال إلى تحليل الملفوظات (أي التداولية) ، إلاّ إذا لم تُشكّل الملفوظات ذاتها عن طريق صنف طبيعي وجيه علميًا ، الحالة التي تجعلها تختزل إلى التأويل اللساني المحض (أي إلى التركيب وعلم الدلالة) ، وإلى الفنولوجيا إذا لم تكوّن العناصر المشكّلة للجمل (أي المورفيمات) الصنف الطبيعي الوجيه علميًا . وبالتّالي ، نلاحظ أنّ الرّهان أساسي بالنّسبة لتحليل الخطابات ، فإذا كان الخطاب حقيقة ليس بصنف طبيعي وجيه علميًا ، فذلك يعني افتقاد الصنف للموضوع ، ومآل تأسيسه هو الفشل . سوف نبيّن في الفقرة الموالية أنّ الخطاب ليس ظاهرة بارزة٢[1] ، مثلما سنبيّن أنّ النّزعة الاختزالية ،

(١) سوف نلاحظ أنّنا لا ننفي أبدا أن يكون الخطاب ظاهرة طبيعية .

التي تنقلنا حتما من الخطاب إلى الظاهرة ، والتي لا تختزل بموجب الفعل ذاته تحليل الخطابات فقط ، ولكن تختزل كذلك التّداولية واللسانيات ذاتها إلى فونولوجيا ليست بنزعة جادّة . فالنّزعة الاختزالية تستند إلى ظاهرتين بارزتين ٢ وهما الملفوظ والمورفيم .

٤. الخطاب ليس بصنف طبيعي وجيه علمياً: الجزء الأول

مثلما أشرنا إلى ذلك في نهاية الفصل السابق ، لا نقصد معارضة كون الخطاب[1] ظاهرة طبيعية . ولكنّنا نعتقد أنّ الأمر بأيّ حال من الأحوال لا يتعلّق بظاهرة بارزة٢ ، سنحاول تبيان أنّ تأويل الخطاب خاضع لتأويل الملفوظات التي تشكّله ، ويرتبط كلّ ملفوظ من هذه الملفوظات بتأويل الملفوظات السابقة ، إلى جانب معطيات أخرى ، وبالتحديد بالمعلومات الموسوعية أو الإدراكية عن العالم[2] ، حيث لا تأتي أيّة معلومة من الخطاب المدرك كمبدأ غائي يتزعّم إنتاج وتأويل الملفوظات ، التي تكوّنه وما يتعلّق بالإنتاج ، الذي يبتعد في رأينا عن الغائية الموجهة من طرف الخطاب ، فهو يفسّر بالقصد الاخباري للمتكلّم ، وبقدرته على توجيه تأويل مخاطَبه . وستكون لنا العودة إلى هذا لاحقا .

ما هو هدف تحليل الخطاب؟ بالنسبة لنا ، يكمن الهدف في تبيان أن :

(أ) تأويل الخطاب لا يختزل إلى تأويل سلسلة من الملفوظات التي تكوّنه .

(ب) للخطاب بنية[3]

---

(١) في التعريف الوارد أعلاه ، وفي المنظور الاختزالي ، الذي هو منظورنا ، فإنّ الخطاب بمعنى تحليل الخطابات غير موجود بكلّ بساطة .

(٢) مثلما سنلاحظ ذلك بعد هذا ، فإنّ إدماج المعطيات الإدراكية أو الموسوعية في تأويل الملفوظات ، هو الذي يمنع من اختزالها إلى جمل .

(٣) في الحقيقة ، يكون القول صحيحا ، من حيث أنّه في هذا المنظور يفترض أن يحتمل كلّ نوع من الخطاب (حكاية ، وصف ، خطاب سياسي ، محادثة ، . . .) بنية خاصّة . وبذلك نلحظ =

(١) خاصّة به

(٢) مستقلة

أ - عن مقاصد المتكلّم

ب - عن محتوى الملفوظات

(ج) تلعب هذه البنية دورا في إنتاج الخطاب وتأويله حيث أنّه :

١- لا يكتمل تحليل أيّ خطاب ، إلاّ إذا تخلّص من هذه البنية .

٢- كلّ خطاب حامل لغاية موجّهة نحو إنتاج هذه البنية

وحتّى يتحقّق هذا الهدف ، ينبغي على الخطاب أن يحتمل بنية خاصّة ومستقلّة ومقاصد للمتكلّم ومحتوى للملفوظات ، وهو ما يشكّل ظاهرة بارزة ٢ .

يبدو أنّ الدّخول إلى نقد الفرضية ، التي يكون الخطاب وفقها ظاهرة بارزة٢ ، هو بالتحديد التبرير الغائي (ضمنيا ولكن أقّل وضوحا) لوجود هذه البنية بالذّات . ومن هذا المنظور ، ربّما يكون من الفعالية ، وقبل الوصول إلى الخطاب تفحّص الظاهرتين البارزتين٢ ، اللتين تمثّلان المورفيمات والملفوظات .
إذن ، هذا ما سوف نركّز عليه في الفقرة الموالية ، ثمّ نعود إلى الخطاب .

٥. المورفيمات والملفوظات

فيما تكون المورفيمات والملفوظات بارزة؟ أولّ شيء يُلاحظ ، هو أنّ التمييز بين الفونيم والمورفيم يتبع التمفصل المزدوج للغة[1] : تتمفصل الفونيمات فيما بينها لتنتج مونيمات ، وتتمفصل المورفيمات فيما بينها لتنتج جملا . وهذا غير

= تطوّر تصنيف الخطابات ، حيث كلّ نوع خطابي موجّه نحو إنتاج بنيته الخاصّة ، وتحديدها في الآن ذاته ، وبعيدا عن الدائرية الضمنية في مفهوم هذا النّوع ، يبدو في نظرنا أنّ الفكرة ، التي حسبها يكون محتوى الخطاب دون تأثير على بنيته وعلى نوعه قابلة للمناقشة .

(١) مارتيني ١٩٦٠ ، في مصطلحية مارتيني ، تسمى المورفيمات مونيمات ، ولكن مثل هذا التمييز غير وجيه في هذا المقام .

كاف لتبرير عدم إمكانية اختزال المورفيمات إلى فونيمات ، ولكن ما يجعل من المورفيم فونيما بارزا٢ غير قابل للاختزال إلى العناصر التي تكوّنه ، هي ظاهرة الدّلالة[١] : مع الدّلالة ، يظهر المورفيم على أنّه عنصر جديد ، قابل للاختزال كلّية إلى فونيمات وإلى القواعد ، التي تتصدّر تركيبها[٢] . ومع المروفيم لدينا نموذجا للظاهرة البارزة٢ ، ومع الجملة لدينا نموذجا للظاهرة البارزة ١ . بالفعل ، يعدّ التّركيب والدّلالة طريقتين مختلفتين ومتكاملتين لاعتبار بناء الجملة ودلالتها باختزالها إلى العناصر المكوّنة لها[٣] ، وإلى المورفيمات ، وإلى العلاقات بين هذه العناصر .

ماذا عن الملفوظ؟ على ماذا تقوم عملية التّمييز بين الملفوظ والجملة؟وفضلا عمّا هو موجود ، ما العلاقة بين الملفوظ والجملة؟ يكتسي هذا السؤال بالنسبة للتداولية رهانا يمكن مقارنته بالخاصية البارزة١ أو البارزة٢ التي يكتسيها الخطاب بالنسبة لتحليل الخطابات . إذا اختُزل الملفوظ إلى جملة ، فالتداولية سوف تنحل في علم الدّلالة والتّركيب ، وبذلك فوجودها لا يحتمل أيّة مشروعية خاصّة . ما هي العوامل ، التي تجعل من المورفيم ظاهرة بارزة٢؟ لقد لاحظنا تدخّل عامل مزدوج بعيد عن العناصر المكوّنة للمورفيمات : المعنى المعجمي

---

(١) نُدمج هنا الصنف التركيبي في دلالة المورفيم حسب مخطط من نوع : دلالة المورفيم=المعنى المعجمي+ المعنى النّحوي ، حيث يلّم هذا الأخير بالصنف التّركيبي .

(٢) إنّه مفهوم اعتباطية اللغة .

(٣) يُعدّ التركيب وعلم الدّلالة مقاربات : نستخلص من بين المكوّن التّركيبي والدّلالي للمورفيمات البنية التّركيبية للجمل وتحليلها الدّلالي . وفي هذا الاعتبار ، نلاحظ أنّ التّركيب وعلم الدّلالة مؤسسات قابلة للاختزال بالمفهوم المشار إليه . إنّه صحيح بالخصوص في إطار البرنامج المصغّر للنحو التّوليدي (انظر بولوك Pollock في طور الصدور) ، حيث تكون الجملة إسقاطا أقصى للإمالة (علامة التوافق المرتبطة بالفعل) .

والصنف النّحوي ، وحسب الاستراتيجية ذاتها ، ولتبيان أنّ الملفوظات ظواهر بارزة٢ ينبغي ويكفي تبيان عدم إمكانية اختزالها إلى جمل .

والمدخل البديهي إلى هذا الإشكال ، هو تأويل الملفوظات . إذا لم يمتزج تأويل الملفوظات بتأويل الجمل ، وبتعبير آخر ، إذا كانت هناك ضرورة وجود مرحلتين مختلفتين للتأويل ، فالملفوظات لا تختزل إلى جمل . وفي مثل هذه الحالة الخاصّة ، يكمن العامل الخارجي في آلية التأويل ، التي ينبغي أن تنضاف إلى الآليات اللسانية الصارمة (التركيب وعلم الدّلالة) لاعتبار تأويل الملفوظات . لن نشير هنا إلاّ إلى اختلاف فظّ وموثوق : تؤول الملفوظات المتضمّنة للمثبتات بشكل مختلف حتّى إن تطابقت مع الجملة ذاتها . وبهذا الاعتبار ، لا تكفي آليات التأويل اللسانية الصارمة (تركيب وعلم دلالة) لتأويل الملفوظ ، ينبغي إضافة المعارف التّصورية عن العالم : لنتفحّص المثال التّالي :

(٧) أنا هنا الآن

تحمل هذه الجملة الدّلالة ذاتها مهما كانت المناسبة التي تنطق فيها . ولكن مختلف الملفوظات التي تعلن عنها ليس لها المعنى ذاته . الملفوظ (٧) هو نتاج آن ريبول A. Reboul في ٦ أكتوبر ١٩٩٥ ، ويحتمل التأويل المشار إليه في (٨) :

(٨) آن ريبول في هانوفر يوم ٦ أكتوبر ١٩٩٥ .

إنّ المعنى الخاص المقدّم لـ (٧) بطبيعة الأمر غير مماثل لأيّ معنى آخر خاص بـ (٧) ، وبهذا الاعتبار ، لا يختزل الملفوظ إلى جملة ، ويتعلّق الأمر بالظاهرة البارزة٢ من صنف طبيعي وجيه علميًا .

٦. ليس الخطاب صنفا طبيعيا وجيها علميا: الجزء الثّاني

ما هو الفرق بين افتراض أن يفرض الخطاب بنية للملفوظات التي تكوّنه غائيا ؟ وتقديم آلية خاصّة لتأويل الملفوظات؟ في حال الخطاب ، نجد مفهوم التوظيف الغائي حاضرا ، في حين أنّه في حال الملفوظ يغيب مثل هذا التّوظيف . والحال أنّ مفهوم التّوظيف الغائي مشكوك فيه : في رأينا ، من الواضح

أنّه إذا أحلنا إلى المفهوم ، الذي قدّمه سورل[١] ، فإنّ مفهوم التّوظيف الغائي سوف يُختزل من منظور التفسير الملائم[٢] إلى استراتيجية الشخصية في المخطط المعاد إنتاجه هنا : «وبذلك تحدث المعجزة . . . .» .

وبالتّالي ، يعدّ كلّ تبرير غائي غير علمي . وفي هذا الاعتبار ، لتبرير عدم قابلية اختزال الخطاب ينبغي :

i . أن تؤدي البنية أو البنى ، التي نقدّمها للخطاب دورا غير غائي ، وبمعزل عن مقاصد المتكلّم ومحتوى الخطاب في حال إنتاجه .

ii . أن تؤدي هذه البنى دورا في تأويله .

يستحق هذان الشّرطان بعض التّعليقات : أوّلا ينبغي ملاحظة تطابق هذه الشروط للمظهرين اللذين يحتملهما أيّ ملفوظ : فهو منتج ومؤول[٣] . كثيرا ما افترضنا أنّ الإنتاج والتأويل ظواهر في الواجهة ، إذ تتوافق المرحلة الأولى من العملية التأويلية مع المرحلة الأولى من العملية الإنتاجية وهكذا . فسواء كانت هذه الفرضية صحيحة أم لا فيما يتعلّق بالمظاهر اللسانية الصارمة (علم الأصوات ، التركيب وعلم الدّلالة) لتأويل الملفوظات ، فإنّها غير قابلة للتأييد فيما يتعلّق بتأويلها التداولي : بالفعل ، ينبغي أن تكون جمل السياق[٤] هي نفسها بالنسبة للمتكلّم والمخاطَب ، ولهذه الأطروحة الموسومة بـ المعرفة المشتركة ضرران : فهي تؤدي إلى التّراجع إلى ما لا نهاية (سبربر وولسن ١٩٨٦/١٩٨٩) ، وتقدّم تنبؤات لا واقعية من حيث أنّ التّواصل ناجح بالضرورة

---

(١) الملاحظة السابقة رقم ٤ .

(٢) وحول التمييز بين التّفسير الملائم والوصف الملائم ، يمكن العودة إلى تشومسكي ,١٩٦٥

(٣) هذا لا يستلزم أن يحظى تأويله بالنّجاح : ولكنه إشكال آخر لن نتحدّث عنه في هذا المقام . وللحصول على بعض الأفكار حول هذه النّقطة انظر : سبربر وولسن (Sperber et Wilson (1986/1989 .

(٤) جمل السياق التي يؤول بها الملفوظ نسبيا . يتكوّن السياق من الجمل ، التي يعتقد المخاطَب في صحّتها ، حيث تتطابق البعض منها مع المعارف الموسوعية عن العالم .

(لا وجود لسوء التّفاهم أبدا) ، إنّها أطروحة لا يمكن الأخذ بها . وبذلك ، حتّى يتمازج تأويل الملفوظ بإنتاجه ، ينبغي ويكفي اختزال تأويل الملفوظ إلى تأويل الجملة المطابقة له . ومثلما لاحظنا في الفقرة السابقة (الفصل رقم٥) ، فالأمر ليس كذلك . وفي هذا الاعتبار ، من الشرعية التّمييز بين إنتاج الملفوظات وتأويلها .

فيما يتعلّق بـ i ، الآن ونظرا للقوام غير المؤكّد لمفهوم الغائية ، إذا كانت البنية تؤدي دورا في إنتاج الخطاب ، فمن الأفضل ألا يكون هذا الدّور غائيا ، ولكن من جانب آخر ، ولحصول البنية على القوام الخاص ، الذي يقدّمه لها تحليل الخطابات ، ينبغي عليها أن تكون مستقلة عن مقاصد المتكلّم والمحتوى . ولا نرى دورا آخر بإمكان البنية أن تؤديه[1] دون أن يكون غائيا . أما بالنسبة لـii ، فبديهيا إذا كان لمفهوم بنية الخطاب شرعية ، فهي لا تحتفظ بها إلاّ في دورها التأويلي ، بمعنى ضرورة استعادتها من قبل المخاطَب نتيجة فهمه للخطاب . ولكن مثل هذه الخاصية الفظّة لا تعني القبول : بالفعل ، إذا كانت البنية مستقلة عن مقاصد المتكلّم والمحتوى ، لا نرى الدّور الذي يمكن أن تؤديه في تأويل الخطاب . بالتّالي ، لا نعتقد في تحقّق هذه الشّروط ، ويبدو لنا أنّ قيمة الحجّة كامنة في مقام آخر . وإذا كنّا على صواب ، فإنّ الخطاب سيختزل إلى عناصره ، أي إلى الملفوظات ، ويفسّر بالعلاقة الكائنة بين هذه العناصر . يتعلّق الأمر بظاهرة بارزة١ ، أي ليس بصنف طبيعي وجيه علمياً .

٧. الانسجام في خدمة الخطاب

إنّ مؤيدي الخطاب باعتباره حدثا بارزا٢ ، بإمكانهم الدّفاع عن وجهة نظرهم ، باستدعاء مفهوم الانسجام ، الذي يؤدي دورا مركزيا ، رغم عدم

---

(١) كلّ ما نقوله هنا يُطبق mutadis mutandis على ما يدعى بتركيب الخطاب أو لسانيات النصّ اللذين ليسا في نهاية المطاف إلاّ تجسّدات أو تحوّلات لتحليل الخطاب .

وضوحه في تحليل الخطابات . يبدو لنا ولمختلف الأسباب ، التي نعرضها بسرعة الآن ، أنّ الدواء يصبح أخطر من الألم . يمكن أن ترتكز حجج مؤيدي تحليل الخطابات على الفرضية التّالية :

(٩)الفرضية حول الخطاب والانسجام

ما يميّز الخطاب هو الانسجام

حسب هذه الفرضية ، الانسجام هو الذي يحدّد الخطاب (بمفهوم تحليل الخطاب) . إنّ الانسجام بطريقة أو بأخرى يفسّر ويبرر وجود البنى الخاصّة بالخطاب ، ومثلما يفترض اشتغال الانسجام بين الملفوظات وليس داخل الملفوظات ، ووصف الخطاب بهذه الطريقة يمنع مسبقا من اختزاله إلى ملفوظات ، وينشئ ظاهرة بارزة٢ ، أي صنفا طبيعيا وجيها علميا . وبالتّالي ، يكون الانسجام هو العامل الخارجي القابل للمقارنة مع المعنى المعجمي للمورفيمات ومع معنى الملفوظات .

إنّنا نؤمن بوجود إجابتين أساسيتين لهذه المحاجّة المؤسسة على الانسجام ، الإجابة التي نرفضها ، والإجابة التي نتبنّاها وندافع عنها فيما يلي :

(١٠) الإجابة الأولى

إنّ العلاقات بين الملفوظات لا تمنع الاختزال ، وفي هذا الاعتبار ، أن ينجز الانسجام بين الملفوظات بدل الانجاز داخلها لا يعدّ عائقا للاختزال .

(١١) الإجابة الثانية

لكي يتمكن الانجاز من أداء الدّور ، الذي تقدّمه له هذه الحجّة ، ينبغي أن يحتمل تحديدا مستقلا والحال ليست كذلك[1] . فعلا ، يبدو من الصعب أن نقدّم لمفهوم الانسجام تحديدا لا يستدعي مفهوم الخطاب[2] . وبفظاظة ، نعتبر

---

(١) لأنّه لا يمكن حسب رأينا ، تحديد الانسجام بطريقة مستقلة ، حيث لا نتبنّى الإجابة الأولى ، بالنسبة لنا الانسجام هو نتاج فظّ لتأويل الملفوظات ، وليس عاملا لهذا التأويل .

(٢) موشلر وريبول ١٩٨٩ . (بصدد الظهور)

الانسجام في العموم معادلا للخطاب ، مثلما تكون النحوية معادلة للجملة . نحدّد الخطاب في الآن ذاته باعتباره سلسلة منسجمة من الملفوظات . وبذلك نلاحظ أنّ نحوية الجملة مرتبطة بقواعد مستقلة ، في حين ليست حال الانسجام ، الذي لا يبدو أنّه مرتبط ببعض العلاقات المستقلة مهما كانت طبيعتها . في هذا الاعتبار ، فإنّ مفهوم الانسجام يتحدّد بالنسبة إلى الخطاب ، ويتحدّد الخطاب بالنسبة إلى الانسجام في حركية دائرية جميلة ، وبذلك ، فكلّ محاولة لإثبات الخطاب باعتباره صنفا طبيعيا وجيها علميا مآله الفشل .

٨. مقاربة بديلة للانسجام والخطاب

ومن أجل هذا ، ينبغي في رأينا ألا نتوقف عن الاهتمام بتحليل الخطاب ، إذ هناك سببان لذلك : السبب الأوّل : عدم توقّف الحاجات الرّاهنة للتحليل اللساني ، وبالخصوص في ميدان صناعة اللغة عند الملفوظ . والسبب الثّاني : إنّ الملفوظ لا يؤول عموما وهو معزول ، ثمّ إنّه إذا كان مسبوقا بملفوظ أو بعدّة ملفوظات ، فمن المحتمل أن تكون بعض المعلومات المستنبطة من تأويل تلك الملفوظات ضرورية لتأويله الخاص . وبتعبير آخر ، ينبغي رفض تحليل الخطابات ، ولكن ينبغي الاستمرار في تحليل الخطاب الذي يمتزج مع التّداولية : وطبقا لما ذكرناه سابقا عن الخاصية الحَدْسية وقبل نظرية لمفهوم الانسجام ، فلا ينبغي أن يستخدم بتاتا في تحليل الخطاب ، ولكن ينبغي على النّظرية ، التي نوظّفها لمعالجة الخطاب أن تسمح أيضا بالنّظر في الانسجام .

إذا كان الانسجام مفهوما حدسيا ، فماذا يوافق؟ أو يتوافق مع ماذا؟ كيف نوظّفه ولماذا؟ يتجسّد مفهوم الخطاب في الأحكام التي نملكها حول الخطابات ، أو حول المتكلّمين من خلال خطاباتهم . إنّه مرتبط بالتأويل ، الذي نجريه على الخطاب ، وليس العكس . في هذا الاعتبار ، يعدّ تقديم التأويل للخطابات تقديما للأحكام التلقائية ، التي نملكها حول الخطابات ، وتبريرها إلى حدّ ما ، بمعرفة أنّ هذه الأحكام ليست أحكاما علمية وليس لها أيّ دور تفسيري أو وصفي في

نظرية تأويل الخطابات . وعلى الأكثر ، تشكّل أحكام الانسجام ظاهرة إيمائية يمكن ، وينبغي لتحليل الخطاب الأخذ بها .

كان الهدف من كلّ ما قيل في الفقرات السّابقة تبرير المقاربة الاختزالية للخطاب ، وفي حدود ما تختزل هذه المقاربة خطابا معيّنا إلى الملفوظات التي تكوّنه ، تفترض نظرية لتأويل الملفوظات حتّى يتمكّن الخطاب من التأويل ، ونقصد بذلك النّظرية التّداولية . نلاحظ أنّ عدم قابلية اختزال الملفوظ إلى جملة يفترض أن تسمح هذه المقاربة التّداولية بإدماج المعارف غير اللسانية[1] لتأويل الملفوظات. ففي حدود أوسع ، تكون المقاربة الخطابية ، التي ننادي بها اختزالية وسياقية في الآن ذاته ، وترتكز على فرضيتين أساسيتين :

ج١ الخطاب ليس بصنف طبيعي وجيه علمياً .

ج٢ يؤول الخطاب بالقياس إلى السياق ، الذي لا يختزل إلى المعطيات اللسانية المحتواة في الجملة .

يطابق ج١ المظهر الاختزالي ، ويطابق ج٢المظهر السياقي لمقاربتنا للخطاب .

في الوقت الرّاهن ، توجد نظرية تتطابق مع مقتضيات تحليل الخطاب بالمعنى المشار إليه سابقا ، أي نظرية اختزالية وسياقية في الآن ذاته : إنّها تداولية الملائمة ، التي طوّرها سبربر وولسن (١٩٨٦/١٩٨٩) . لن نعرضها هنا بالتّفصيل ، لأنّها متداولة حاليا . سوف نكتفي بالتّذكير أنّها تتعلّق بنظرية من نوع معرفي(إنّها تعتبر اللسانيات والتداولية أجزاء من علم النّفس المعرفي) ، وتجعل من التأويل التداولي مجموعة من العمليات غير المتخصصة ، التي تتدخل بعد التّحليل التركيبي والدّلالي[2] ، والتي تواصل تأويل الملفوظ قياسا

---

(١) المعارف التي أشرنا إليها سابقا ، ولاحظنا أنّها جدّ ضرورية لتأويل الملفوظات (الفصل ٥) ، وإن لم تكن كذلك ، سيكون الملفوظ قابلا للاختزال إلى جملة .

(٢) بهذا المعنى ، سوف نتبنى النّزعة الاختزالية : لا تختزل الملفوظات إلى جمل ، ولكن الجمل تختزل إلى مورفيمات ، وهذه الأخيرة لا تختزل إلى مونيمات .

إلى سياق غير محدّد ، ولكن مكوّن ملفوظا بعد آخر . يتشكّل هذا السياق من الجمل التي يؤمن المخاطَب بصحّتها والمستنبطة من مصادر مختلفة : تأويل الملفوظات السابقة مباشرة ، التّصور المباشر والمعرفة الموسوعية عن العالم أو الكون .

ومن جهة أخرى ، سوف نلاحظ مع سبربر وولسن ، بعد ذلك[1] ، أنّه من الأهمية التموقع في إطار ما بعد جرايس ، وأن يحتفظا من الفلسفة اللغوية لدى جرايس بأهمية مفهوم القصد ، ومبدأ عام يعوّض مجموع بديهيات جرايس وهو مبدأ الملائمة .

٩. القصدية الموضعية والقصدية الشاملة

يرتكز التّمييز ، الذي سوف نقحمه في هذه الفقرة كاملا على مفهوم علم النّفس الجمعي . يمثّل هذا المفهوم إلى حدّ كبير النّظير النّفسي لما اتفق على تسميته بالفيزياء الجمعية (سميث وكازاتي ١٩٩٣) Smith et Casati أي مجموع البواكير والاستدلالات الخاطئة غالبا من منظور الفيزياء المعاصرة ، ولكن أكثر إجرائية في المستويات الأخرى ، التي سنؤسس عليها توقعاتنا وأعمالنا فيما يتعلّق بالموضوعات الملموسة والأحداث المرتبطة فيما بينها في الكون . وفي نفس المنظور ، علم النّفس الجمعي هو مجموع البواكير والاستدلالات ، التي نؤسس عليها توقعاتنا حول سلوك الآخر ، والتي تحكم أيضا طريقة ضبط سلوكنا مقارنة بسلوك الآخر .

يتمثّل علم النّفس الجمعي في تبنّي ما يدعوه دينات Dennett بـ استراتيجية المؤول (The intentional stance) ، دينات ١٩٨٧/١٩٩٠) ، حيث نقدّم لكيانات عضوية أخرى[2] تمثّلات داخلية (الاعتقادات ، المقاصد ،

(١) الفصل ١١ .

(٢) أو مقارنة بالآلات : يتحدّث دينات عن مثبّت الحرارة ، ولكن لا من شكّ في تبنينا لإستراتيجية المؤول بشكل عام .

. . .إلخ) تحفّز أعمالهم . حسب دينات Dennett في (Les italiques sont de Dennett ، ١٩٩٠ ، ص٤٢) : «إنّ تبني وجهة نظر قصدية إزاء الذات . وإزاء الكائنات الذّكية الشبيهة لنا لا مفرّ منها» ، ويضيف Dennett في (Les italiques sont de Dennett ، ١٩٩٠ ، ٤٨) : «ليست النّقطة الأساسية فيما نقدّمه من اعتقادات ورغبات خاصّة بالأشياء ، التي نجدُ فيها تمثّلات داخلية فقط ، ولكن بالأحرى أنّنا عندما نكشف موضوعا حيث تشتغل الاستراتيجية القصدية ، نبحث في تأويل بعضا من هذه الحالات الدّاخلية باعتبارها تمثّلات داخلية» .

وبشكل بديهي ، تنطبق استراتيجية المؤول جيدا على الكائنات البشرية ، وأكثر من ذلك ، فهم ينتجون خطابا ، فالكلام يعتبر وسيلة للتعبير عن المقاصد عموما ، والأفكار وأحاسيس المتكلّم[1] . إذا عدنا إلى استراتيجيتنا الاختزالية ، يمكننا القول أنّ الخطابات تُختزل إلى ملفوظات ، وبالتالي فإنّنا نُعير لكلّ ملفوظ مقاصد خاصّة بالمتكلّم . سوف نسمّي المقاصد التي يشكّلها المخاطَب على أساس ملفوظ خاص بالمقاصد الموضعية . ولهذا ، ومثلما قلنا ذلك سلفا ، فإنّ علم النّفس الجمعي واستراتيجية المؤول لا ترتبط بالملفوظ فقط : إذا وظّف المخاطَب عند كلّ ملفوظ استراتيجية المؤول وقدّم للمتكلّم مقصدا موضعيا ، فإنّه لن يتوقّف عند هذا الحدّ ، وإنّما يبني على أساس المقاصد الموضعية المتتالية والآليات الأخرى ، التي نتحدّث عنها لاحقا[2] ما ندعوه

---

(١) سوف نلاحظ ، ومثلما نتصوّر ، إذا أدّت استراتيجية المؤول دورا حاسما في تأويل الخطاب وإنتاجه (ونعني بذلك الملفوظات المكوّنة له) ، فإنّ دراستنا حول هذه النقطة المميّزة وتأويل وإنتاج الملفوظات حاسمة بالنسبة لبعض ميادين صناعات اللغة والذّكاء الصناعي ، إذا لم نتمكن من الوصول إلى نظرية شاملة لما يدعى باستراتيجية المؤول في الميدان اللغوي ، سوف تختزل حظوظ إنتاج برنامج يمرّ من اختبار تورينغ Turing (ريبول بصدد الظهور) .

(٢) الفصل ١٠ .

بالمقصد الشامل ، أي المقصد الذي يلمّ بمجموع الخطاب . فنحن نميّز إذن بين القصد الموضعي ، الذي يقدّمه المخاطَب للمتكلّم على أساس ملفوظاته ، والقصد الشامل ، الذي يقدّمه المخاطَب للمتكلّم على أساس خطابه . يشكّل القصد الموضعي والقصد الشامل المحتويات الخاصّة بالقصدية الموضعية والقصدية الشاملة ، بمعنى القدرة ، التي يعيرها المخاطَب للمتكلّم قصد الحصول على القصد الموضعي والقصد الشامل .

وفي هذا المنظور ، فإنّ تأويل الملفوظ وتأويل الخطاب مرتبطان بالفرضيات ، التي يكوّنها المخاطَب حول امتلاك المتكلّم لقصدية موضعية وقصدية شاملة .

ينبغي الإشارة إلى أنّ فرضيتنا ليست بأيّ حال فرضية «ثابتة» ينتظر من خلالها نهاية الخطاب ليقدّم للمتكلّم قصدية شاملة تتطابق على الأقل مع مجموع المقاصد الموضعية . وبعيدا عن هذا ، تتطابق القصدية الشاملة مع فرضية تعدّل ملفوظا بعد ملفوظ ، وليس عن طريق إضافة بسيطة لمقصدية موضعية جديدة ، ولكن على أساس قصدية شاملة سابقة ، وعلى أساس القصدية الموضعية ، التي تشكّلت في الحين وخاصّة بملفوظ معيّن ، وعلى أساس التّعديلات ، التي تُحدثها القصدية الموضعية على القصدية الشاملة . يمكن أن تكون هذه التّعديلات من ثلاثة أنواع بالضبط مثل التّعديلات ، التي يُحدثها الملفوظ على السياق ، وقياسا لقيمتها نعتبر فائدتها أو ملاءمتها في نظرية سبربر وولسن :

i . يمكن للقصد الموضعي أن يعكس عنصرا من القصد الشامل ، وفي هذه الحالة يحدث استئصال العنصر المعني .

ii . يمكن للقصد الموضعي أن يغيّر القوّة ، التي تشكّل منها عنصر من القصد الشامل يجعله أكثر تأكيدا أو على العكس أقل تأكيد .

iii . يمكن للقصد الموضعي وبالتّعاضد مع العناصر الموجودة في القصد الشامل ، وعن طريق الاستنتاج إنتاج عنصر أو عدّة عناصر من القصد الشامل .

لكلّ هذا آثار : إذا كان صحيحا ما قلناه حول العلاقات بين القصدية

الموضعية والقصدية الشاملة ، ينبغي استنتاج أنّ عناصر القصدية الشاملة تحتمل شكلا جمليا ، وبطريقة أو بأخرى ، فهم أجزاء من السياق . إذا كنّا نتذكّر المصادر الثلاثة ، التي يقدمها سبربر وولسن للجمل ، التي تشكّل السياق ، سوف نلاحظ أنّ إحدى هذه المصادر تعدّ مفضّلة في القصدية الشاملة : بديهيا ، يتعلّق الأمر بتأويل الملفوظات السابقة . لهذا ، ينبغي الإلحاح على عدم معادلة القصدية الشاملة للسياق ، إذ لا تعادل إلاّ جزء من السياق الآتي من تأويل الملفوظات السابقة . فعلا : تتطابق القصدية الشاملة مع مجموعة فظّة من الجمل المتدخّلة في هذا الجزء .

١٠. بناء الخطاب والانسجام

إذن ، ماذا يمكن أن نقول عن الخطاب وعن الانسجام؟ فيما تتفادى هذه المقاربة الاختزالية والسياقية في الآن ذاته عوائق تحليل الخطابات؟ فيما تعتبر أحكام الانسجام؟ وأكثر من ذلك ، كيف يحدث بناء القصدية الشاملة؟ هل استراتيجية المؤول واقعية في بناء الخطاب؟ ، أو بتعبير آخر ، ما هي العلاقات التي نُعيرها للمتكلّم وتمثّلاته الذّهنية؟ في هذه الفقرة ، سوف نحاول الإجابة عن كلّ الأسئلة باقتفاء النّظام ، الذي وردت به أعلى .

لنبدأ من السؤال الخاص بما يمكن قوله حول الخطاب والانسجام : الاستراتيجية التي وصفناها في الفقرة السابقة ، مثلما يشير إليها اسمها استراتيجية المؤول هي استراتيجية تأويلية . إنّها تتعلّق بتأويل الملفوظات والخطاب ، وتجعل تأويل الخطاب مرتبطا بتأويل الملفوظات بشكل حاسم . ولهذا ، سوف نلاحظ أنّها لا تختزل تأويل الخطاب إلى مجموع تأويل الملفوظات : في الحقيقة ، وفيما يتعلّق بهذه النقطة ، وبالنقاط الأخرى ، نؤمن بوفائنا لسبربر وولسن ، هذه الاستراتيجية هي فرضية-اختزالية فيما تتضمّنه من حيث خلق فرضية حول مقاصد (موضعية أولا ، ثمّ شاملة) المتكلّم وتعديل هذه الفرضية وفقا لتبريرها أو مناقضتها . ينظر سبربر وولسن إلى هذه الآلية

الافتراضية-الاختزالية باعتبارها أساس عمليات تأويل الملفوظات، وسنكتفي بتوسيعها إلى مستوى الخطاب.

ولهذا، لن نقول بتاتا أنّ تأويل الخطاب يمرّ بنفس آلية تأويل الملفوظات: في الحقيقة، يمرّ تأويل الملفوظات من التحليل اللّساني (التركيب وعلم الدلالة) ثمّ من العملية الافتراضية-الاختزالية التداولية. وبذلك، يعرف هذا التأويل مرحلتين: مرحلة لسانية خاصّة، ثمّ مرحلة تداولية، بينما لا يمرّ تأويل الخطاب عن أيّة مرحلة لسانية: لا تؤدي المعطيات اللسانية -على الأكثر- إلاّ دورا غير مباشر في تأويل الخطاب. ثمّ إذا تفحصنا الجمل المكوّنة في الفقرة السابقة، سوف ندرك أنّ تأويل الخطاب يختزل إلى بناء القصدية الشاملة، التي تتكوّن على أساس القصدية الموضعية. في هذا الاعتبار، وفيما يتعلّق بالتأويل، ينبغي ملاحظة أنّ تأويل الخطاب مشكّل حسب نفس الآليات، التي تنطبق على مستوى الملفوظ، إلاّ أنّ عدد المعلومات، التي ينبغي اعتبارها تجعل المهمّة معقّدة.

في رأينا، إنّ بناء القصدية الشاملة، يضمّ أحكام الانسجام، التي تستند عليها الخطابات، أو على منتجيها، وكلّما كانت القصدية الشاملة المقدّمة لمتكلّم خطاب معيّن معقّدة ومفصّلة، كلّما كان حكم الانسجام المستند على الخطاب ملائما. وبتعبير آخر، ليس الانسجام مفهوما مطلقا: إنّه مفهوم نسبي، يحتمل السلّمية، وتتعلّق درجة الانسجام، التي نقدّمها للخطاب بسهولة بناء القصدية الشاملة انطلاقا من هذا الخطاب، ومن تعقّد هذه القصدية الشاملة.

قبل أن نذهب بعيدا، نودّ أن نقول بعض الكلمات الدّقيقة حول الآليات، التي تبدو لنا خلف القصدية الشاملة. مثلما أشرنا إلى ذلك في الفقرة السابقة، فإنّ بناء القصدية الشاملة في الأساس هي عملية ديناميكية وافتراض-اختزالية. لهذا، نرغب إضافة آلية لبناء القصدية الشاملة، تمرّ هذه الآلية على ما دعيناه بالفرضيات التوقّعية[1]. سوف نقوم الآن بتقديم بعض النّماذج،

---

(١) ريبول ١٩٩٢.

حيث تتشكّل الفرضيات التوقعية ، إلى جانب النموذج الحواري ، ثمّ نقدّم بعض المؤشرات حول موجّهات هذا البناء وحول استعمالها من قبل المتكلّمين ومن قبل المخاطبين :

(١٢) (a) أأجرؤ على حكاية الطرفة التي أوكلت إليّ مع استنشاق الهواء تحت ظلّ حائط مقبرة في قطعة بِرسيم (luzerne) ذات الخضرة الساحرة؟ (b) لمالا؟ (c) أنا مفضوح سلفا كمن قال حقائق تصدم موضة ١٨٣٨ :

(d) الخوري (الكاهن) لم يكن عجوزا البتة ، (e) الخادمة كانت جميلة ، (f) كنّا نثرثر ، ما لم يمنع قط شابا من القرية المُجاورة من إبداء إعجابه(مغازلة) الخادمة . (g) في يوم ، خبأ ملاقط المطبخ الصغيرة في سرير الخادمة . (h) عندما عاد بعد ثمانية أيام ، قالت له الخادمة :

(i) «هيا ، قل لي أين وضعت الملاقط الصغيرة ، التي بحثت عنها في كلّ مكان منذ رحيلك . (j) إنّ هذه لَدُعابة جدّ سيئة .»

«العاشق يُقبّلها ، و الدموع في عينيه ، و يبتعد .

(Stendhal, voyage dans le midi, Divan, 115)

(١٣)

(A) تتكوّن مدينة سوفرونيا (Sophronia) من قسمين . في القسم الأوّل ، يوجد الثمانية الكبير الطائر ذو الحدبات الخشنة ، لعبة الخيل الخشبية بسلاسلها شبيهة بأشعة الشمس ، العجلة(الدولاب) بأقفاصها المتحرّكة ، بئر الموت مع سائقي الدراجات الرأس إلى الأسفل ، قبة السيرك مع عنقود المربع المنحرف المُعلّقة من منتصفها . أما القسم الثاني من المدينة فهو من حجر ، من رخام(مرمر) ومن اسمنت ، إضافة إلى البنك ، المصانع ، القصور ، المذبح ، المدرسة وكلّ الباقي . إحدى أقسام المدينة ثابت ، أما الآخر فمُؤقّت ، وعندما تصل نهايته إلى حدّها ، يقتلعون مساميرها ، يُفكّكونها ، ويأخُذونها من أجل إعادة نصبها على الأراضي البور لقسم آخر من المدينة .

(B) هكذا ، في كلّ سنة يأتي اليوم ، الذي ينزع فيه العمال الجبهية

(زخرف المدخل) الرخامية ، يُنزلون حيطان الحجر ، بوابات الإسمنت الضخمة ، يُفككون الكهنوت ، النصب ، المرافئ ، معمل تكرير البترول ، المستشفى ، يُحمّلونها فوق مقطورات ، ليتتبّعوا ، من مكان لمكان ، مسار كلّ سنة . ما يبقى هنا ، هو نصف سوفرونيا للقذف بها نحو الهدف ، وألعاب الخيل الخشبية ، مع الصراخ المُتدلي في سلة الثمانية الطائر الرأس مقلوب ، وتبدأ في حساب كم شهراً ، كم يوماً عليها الانتظار لكي تعود القافلة وتبدأ من جديد حياة بأكملها .

(Calvino, les villes invisibles, Seuil, 77-78)

(١٤)

(a) إن أردتم تصديقي ، جيّد جداً . سأقول الآن كيف هي أوكتافيا Octavie ، المدينة-شبكة العنكبوت . توجد هُوّة بين جبلين منحرين : المدينة فوق الفراغ ، مربوطة بالقّمتين بحبال ، سلاسل وممرّات . نمشي فوق عارضات من خشب ، مع الحذر كي لا نضع أرجلنا في الفراغات ، أو نتمسّك أيضا بخلايا شبكة القِنَّب (chanvre) . في الأسفل ، لا يوجد شيء على بعد مئات ومئات الأمتار : سحابة تنتشر ، بعيدا في الأسفل نلمح قاع السيل .

هكذا هي قاعدة المدينة : شبكة تصلح مكانا للمرور ودِعامة . كلّ الباقي ، عوض الارتفاع لفوق ، هو مُعلّق للأسفل : سلالم من حبل ، أسرّة مُعلّقة (مراجيح النوم) ، منازل على شكل أكياس ، مشاجب ، شرفات شبيهة بسلات المناطد ، قربات للمياه ، قناديل الغاز ، مشواة ، سلات مُعلّقة على خيوط ، رافعات ، حمامات ، للألعاب البهلوانية والحلقات ، عربات مُعلّقة بسلك لنقل الأشخاص أو البضائع ، حاملات المصابيح ، مزهريات لنباتات ذات الأوراق المُتدلّية .

(b) مُعلّقة فوق الهاوية (الهُوّة) ، فإنّ حياة ساكني أوكتافيا Octavie أقلّ تغيّراً مما هي عليه في المدن الأخرى . (c) هم يعلمون أنّ لُمقاومة شبكتهم حدّ .

(I. Calvino, les villes invisibles, Seuil, 91)

(١٥) جورجياس (GORGIAS) : أليس شيء جدّ مريح ، سقراط ، أن

نتمكّن ، دون أن نكون قد تعلّمنا فنا آخر غير هذا ، أن نتمكّن من **مُضاهاة كلّ** المتخصّصين؟

سقراط(SOCRATE) : إن كان الخطيب ، مُكتفياً بهذا الفن ، يُعادل الآخرين أو لا يعادلهم ، هذا ما سنُحلّله بعد قليل ، إن كان موضوعنا يتطلّبه . أما الآن ، لنرى إن كان ، بالنسبة للعادل و الظالم ، القبيح والجميل ، الخير والشر ، إن كان الخطيب في الحالة نفسها كما بالنسبة للصحة ومواضيع الفنون الأخرى وإن كان ، دون معرفة الأشياء في حدّ ذاتها ودون معرفة ما هو خير أو شرّ ، جميل أو قبيح ، عدل أو جور (ظلم) ، قد وجد لكلّ هذا وسيلة إقناع تجعله يظهر أمام أعين الجاهلين أكثر معرفة ، رغم جهله ، من الذي يعرف . أو بالأحرى ، أمن الضروري أن نعرف وهل يجب أن نكون على دراية بهذه الأشياء قبل المجيء إليك لتعلّم البلاغة؟ (. . .) أو أسيكون جدّ مستحيل بالنسبة لك أن تُعلّمه البلاغة ، ما لم يكن قد تعلّم مُسبقاً الحقيقة حول هذه المواد؟ ماذا يجب علينا أن نُفكّره في كلّ هذا ، جورجياس؟ باسم زوس (Zeus) ، اكشف لي ، كما وعدت منذ برهة ، فيما تكمن أخيراً قدرة البلاغة .

جورجياس : رأيي أنا ، سقراط ، هو أنه ، إن كان يجهل هذه الأشياء ، سيتعلّمها ، عندي .

سقراط : يكفي : هذا هو الكلام الجيّد . لكي تجعل أحداً ما خطيباً جيّداً ، من الضروري أن يعرف ما هو العدل و الظلم (الجور) ، سواء أكان قد عرفه سلفاً ، سواء أكان قد تعلّمه بعد في مدرستك .

جورجياس : هذا مُؤكّد .

سقراط : لكن ماذا؟ الذي تعلّم فنّ النجارة ، أهو نجّار أم لا؟

جورجياس : هو كذلك .

سقراط : والذي تعلّم الموسيقى ، أليس بموسيقي؟

جورجياس : بلى .

سقراط : والذي تعلّم الطب ، طبيب؟ ألا يُطبّق المبدأ نفسه على الفنون

الأخرى؟ الذي تعلّم فنّاً ، أليس كما تفعله معرفة هذا الفن؟

جورجياس : بلى ، بالتأكيد .

سقراط : إذا اتّبعنا هذا المبدأ ، فالذي تعلّم العدل هو إذن عادل؟

جورجياس : دون أدنى شكّ .

سقراط : لكن العادل يُمارس أعمالاً عادلة .

جورجياس : نعم .

سقراط : هي إذن ضرورة أن يكون الشخص المُكوّن على البلاغة عادلا و أن يرغب العادل في القيام بأعمال عادلة؟

جورجياس : حسب الظاهر .

سقراط : إذن ، لن يرغب العادل أبداً في اقتراف الظلم .

جورجياس : لن يرغب في ذلك .

سقراط : في هذه الحالة ، وحسب منطقنا ، فالخطيب هو بالضرورة عادل .

جورجياس : نعم .

سقراط : بناءً على هذا ، لن يرغب الخطيب أبداً في اقتراف الظلم .

جورجياس : يبدو أنّه لا .

(Platon, Gorgias XIV, Garnier-Flammarion, 185-186) .

من بين النصوص الأربعة ، نجد ثلاثة منها قصص قصيرة أو وصف ، في حين يتمثّل النصّ الرّابع في حوار . أوفياء لمبادئنا ، لن ننطلق من فكرة وجود تمييز بمصطلحات التوظيف المعرفي بين تأويل الحكايات والشروح أو الحوارات . تخدمنا النصوص الثلاثة الأولى في التّشهير بما نسميه الفرضيات التوقعية : في النصّ الأول ، يشكّل المتكلّم الفرضية التوقعية ، التي يتمّ تفحّصها في نهاية النص ، أمّا الحالة العكسية فتظهر في النصّ الثّاني والنصّ الثّالث ، حيث يجد المتكلّم نفسه يقوم بفرضيات توقعية يتمّ مناقضتها فيما بعد . أمّا بالنسبة لقطعة الحوار المعاد إنتاجها في (١٥) ، فالهدف منها هو التّشهير باستحقاقات وحدود المقاربة بمصطلحات القصدية الشاملة عندما تكون القصدية منقسمة مثلما هي

كذلك بالنسبة للحوار .

لنأتي إلى المثال (١٢) : في المثال (١٢) كلّ بداية النصّ من الجملة (a١٢) إلى الجملة (f١٢) المدمجة ، تسمح للمخاطَب ببناء فكرة حول ما يرغب المتكلّم أن يقوله له ، بمعرفة أنّ الكهنة لا يتّسمون دائما بالصّفاء ، وأنّ القصّة التي سيسردها عليه المؤلف ، هي بالتحديد قصّة مغامرة غرامية ، حيث يؤدي الكاهن دورا فعليا[1] . يصوغ المخاطَب على أساس القصدية الشاملة ، التي بناها إلى غاية (f١٢) فرضية توقعية يبين وفقها في نهاية النص أنّ للكاهن-دون أيّ شكّ- مغامرة مع الخادمة : إنّ هذه الفرضية مبرّرة عن طريق الاستنتاج ، الذي يسمح بذلك بوساطة النّكتة المخادعة ، التي نصبها العاشق للخادمة (g١٢) إلى (k١٢) .

في المثال (١٣) ، وبالطريقة ذاتها ، يؤدي الجزء الأول من النصّ (13A) إلى بناء قصدية شاملة ، يكون هدف كالفينو Calvino متمثّلا في وصف مدينة ، حيث نصفها هو حفلة متنقلة ، ونصفها الآخر هو قابلية التّفكيك والتّنقل ، وعلى أساس هذه القصدية الشاملة ، وعلى أساس معارفه الموسوعية عن العالم ، يكون القارئ ملزماً ببناء فرضية توقعية من حيث أنّ المؤلف سوف يصف تفكيك الحفلة المتنقّلة . ويأتي الجزء الثّاني من النصّ (B١٣) ليناقض هذه الفرضية . أمّا المثال (١٤) ، فإنّ الآلية تبدو أكثر تعقيدا : يصف كلفينو Calvino في الفقرتين الأوليتين من النصّ (a١٤) المدينة كشبكة عنكبوت ، أين تبدو حياة القاطنين فيها معقّدة وخطيرة مادامت هذه المدينة متواجدة في أعلى شفا الكارثة ، ويبدو من البديهي أن أقلّ خطأ أو إشارة يمكن أن يسبب في نتائج كارثية . إنّ القصدية الشاملة ، التي يُعيرها المخاطَب للمتكلّم في هذه الحالة ، هو إنتاج نوع من التّرميز

---

(١) ليس من الصدفة ، أن نجد مقدّمة (a١٢) إلى (f١٢) بفعالية فائقة ، ويمكن أن نقول أنّ هذه المقدّمة تسمح بالتأسيس لقصدية شاملة ، وبفرضية توقعية حول النكتة التي ستروى لنا ، وسوف تكون نكتة فاضحة أو مشينة .

للخطر أو لهشاشة الوجود الإنساني . يؤدي الملفوظ (b١٤) إلى نتيجة مدهشة : رغم كلّ المخاطر ، التي تحدق بهم ، فإنّ حياة قاطني أوكتافي Octavie غير أكيدة مثلما هي كذلك في المدن الأخرى . ونظرا للقصدية الشّاملة المقدّمة لكالفينو ، نميل كثيرا إلى تأويل (أولا) «غير الأكيدة» كمرادف تقريبي لـ«خطيرة» . وفي هذا الاعتبار ، يشكّل القارئ فرضية توقّعية : في بقية النّص (c١٤) ، سيبرز المؤلف رأيا ، حيث رغم المخاطر التي تُحدق بهم ، فإنّ قاطني أوكتافي Octavie أقل تهديدا ممّا يمكن أن يتعرّضوا له في المدن الأخرى . يناقض الملفوظ الأخير (c١٤) هذا الانتظار ، ويُجبر على إعادة تأويل (c١٤) ، وبالخصوص عبارة «غير أكيدة» : إذا كانت حياة قاطني أوكتافي Octavie أقلّ غموضا مقارنة بحياة قاطني المدن الأخرى ، ذلك ليس لأنّها أقلّ خطورة ، وإنّما المصطلح كان أقرب والأكثر ملائمة ، فلا ينبغي تأويل مصطلح الغموض بالخطر ، وإنّما بمصطلحات الثّبات والتأكيد أو اليقين .

إن خصوصية (١٤) تتمثّل في أنّ الفرضية التّوقعية قد أُثيرت بوساطة كلمات تتدخّل في الملفوظ (١٤ب) ، وتأويل هذه الكلمة المشروطة ذاتها عن طريق القصدية الشاملة التي بُنيت لحدّ الآن . إذن ، لقد رأينا أنّ الفرضيات التوقعية يمكن أن تكون من مصادر مختلفة : يمكن أن تبنى على أساس القصدية الشاملة لوحدها (مثلما حدث في ١٢) ، وعلى أساس القصدية الشاملة والمعارف الموسوعية (مثلما حدث في ١٣) ، وعلى أساس تأويل الملفوظ ، حيث تأويل المصطلح موجّه عن طريق القصدية الشاملة (مثلما حدث في ١٤) ، وأخيرا من البديهي ، أن تُعدّل الفرضية التّوقعية في الإياب القصدية الشاملة[١] بشكل طفيف . وأخيرا ، نلاحظ أنّ القصدية الشاملة مستثمرة إلى حدّ ما من

---

(١) نأمل أننا كنّا واضحين من حيث لم نكن نقصد من خلال الأفكار ، التي استوحيناها من النصوص الثلاثة تحت (١٢) و(١٣) و(١٤) اقتراح تحليل كامل ومفصّل : إنّ قصدنا تمثل فقط في الارتكاز عليها لتوسيع تصورنا حول القصدية الشاملة والفرضيات التوقعية .

قبل المتكلّمين ، إنّها حقيقة خاصّة لوحظت في النصوص الأدبية مثل تلك التي تعرضنا لها سابقا : إنّ المتكلّمين يعرفون ويستثمرون الآليات التأويلية ، التي تسهم في بناء القصدية الشاملة وبالخصوص الفرضيات التوقعية ، ولن نطيل في هذه النقطة .[١]

لنذهب الآن إلى الحوار (١٥) : لم يتم اختيار الحوار لتوضيح بناء الفرضية التوقعية ، ولا لبناء القصدية الشاملة . إنّما بفضله يتمّ مناقشة الاحتمالات المتوفّرة لبناء قصدية شاملة للحوار . يطرح الحوار بطريقة بديهية مشكلة الفصل بين المقاصد : في علم النّفس الجمعي ، من البديهي ألاّ نقدّم للحوار قصدية شاملة وحيدة ، مادام يحتمل عدّة مشاركين[٢] . ماذا يمكن أن نفعل بالمحادثة؟ كيف يمكننا تأويلها؟ مما يبدو ، نلاحظ وجود خيارين على الأقل : في الخيار الأول يعدّ الشخص الذي يؤول المحادثة من المتكلّمين فيه ، أما في الخيار الثّاني ، فهو يؤول من الخارج دون أن يكون مشاركا أو طرفا . فمن البديهي أن يكون الاحتمال الثّاني هو المتحقّق[٣] في الحوار الأفلاطوني المعاد إنتاجه في (١٥) . وبالتّالي ، فإنّ الفصل بين المقاصد ليس واضحا كما يبدو : على المشارك في محادثة وبالخصوص إذا تعلّق الأمر بالجدال حول موضوع محصور نسبيا ، أن يبني قصدية شاملة يقدّمها لمخاطَبه إذا أراد الحصول على حظّ الدّفاع عن رأيه ،

---

(١) نحيل إلى ريبول وموشلر ١٩٩٢ (بصدد الإنجاز) .

(٢) إنّه سبب من الأسباب ، التي تجعل للتحليل الخطابي ، الذي يقدّم للمحادثات «البنى» المرتبطة بتأويلها توجيها غائيا : فهي تفترض أنّه إذا لم يكن الأمر كذلك وبطريقة لا واقعية أساسا لا وجود لقصدية فريدة وراء الحوار أو المحادثة . وباعتبار أنّ هذه الفرضية غير مقبولة ، فإنّه لا يمكن أن ترتبط «بنية» المحادثة بقصدية ، ولا يمكن أن نجد لها تبريرا غائيا .

(٣) إنّنا نأخذ لحدّ الآن الحوار في (١٥) وكأنّ الأمر يتعلّق بنقل حوار أصلي ، سوف يكون لنا بعد هذا بعض الكلام نقوله حول الحوار في الخيال ، وحول الحوار المبني أو المعاد بناءه بوساطة قصدية فريدة (المؤلف) ، وهو ما يبدو إلى حدّ ما ، إنّه حال الحوار الأفلاطوني .

ولا ندري إن كان جدير بنا نصحه ببناء بعض الفرضيات التوقعية .

وبعد إحداث التّغيرات الضرورية ، فإنّ نفس الشروط تنطبق على الشخص ، الذي يكتفي بتأويل حوار دون أن يكون مشاركا فيه : يمكن لمبرّراته أن تكون أقلّ عمقا ، ولكنها ليست أقلّ خضوعا لبناء قصدية شاملة . الاختلاف هو أنّه ينبغي على الشخص أن يبني عدّة مقاصد شاملة بقدر عدد المشاركين في المحادثة . ما الذي يحدث في مقطع من الحوار السقراطي المعاد إنتاجه سلفا؟ لقد دافع جورجياس بتهوّر عن البلاغة اعتقادا أنّها الفنّ الرّفيع مادام يسمح بالتّفوّق على أيّ موضوع وإزاء أيّ متكلّم . إنّ لسقراط في المقطع المعاد إنتاجه أعلى قصدية شاملة معلنة ، والمتمثّلة في توجيه مخاطبه إلى تقبّل عدد من المقدّمات ، التي ينبغي أن تستنبط من خلالها النتيجة ، وهي أنّ المتكلّم لا يرغب أبدا في ارتكاب الظلم . ليس من الضروري القول لقارئنا أنّه بعد هذا وبالطريقة ذاتها ما يؤدي بجورجياس إلى تقبّل العكس ، وبالتالي سيؤدي به إلى التّناقض ، وذلك قبل أن نستنتج فيما بعد أنّ البلاغة لا تملك المزايا ، التي يمنحها لها السفسطائيون ودفع القارئ إلى البحث عن الحقيقة .

من بين خصوصيات الحوارات السقراطية ، نجد بناؤها الصارم ، الذي يجعل من كلّ تبادل يسمح لسقراط التقدّم بخطوة نحو النتيجة ، التي يرغب الدّفاع عنها . وهذا صحيح حتّى عندما يبدو أنّ سقراط يقوم بالتنازل أو عندما يكون في مشكلة . وبتعبير آخر ، إنّها لعبة ولسقراط الحظوظ في النّجاح . في هذا الاعتبار ، يمكننا القول أنّ القصدية الشاملة للمقطع الحواري المعاد إنتاجه سابقا ، هي أن تجعل سقراط يعترف أن السفسطائي لا يمكنه الرغبة في اقتراف الظلم ، ولكن هذه القصدية الشاملة ليست إلاّ جزء بسيطا من قصدية شاملة أوسع ، حيث يتمثّل هدف سقراط في حمل جورجياس على التناقض ، قصدية لا تشكّل إلا جزء بسيطا من قصدية شاملة أوسع ، حيث يتمثّل هدف سقراط في تبيان أنّ البلاغة ليست نشاطا مرغوبا فيه .

إن القصدية الشاملة لجورجياس مشار إليها في الفقرات السابقة ، وهو

المقطع ، الذي يقول فيه أنّ البلاغة هي الفنّ الرّفيع ، وهو الرأي الذي يحاول الدّفاع عنه في بقية الحوار ، بما في ذلك مقطعنا . إنّها لا قدرة لجورجياس في بناء قصدية شاملة مفصّلة ما فيه الكفاية لسقراط ، وتبني فرضيات توقعية تؤدي به إلى الفشل . من البديهي ، أن يكون النّزاع غير عادل في حدود ما يكون سقراط وجورجياس إلا أشخاص من الحوار الأفلاطوني ، فثمّة مغالطة : سقراط هو المتفوّق ، ولم يكن لجورجياس أيّ حظّ للنّجاح . هنا ، وبالتأكيد القصدية الشاملة هي قصدية أفلاطون ، وهي حال كلّ الحوارات الخيالية سواء ظهرت في الروايات ، أو في القصص الطريفة أو في المسرحيات . فمهما كانت الوضعية ، فإنّ بناء قصدية أو عدّة قصديات شاملة يبقى ضروريا بصفة دائمة .

أخيرا ، نرغب إنهاء هذا الاجتياح العابر في مشاكل المحادثة على نقطة أخيرة : في المحادثة العادية ذات التوقفات الكثيرة ، نجد صعوبة في بناء قصديات شاملة لمجموع تدخلات المتكلّم الخاصّة ، وذلك لا يناقض فرضيتنا : بالعكس ، إنّه يقوي ويبرر فكرة أنّ أحكام الانسجام مرتبطة باحتمالية قصدية شاملة ، مادامت هذه الخطابات مدركة غالبا كخطابات غير منسجمة تقريبا .

١١. القصدية الموضعية والقصد الإخباري، القصدية الشاملة والقصد التواصلي

لقد طوّرنا في الفقرات الأخيرة تصوّرا حول بناء القصدية الشاملة في إطار علم النّفس الجمعي . نرغب الآن العودة إلى نظرية الملائمة وتبيان إلى أيّ حدّ تقترب فرضيتنا من فرضيات سبربر وولسن ، حيث لا تشكّل إلاّ تفسيرا على مستوى الخطاب . ولذلك سوف نبدأ بتبيان العلاقات بين مفاهيم القصدية الموضعية والقصدية الشاملة ، والقصد الموضعي والقصد الشامل ، التي أقحمناها بالقصد الإخباري والقصد التواصلي اللذين جاء بهما كلّ من سبربر وولسن .

إنّ القصدية الموضعية أو الشاملة هي القصدية ، التي يقدّمها المخاطَب للمتكلّم بملفوظ أو بخطاب خاص على أساس هذا الملفوظ أو هذا الخطاب الخاص ، وبإمكاننا فيما بعد سبربر وولسن (١٩٨٩ ، ٤٣) القول أنّ «التواصل

يراهن على ظهور المقاصد والاعتراف بها» . يكون الظهور من جانب المتكلّم ، والاعتراف من جانب المخاطَب . ومثلما يقول سبربر وولسن ، فإنّ للمتكلّم مقصدا تواصليا ومقصدا إخباريا ، وحسبهما (سبربر وولسن ، ١٩٨٩ ، ٩٧) يتمثّل القصد التواصلي للمتكلّم في «أن يبرز المرسل إليه والمخبر تبادليا القصد الإخباري الذي يملكه المخبر ، في حين أنّ القصد الإخباري للمتكلّم وبفضل مثير خاص هو إظهار مجموعة من الفرضيات للمتلقي» (نفسه ، ٩٣) ، نلاحظ أن مصطلح مثير (المستعمل من قبل سبربر وولسن) لا يتضمّن مطابقة الوسيلة ، التي استعملها المتكلّم لإرضاء قصده الإخباري للملفوظ .هذا ما يعدّ غريبا ، إذ أنّ التداولية بالنسبة لسبربر وولسن ينبغي أن تسمح بتأويل أيّ فعل تواصلي ظاهري-استنتاجي ، بما في ذلك المثيرات غير الشفوية .

وبالتّالي ، إذا استطاع القصد التواصلي والقصد الإخباري التعبير عنهما بوساطة ملفوظ ، فيمكن ذلك أيضا بوسائل أخرى ، بما في ذلك طبعا سلسلة الملفوظات غير الاعتباطية والخطابات . وفي هذا الاعتبار ، جاءت التّفرقة التي يقوم بها سبربر وولسن بين القصد التواصلي والقصد الإخباري متجاوزة تفرقتنا بين الموضعية والشاملة . ذلك يعني أنّ القصد التواصلي والقصد الإخباري خاص بالمتكلّم ، أو بشكل عام بمنتج المثيرات ، حيث يتوقّف ظهور المقاصد ، إلاّ أنّه تتطابق القصديات الموضعية والشاملة ، وكذلك المقاصد الموضعية والشاملة مع اعتراف المخاطَب بمقاصد المتكلّم . لا يمكن أن نُقارب تفرقتنا المزدوجة بتفرقة سبربر وولسن البسيطة ، ولكن نرغب هنا اقتراح أن تتطابق القصديات الموضعية والشاملة مع القصد التواصلي للمتكلّم ، في حين تتطابق المقاصد الموضعية والشاملة مع القصد الإخباري للمتكلّم .

وبذلك ، يمكننا القول أن اعتراف المخاطَب بمقاصد المتكلّم يتطابق حقيقة مع بناء القصدية الموضعية أو القصدية الشاملة . وبالتّقريب ، إنّ التلاؤم الكبير بين القصدية الموضعية و/أو القصدية الشاملة ، الذي يغيره المخاطَب للمتكلّم والقصد التواصلي للمتكلّم من جهة ، وبالتقريب التلاؤم بين القصد الموضعي و/أو

القصد الإخباري للمتكلّم من جهة أخرى يرتبط بنجاح التواصل . وبالتالي ، فإنّ القصدية الموضعية هي إعادة البناء ، التي يمكن أن تكون متلائمة أو غير متلائمة وهو ما يفعله المخاطَب بالقصد التواصلي للمتكلّم من أجل ملفوظ ، في حين أنّ القصدية الشاملة هي البناء الذي يفعله المخاطَب بالقصد التواصلي للمتكلّم من أجل خطاب . (أو في حالة المحادثة ، من أجل جزء طويل من الخطاب) . وبالطريقة ذاتها ، فإنّ القصد الموضعي هو إعادة البناء ، التي يفعلها المخاطَب بالقصد الإخباري للمتكلّم من أجل ملفوظ ، في حين أنّ القصد الشامل هو إعادة البناء التي يفعلها المخاطَب بالقصد الإخباري للمتكلّم من أجل خطاب .

يمكن أن نُعارض ، من حيث أنّه يكفي لتأويل الخطاب أن نبني القصد الموضعي أو الشّامل ، وأنّه لسنا بحاجة إلى مفاهيم القصدية الموضعية والشاملة ، وبالتالي يبدو لنا أنّه إذا تبيننا الإطار النّظري لاستراتيجية المؤول (التي يتقاسمها سبربر وولسن) ، فإنّ التّفرقة بين القصدية والقصد ضرورية ولا يمكن تفاديها : بالفعل ، من جانب تسمح بالحفاظ على التّناظر بين القصد التواصلي والقصد الإخباري ، ومن جانب آخر ، ومن اللحظة ، التي تفترض أن لشخص قصدا معيّنا ، فإنّنا نقدّم بموجب الفعل ذاته قصدية محدّدة أو خاصّة تتطابق مع هذا القصد دون إمكانية اختزاله . وبفظاظة ، يمكن أن نعتبر قصدا موضعيا أو شاملا معيّنا على أنّه محتوى للقصدية الموضعية أو الشاملة المطابقة . في هذا الاعتبار ، ومقارنة بالقصد ، تنتمي القصدية من وجهة نظر منطقية إلى نظام أعلى .

نرغب في النّهاية وكنتيجة العودة إلى التعريف الذي قدّمناه للخطاب سلفا

(١) تعريف الخطاب

الخطاب سلسلة غير اعتباطية من الملفوظات

العبارة التي نرغب التعليق عليها هنا ، هي عبارة : غير اعتباطية : في رأينا ، إذا كان الخطاب سلسلة غير اعتباطية من الملفوظات ، ذلك لإنّه فعل (عدّة أفعال في حال المحادثة) تواصلي ظاهري-استنتاجي ، وهو مثل أيّ فعل ظاهري-

استنتاجي يتضمّن قصدين من جانب المتكلّم، قصد تواصلي وقصد إخباري (سبربر وولسن ١٩٨٩). سوف نلاحظ أنّ هذا لا يجعل في شيء أن تكون سلسلة من الملفوظات خطابا خاضعا للقدرة، التي يقدّمها المخاطَب للمتكلّم من حيث القصدية الشاملة أو القصد الموضعي. إنّ الخطاب ليس أكثر من ملفوظ بعيد عن سوء الفهم، ولا توجد حركة دائرية في تحديده، مثلما لا توجد حركة دائرية في الوصف، الذي نفعله بتأويله.

الخاتمة

كخاتمة، نريد الإشارة إلى عدد من المزايا الخاصّة بمقاربتنا: تتفادى مقاربتنا الافتراضات غير المقبولة لتحليل الخطابات من المنظور الابستمولوجي، وهي لا تفترض أيّ شيء من هذا أو ذاك فيما يفرضه تحليل الملفوظات. إنّ جميع الآليات، التي قمنا بوصفها في تأويل الخطابات موجودة على كلّ حال في نظرية تأويل الملفوظات[1]، التي لدينا: لم نصف شيئا يميّز تأويل الخطابات. لقد اكتفينا بمحاولة تبيان كيف يمكن للآليات ذاتها أن تطبّق على تأويل الملفوظات مثلما تُطبّق على تأويل الخطابات.

وحتّى نختم هذا المقال، نودّ الإجابة عن الاعتراض، الذي يمكن أن تواجهه مقاربتنا للانسجام: يمكن أن يقال لنا أنّ الانسجام وبعيدا عن كونه نتاجا ثانويا للقصدية الشاملة، فهو مبدأ موجّه لهذا البناء. إنّ إجابتنا بسيطة: إن قول ذلك لا يقدّم دائما تعريفا لما يدعى بالانسجام، ولا للطريقة التي يشتغل بها. إلى جانب اعتقادنا أننا بيّنا كيف تسمح الآليات المتوقعّة -على كلّ حال- من طرف نظرية الملائمة باعتبار هذا البناء. ومن جانب آخر، يمكن أن يقال لنا

---

(١) وبالتّحديد، هي الآليات التي يصفها سبربر وولسن في تأويل الملفوظات، والتي نُعيرها لنبيّن كيف يمكن تطبيقها على الخطاب، على أساس الطريقة التي تطبّق بها على الملفوظات، وعلى أساس النتائج التي يثيرها على مستوى الملفوظات.

أنّه إذا كانت أحكام الانسجام خاضعة للسهولة ، التي يمكن أن تكون لبناء قصدية شاملة وتعقّدها ، فإنّ الانسجام سوف يعود إلى الملائمة[1] . إنّ هذا غير صحيح ، ولا تتضمّن مقاربتنا بتاتا المعادلة بين الانسجام والملائمة : الأحرى أنّ انسجام الخطاب مقدّر بالنسبة لملائمة الخطاب ، ولكن المبدأ ، الذي يوجّه التأويل لا ينبعث من الانسجام ، ولكن من الملائمة . وفي هذا المنظور ، ودون أن نتمكّن من تحديد الانسجام بمصطلح الملائمة ، فإنّ أحكام الانسجام ، التي يطلقها المتخاطبون خاضعة لملائمة الخطاب . وبالتّالي ، فالانسجام ، ولعدم وجود تعريف محدّد لا يبدو لنا أنّه قابل للدّخول من كوّة : إضافة ، إلى أنّه يعدّ حشوا . أمّا بالنسبة للخطاب ، فليس له خصائص بنيوية عجيبة نقدّمها له ، الخصائص التي ليست ضرورية في كلّ الأحوال .

النتيجة التي توصلنا إليها بسيطة : ينبغي التوقّف عن القيام بتحليل الخطابات .

---

(١) حيث نتذكّر أنّ الملائمة تشتغل حسب متطلّبات المعالجة والآثار النّاتجة عن الملفوظ .

المراجع

Chomsky, N. (1965) : *Aspects of the theory of syntax*, Cambridge, Mass., MIT Press.

Dennett, D.C. (1987)!: *The intentional stance*, Cambridge, Mass., MIT Press.

Version française (1990)!: *La stratégie de l interprète!: le sens commun et l universquotidien*, Paris, Gallimard.

Dennett, D.C. (1995) : *Darwin's dangerous idea!: evolution and the meaning of life*, Londres, Allen Lane/Penguin Books.

Ducrot, O. (1972)!: *Dire et ne pas dire*, Paris, Hermann.

Ducrot, O. (1983)!: *Les mots du discours*, Paris, Minuit.

Martinet, A. (1960)!: *Eléments de linguistique générale*, Paris, Armand Colin.

Moeschler, J. (1989)!: *Modélisation du dialogue*, Paris, Hermès.

Moeschler, J. & Reboul, A. (1984)!: *Dictionnaire encyclopédique de pragmatique*, Paris, Seuil.

Pollock, J-Y. (à paraître)!: *Cognition et langage!: introduction au programme minimaliste de la grammaire générative*, Paris, Presses Universitaires de France.

Reboul, A. (1992)!: *Rhétorique et stylistique de la fiction*, Nancy, Presses Universitaires de Nancy.

Reboul, A. (à paraître)!: "(In)cohérence et anaphore!: mythes et réalités", in *Actes du Colloque International "Relations anaphoriques et (in)cohérence"*, 1-3 décembre 1994, Anvers.

Reboul, A. & Moeschler, J. (1995)!: "Le dialogue n est pas une catégorie naturelle scientifiquement pertinente", in *Cahiers de Linguistique française* 17.

Reboul, A. & Moeschler, J. (en préparation)!: *Contre l'analyse de discours!: la construction d un sens commun*.

Sayers, D.L. (1970)!: *Clouds of witness*, Londres, New English Library.

Searle, J.R. (1995)!: *La redécouverte de l'esprit*, Paris, Gallimard.

Smith, B. & Casati, R. (1993)!: "La physique naïve!: un essai d'ontologie", in *Intellectica* 17/2, 173-197.

Sperber, D. & Wilson, D. (1986)!: *Relevance!: Communication and Cognition*, Oxford, Basil Blackwell.

Version française (1989)!: *La Pertinence!: Communication et Cognition*, Paris, Minuit.

إلى أين يتجه تحليل الخطاب؟
حول مفهوم التكوين الخطابي(*)
جاك غيلهومو(**)

ترجمة

د . ذهبية حمو الحاج

تحصّل تحليل الخطاب ، منذ التسعينات ، على حقّ الوجود في الوسط الجامعي ، في حين تمّ إنشاؤه ، في زمنه التأسيسي ، على هامش العلوم الأخرى . وتنبأ بهذا التحوّل ، فقد جمع ميشال بيشو (Michel pêcheux) حوله ، في بداية الثمانينيات ، في جماعة «تحليل الخطاب وقراءة الأرشيف» ، باحثين من مختلف الآفاق ، إلا أنّهم كانوا حريصين على الحفاظ على نقطة مركزية من التساؤل الرئيسي حول الماديات الخطابية (كوناين Conein وآخرون ، ١٩٨١ ؛ بيشو pêcheux ١٩٩٠) . وهو أيضًا الوقت الذّي يهتمّ فيه السوسيولوجي برنار كوناين Conein والمُؤرّخ اللّساني الذي هو أنا ، بإدارة مجموعة فرعيّة حول «الأرشيف السوسيو-تاريخي» : نحن نعتبر إذن أنّ الوصف الخطابي هو قبل كلّ شيء إعادة اكتشاف فئات يُمكن التعبير عنها انطلاقًا من الملكيات التجريبية

(*) GUILHAUMOU, Jacques. Où va l'analyse de discours? Autour de la notion de formation discursive. Texto! juin 2004 *[en ligne]. Disponible sur: "http://www.revue-texto.net/* Inedits/Guilhaumou_AD.html".

(**) جاك غيلهومو (Jacques GUILHAUMOU) ، C.N.R.S المدرسة العادية العليا لـ ليون (Lion) .

للنصوص المحلّلة . إنّ اختيارًا تأويليًا كهذا ينزع إلى محو مفهوم التكوين الخطابي ، نظرًا لكثرة الآثار الخارجية . يتساءل ميشال بيشو pêcheux ، إذن كيف يُمَوضع فضاء مفهوميًا خاصًا بتحليل الخطاب انطلاقًا من اعتبار تصوير كهذا للمفاهيم المُعلن عنها ، وانعكاسيتها الخاصة بها ؛ يستوجب الأمر إعادة الاشتغال على الفئات المركزيّة لتحليل الخطاب ، وبالخصوص مفهوم التكوين الخطابي ، مع البقاء في خطيّة الأفكار الرئيسيّة لميشال فوكو Michel Foucault في هذا الميدان .

لا يتمثّل هدفنا الحالي في القيام بتقرير حول هذا «التحوّل التأويلي» لتاريخ الخطاب ، خصوصا أنّنا قمنا بذلك في (١٩٩٣) وأنّه يطرح ، من بعد ، المشكلة المعقّدة لربط هذا التاريخ اللّغوي مع تاريخ المفاهيم في مجمله (غيلهومو b٢٠٠٠ Guilhaumou وكيلر ٢٠٠٤) . نحن نأمل فقط في استئناف مسار مؤرخي الخطاب ، هنا أيضًا خارج أيّ مقاربة للمجموعة- موضوع الدراسة لذاته (غيلهومو Guilhaumou 2003) - لكن من وجهة نظر مفهوم التكوين الخطابي .

ومع ذلك ، إنّ من اللائق أولًا أن نحدّد موقفنا في حقل تحليل الخطاب ، باغتنام فرصة الإصدار الحديث لمعجم مصطلحات تحليل الخطاب ومفاهيمه .

١. حوصلة حرجة

حين تتضاعف التّقارير - لكي لا نذكر سوى الحالات الألمانية(كيلر وأخرون Keller et al ، ٢٠٠١-٢٠٠٣)- فإنّ صدور معجمين لتحليل الخطاب ، لمصطلحاته ومفاهيمه بالفرنسيّة شارودو (Charaudeau) ، مانغونو (Maingueneau) ، ٢٠٠٢ ، ديتري (Détrie) ، سيبلوت (Siblot) ، فيرين (Verine) ، (٢٠٠١) يضع بانوراما جدّ كاملة لحقل بحث يقع على حدود عدد من العلوم ، مع كونه مُتأثرا بقوّة تجذّره في اللّسانيات . صحيح أنّ المؤلفين المجتمعين في هذه المناسبة يتواجدون في شبكة ، مع ترابطاتها الداخليّة المُتعدّدة ، بدلًا من تواجدهم (ضمن) حركة مُوحّدة . لكن لا يبقى أقلّ من أنّ

الأهداف «التوحيديّة» ، التّي قدّمها الناشرون تستحّق أن تؤخذ بجدّية ، خصوصًا أنّهم حقّقوا ، بمُساعدة العديد من المؤلّفين ، عملاً ضخماً وذا فائدة كبيرة لمجموعة الباحثين . نحن من بين هؤلاء المُؤلّفين (a۲۰۰۲) ، على أساس العلاقة تاريخ-خطاب في معجم تحليل الخطاب ، وعلى هذا الأساس ، نحن إذن جزء مكمّل لهذه الشراكة . لهذا ، بتحلّينا بالحذر مع الروح العام لهذه الشراكة ، نسمح لأنفسنا بتقديم حوصلة خطيرة ، حتّى وإن استدعى الأمر العودة إلى مشكلة خصوصية تحليل الخطاب .

نحن إذن نُرشّح أنفسنا في المرتبة الأولى لفحص الحوصلة الحالية حول تحليل الخطاب ، التي اقترحها هذان المعجمان ، مع منح امتياز لمقارنتهما ، على أساس تكاملهما ، أي حدودهما .

إنّ تحقيق معجم لتحليل الخطاب بالنسبة لباتريك شارودو (P. Charaudeau) وخاصة دومينيك مينقونو (D. Mainguenau) ، يُؤشّر بقوّة إلى ظهور علم كان سيضع نوعًا ما جانبًا بُعدَه النقدي الرئيسي بتوسّعه «إلى مجموع النتاجات المنطوقة» . علمٌ كان إذن «سيُطوّر جهازًا مفهوميًا مُحدّداً ، ويجعل تياراته المتعدّدة تتحاور أكثر فأكثر ، ويحدّد طُرُقًا مختلفة» (مدخل إلى تحليل الخطاب) . ينضاف إلى الحوار القائم هكذا بين مختلف تيارات تحليل الخطاب- ثروة هذا الصدور- إذن حثّ كلّ مؤلّف على تحديد منظور تحليل الخطاب ، بشكل جيّد في إسهاماتهم بالنسبة لوجهة النظر اللّسانية ، وفلسفة اللّغة ، والتحليل النّصي . . .الخ .

وبعيدًا عن هذا الحوار المثمر ، فإنّ مسؤولي هذا المعجم يريدون فرض فكرة أنّ استقرار تحليل الخطاب في كنف العلوم النّاشئة يستلزم وضع قيمته النقدية الرئيسية على الهامش ، باعتبارها موضوعًا للتساؤل والاستكشاف . على عكس ذلك ، نحن نعتبر أنّ أبدية حقل تحليل الخطاب تمّر بشكل مستمر من تساؤل تاريخي وإبستيمولوجي . لهذا السبب نعود باستمرار إلى الحركة التدشينية لتحليل الخطاب ، وتسجيله في مادية اللّغة ، شرط أن يُوضّح الأوجه المختلفة

لهـذه المادية ، على مـر تاريخ تحليل الخطاب حـتّى إن كـان ذلك في شكل اعتباطي .

بالتأكيد على عدم ظهور تحليل الخطاب ، على الأقّل في فرنسا ، على أساس عمل تأسيسي ، فإنّ مؤلّفي هذا المعجم يُشوّهون بشكل إرادي هذه الحقيقة التدشينية ، تاركين لمختلف المؤلّفين عناية العودة إليه أو عدم العودة بحسب حساسيتهم إزاء المشكلة . إنّ الخيارات الإبستيمولوجية لناشري المصطلحات والمفاهيم الخاصّة بتحليل الخطاب (٢٠٠١) ، معجم التوجيه الاستعمالي المسجّل في منظور نتاج المعنى ، هذه الخيارات هي أكثر دقّة في هذا الميدان . إنّها تستجيب بطريقة أفضل لتوقّعنا الإبستيمولوجي . يُركّز المدخل الإبستيمولوجي ، الغائب في المعجم الأوّل ، هنا على ضرورة القيام بذهاب وإياب بين التساؤل الفلسفي والاستكشاف التطبيقي ، وفي الوضعية الحالية يجب أن نتساءل حول إبستيمولوجية المواضيع الخطابية .

لا يتوانى إذن هؤلاء المؤلّفين ، في مدخل معنون بشكل دال «المثالية والمادية في اللّسانيات» ، بصدى فلسفي واضح ، في إرجاعنا إلى الأسس المادية للّغة ، وأوّلًا إلى حالتها المادية ، مع الإشارة إلى أنّ إخفاء هذا الفعل «الواقعي» التدشيني له عواقب عظيمة على الخيارات النظرية في تحليل الخطاب . يُشير المدخل الجدلي ، الموجود في المعجمين أكثر إلى هذا التباين : مفهوم حجاجي فقط ومنطقي لمؤلّف معجم تحليل الخطاب ، يُمثّل ، بالنسبة لمُؤلّف المصطلحات والمفاهيم الخاصّة بتحليل الخطاب ، مفهومًا أساسيًا لفهم تمفصل اللّغة في الواقع .

إنّ دراسة نتاج المعنى انطلاقًا من الاستعلام اللساني لهذه العلامات في الخطاب الحقيقيّ تبدو بشكل انفرادي معنيةً بالأوليّة أو عدمها من وجهة نظر مادية . إذا تحدث أحد ما ، فهذا يعني أن شيئًا ما موجود : اللّغة وجوديًا معنيّة بالواقعي ، بالتأكيد وبطريقة ديناميكية فاعلة . هذا الاعتبار المركزي ينضمّ إلى إلحاحنا ، في خطيّة تاريخ لساني للاستخدامات المفهومية ، على الرابطة

التجريبية بين الحقيقة والخطاب (٢٠٠١) . إنّ تحليلًا للخطاب مؤسّس بطريقة إبستيمولوجية على المظهر المادي للّغة ، يبدو لنا ولمُؤلّفي المصطلحات والمفاهيم الخاصّة بتحليل الخطاب ، وعلى الرّغم من حقل تدخلاته الأكثر ضيقًا ، أفضل قدرة على الإجابة عن التساؤلات المعاصرة حول الاشتغالات الخطابية ، من مواجهة تيارات تحليل الخطاب مع الفئات الخطابية الشاملة المحدّدة في كنف المجال العلمي . لننطلق من العلاقة بين اللّغة والتطبيق العملي ، مصطلح أحيته الفلسفة ، لكن أعيدت صياغته في إطار لغوي . يُهاجم بول سيبلو (Paul Siblot) عن جدارة «التنظيرات التي تُديرها سيرورة التجريد المادي» ، التّي تنزع إلى تضييق حقل تحليل المعنى برفض اعتبار البعد اللّغوي للخِبرات التطبيقية لفهم العالم وتحويله في ماديته . على هذا الأساس ، إن كنا سنتقاسم ، مع جورج-إلياس سرفاتي (Georges-Elias Sarfati : ١٩٩٧ ، ١٠٦) المعاينة ، التي أخذها دومينيك مانقونو D.Mainguenau ، من خلال قراءة لـ ميشال فوكو M. Foucault ، وأدخل عددًا من المفاهيم في ميدان تحليل الخطاب» ، فإنّ من المستحيل أن نقبل قوله : «مدخل التركيب المفهومي يفتح للعلم آفاقًا مهمّة للتطوّر ، مع منحها قاعدة صلبة» .

قد نتساءل ، في الواقع ، عما إذا كانت الرغبة في علمنة تحليل الخطاب لا تصدر هنا من مباعدة ما مُعَمّمة قُبالَ الأدوات التجريبية ومواردها الخاصة ، من خلال ميتا-تصنيف لهذا الغرض وهي تخلط في الوقت نفسه المفاهيم اللّسانية وتحدّ من فهم تاريخية النصوص . وإضافة إلى التصنيف خارج المفاهيم التجريبيّة المجمّعة في مُدوّنة ، أي بعيدًا عن لسانيّات المدوّنة هابرت (Habert) ، نازارينكو (Nazarenko) ، سالم (Salem ، ١٩٩٧) ، فهي تنزع إلى تضييق الفضاء المفهومي لتحليل الخطاب . هكذا يحدث اختزال البعد النقدي للمفاهيم انطلاقًا من تجنّب تقديم البرنامج الإبستيمولوجي لتحليل الخطاب من خلال الرّبط بين الحقيقة والخطاب ، أي الرّبط الاجتماعي بين المعرفة والمنفعة . ألا يُذكّرنا هابرماس (Habermas) (١٩٧٦) أنّ النفع التأويلي للمعرفة في العلوم الإنسانية

يمنعنا من اختزال عنصر معرفة من مضمون معرفي وتاريخي في آن واحد ، وأنّ كلّ ميدان معرفة على هذا الأساس يستجيب لمنفعة خاصة؟ من وجهة النظر هذه ، فإنّ تحليل الخطاب لا يُمكن أن يقتصد المقاربة الاجتماعية النقدية ، المُؤسسة على الطاقة التفكيريّة للممثلين التاريخيين والموجودة في الملفوظات المُؤكّدة ، دون المخاطرة بإهمال الشروط اللّغوية لاحتمال بروز أحداث اجتماعية- تاريخية .

المثال المُتحدّث عنه هو ذلك المثال الخاص بمدخل التحيين المتواجد في المعجمين . بالنسبة لـدومينيك مانقونو D. Mainguenau ، فإنّ هذا المفهوم صالح لتعيين «تحوّل النظام اللّساني إلى ملفوظ منفرد ، في كلّ بداية خطاب» . ويضيف بطريقة دالة : «لكن قيمته تبقى غير ثابتة» . في الواقع إنّ عدم الاستقرار لفئة التحيين هو ، بالنسبة له ، مفهوم نفعي محدود في اجتهاده لإنشاء مجموعة فئات ثابتة لمحلل الخطاب . بعد أن تمّ وضع هذا المفهوم من الوجهة الاستعمالية ، فإنّ له «عيب التواجد في قلب المواضيع الأكثر جدليّة للتفكير المعاصر حول اللّغة»!!! ، وعلى العكس ، فإنّ مُؤلّفي المصطلحات والمفاهيم الخاصّة بتحليل الخطاب يُعيّنون كلّ منفعة لمفهوم التحيين المحدّد بالشيء الذي يسمح بـ«المرور من إمكانيات اللّغة إلى حقيقة الخطاب» ، مُسجّلين بالتالي تحليل الخطاب في منظور ديناميكي يطرح باستمرار سؤال الاستمرارية/عدم الاستمرارية بين اللّغة والخطاب .

وبذلك يجب الاعتراف أنّ الانشقاق بين نظرة ساكنة ومقاربة ديناميكية لفئات تحليل الخطاب يخترق المعجمين . هكذا ، من مثال المضمون ، المُعرّف ، من الناحية الاستعمالية la praxématique ، كالفعل البسيط لـ«العلاقة بين أمرين لظواهر تخبر الواحدة عن الأخرى» ، في حين أنّ مؤلّف معجم تحليل الخطاب يُركّز على التفكير الحديث حول هذا الموضوع ، والذي ينزع إلى الإشارة إلى الدور الإجرائي للمضمون . والأمر نفسه بالنسبة لمفهوم المُدوّنة ، المهمة جدّا للتمكّن من إدراك ظواهر خطابية على مجال نصّي شاسع ، يعتبر من جهة

حركة تقنية بسيطة لمحلّل الخطاب أثناء جمع الملفوظات المُقرّرة ، ومن جهة أخرى يمكن للمفهوم حسب مؤلف معجم تحليل الخطاب ، أن يجعل من نفسه إشكاليّة بطريقة يقتدر بفضلها من أن يُسدّد حتى إدراك الخطابيّة . إنّها ، بشكل خاص ، حالة مُدوّنات الأرشيف التّي تتعلّق بفعل قراءةٍ يفتح آفاقًا جديدة على ديناميكية الأجناس وبداية الخطاب للممثلين العاديين ، بعيدًا عن التّركيز الذي كان في البداية على الخطابات المُعترف بها عن قوّة .

وليس أقلّ من ذلك أنّ الفئات المُطالب بها كمحاور تحليل الخطاب في هذا المعجم تمثّل عادة الفئات ، التي اعتُبِرت أكثر ثباتًا والمعنية بأقلّ نقاش بين اللّسانيين . سنكون إذن في مواجهة علم مسالم . قد يبدو هذا الخيار في بعض الحالات إشكاليًا ، سواء أكان مرتبطًا بالعادة اللّسانية ، أو بالنقاشات الحالية . لهذا لماذا نتعلّق فقط من جهة بمفهوم الحقل الخطابي ، فئة ملائمة لتحليل الخطاب ، في حين أنّ الأمر في الجهة الأخرى يتعلّق حقًا بطريقة أكثر كلاسيكية للحقل ، حقل معجمي ، حقل دلالي ، حقل مفهومي ، مفاهيم استخدمها محلّل الخطاب بطريقة جارية في تصوّراته النصّية؟ يُمكن أيضًا أن نُلاحظ أنّ مدخل 'تعريف' ، في معجم تحليل الخطاب ، لا يُشير إلى مؤتمر ١٩٨٨ (شوراند Chaurand، ١٩٩٠) ، هذا المُؤتمر الذي يسجّل نفسه في أفق لساني . لكن هنا أيضًا ، وبموجب تنوّع المؤلّفين ، فإنّ ملاحظتنا النقدية لا تحمل أيّ حكم معمّم . على سبيل المثال ، يتساءل المدخل المرجعي آنيًا حول المكانة التي يحتلّها هذا المفهوم في النقاش الفلسفي والدلالي ، مُستجوبًا إياه في الوقت نفسه عن إحالته على الحقيقة ، وكذا حول طريقته في تعيين خصوصية العلامة اللّسانية . على العموم ، فإنّ العلاقة مع النقاشات الحالية في علم المفردات وعلم الدلالة في كنف اللّسانيات هي علاقة مدروسة بطريقة جيّدة نسبيًا ، ما يظهر أقلّ صحّة بكثير بالنسبة للميادين الأخرى لعلوم اللّغة ، خصوصًا تركيب الجملة على الرّغم من كونه حاضراً بقوّة في الأعمال الأولى لتحليل الخطاب .

الأمر أنّ موقف دومينيك مانقونو D. Mainguenau ، في الحقيقة ، ليس

نفس موقف كلّ مؤلّفي معجم تحليل الخطاب ما داموا لا يزالون حريصين ، بالنسبة للبعض منهم ، على الحفاظ على علاقة الخطابية بمادية اللّغة كـ«علاقة مادية تتحقّق فيها آثار ذات معنى» ، هي تكرار لعبارةٍ ميشال بيشو M. Pecheux . إنّ ثراء معجم تحليل الخطاب بتجاوز التصنيف يبحث عن قيم ثابتة في تحليل الخطاب ، ويصدر من التنوّع الكبير للحقول التّي تمّ التطرّق إليها . يمكن التّذكير خصوصًا بحقل التواصل اللّغوي ، الذي حدّده باتريك شارودو P. Charaudeau . إنّ التّطوّر ، وبالتالي هذا المدخل ، في الحقل البحثي لتحليل الخطاب ، تمّ إنجازه على أساس الثراء التدريجي في علاقة بالتداولية ، وإثنوغرافيا التواصل ، والإيثنومنهجيّة ، واللسانيات الاجتماعية وعلم النفسي الاجتماعي اللغوي ، إلى حدّ تقديم مجموعة آفاق أكثر غنى بكثير من آفاق علماء التواصل في السبعينيات ، وأكثر توجّهًا نحو النصيحة في التواصل للرجال السياسيين . إنّ نقطة الوصول- الإلحاح على البناء المشترك للمعنى في كلّ فعل للّغة- تسمح بإدراك مختلف الأنماط المعاصرة لعقد التواصل ، أكثر قُربًا من الملفوظات المُقرّرة وتمفصلاتها خارج اللّغوية .

بالتالي ، ألا يجب أن نتقدّم في تفكيرنا ، وأن نسترجع تعبير سيلفان أورو (Silvain Auroux) (١٩٩٨) «الصادم باعتبار أنّ دائرة المفهوم هي دائرة المعنى»؟ كلّ موضوع تحليل الخطاب لا يتأتى إذن بالضرورة من تموضع بالمعنى الذّي يُرجع فيه دومينيك مانقونو D. Mainguenau فئات الحقل ، والعالم ، والفضاء الخطابي إلى هويّة ملفوظية تتكوّن في كنفه بطريقة ثابتة . هذه المقاربة قليلة الديناميكية (ويمكننا قول إنها قليلة التاريخية) لتحليل الخطاب تُخاطر باقتصاد علاقة الملفوظ بمواده ، ومواضيعه ومفاهيمه : هذا الفضاء المُترابط ، حسب ميشال فوكو M. Foucault (يُنظر مدخل التحليل الأثري) ، الذي يُوضّح وضعيات جوهريّة جدّ متباينة في كنف الملفوظ ذاته ، ويتعرض بالتالي لـ«نقل توجّه الذّات المتلفّظة» لتكرار عبارة لـميشال بيشو M. Pecheux في مقدمة المُؤتمر «الماديات الخطابية» (كوناين ، بيشو وآخرون ، ١٩٨١ ، ١٧) . كلّ شيء يحدث حاليّا كما لو أنّ

الخطاب المُعمّم لمعجم تحليل الخطاب هذا كان لا بدّ أن يوفّر عدداً مُعيّناً من الفئات الخطابية ، بهدف الاستجابة لحاجة هذا المصطلح أو ذاك عند مُحلّل الخطاب مع وصف تطبيقات خطابية . ألا يليق الاهتمام ، في تحليل الخطاب ، بالشروط اللّغوية لنتاج المفاهيم ، التي تسمح بإدراك مجموع حقيقةٍ اجتماعية بوساطة اللّغة فعلًا ماديًا ، سياقًا وموردًا؟

تحت ظاهره المقيّد ، يسمح لنا معجم مصطلحات ومفاهيم تحليل الخطاب بإدراك ، وبشكل أفضل بالتأكيد من المنظور الاستعمالي ، العلاقات التي تنشأ بين المفاهيم في خضمّ تحليل خطاب ، والتي تبقى دون أدنى شكّ قريبة من الأهداف والموضوعات التجريبية . يُركّز المعجم ، من هنا أيضًا ، على البعد النّقدي لتحليل الخطاب ، بالاستناد على الأسئلة الاجتماعية والإيديولوجية ، في الوقت ذاته ، الذي يعرف فيه مثل هذا التّحليل النقدي للخطاب ، تطورات مهمّة في العالم الناطق بالإنجليزيّة فيركلوث (Fairclough ، ٢٠٠٣) والجرماني (جاغر Jager ، ١٩٩٩) . وبالتالي فهو يتباين مع مشروع مؤلّفي معجم تحليل الخطاب ، الذي ينزع إلى استغلال الخطاب الواصف للمُتدخّلين ، باقتراح إيديولوجية علميّة بشكل صارم ، حتى إن بقي مؤلّفوه مُتمسّكين في تدخّلهم بتاريخ اجتماعي للخطاب .

ومن مقاربة نقدية كهذه للسعي الجماعيّ المُقدّم في شكل معجم ، نقترح الآن استرجاع الحجّة الرئيسية- العلاقة الضرورية بمادية اللّغة- في وصف سعينا في تحليل الخطاب . لكننا نقوم بذلك انطلاقًا من مفهوم لتحليل الخطاب ، والتّكوين الخطابي ، الذّي كتب عنه بول سيبلوت (Paul Siblot) بنباهة ، في معجمه ، أنّه يبقى حقل بحث وتساؤلات ، أكثر منه «مفهومًا موضوعًا بشكل نظري» . لهذا السبب اقترح حديثًا أن يضعه في نقاش بين محلّلي الخطاب : إنّه بفضل اشتراكنا في هذا النقاش ، الذي جرى في جامعة مونبلييه (Montpellier) في ٢٦ و ٢٧ أبريل ٢٠٠٢ حول موضوع «من تحليل الخطاب إلى تحليل الإيديولوجيا : التكوينات الخطابية» ، تمكّننا من إنجاح هذا التفكير .

٢ـ مؤرّخو الخطاب ومفهوم التكوين الخطابي. حكاية قلب القيّم المحايثة.

نحن نُمارس، منذ أعمالنا الأولى بالتعاون مع دنيز مالديدي (Denise Maldidier)، التمرين الذهني، الذّي يكمن في العودة إلى المسار التاريخي لتحليل الخطاب، مع الانطلاق من السعي التدشيني للسبعينيات. هذه العودة التفكيريّة خاطبت بشكل خاص في الأيام الأخيرة زُملائنا الأجانب، وبوضوح المُهتمّين، وإن كان على الأقّل من منظور مُقارن مع تيارات أخرى للتاريخ اللّغوي الخاص بالمفاهيم (غيلهومو Guilhaumou، ٢٠٠٠b).

سنهتمّ، في هذه الحالة، بمختلف الفواصل التفكيريّة- في كنف مسار مؤرّخي الخطاب- أين يواجه مفهوم التكوين الخطابي صيرورة مُتباينة. إنّ هذا المفهوم الحاضر بقوّة في الأبحاث الأولى لتحليل الخطاب، يختفي أيضًا بسرعة كبيرة في بداية الثمانينيات، وفي حالتنا، يختفي بشكل نهائي أثناء العودة التفكيريّة، التّي قُمنا بها عام١٩٨٣ في مؤتمر «التاريخ واللسانيات» حول أعمالنا الأولى (١٩٨٤a). بالتالي فإنّ التداخلات في مؤتمر مونبلييه Montpellier المُشار إليها أعلاه تُعيد طرح إشكال ملائمة أو عدم ملائمة استخدام ديناميكي لمفهوم التكوين الخطابي. سنعود إلى هذا في الجزء الأخير وبطريقتنا الخاصّة، أي بتركيز انتباهنا على الجبهات الحديثة بصدد البناء المُشترك للخطاب، والتّي نشارك فيها على أساس تحليل مُدوّنة حكايات الحياة للذين يقال عنهم: مستبعدون من المجتمع المُعاصر.

إنّ هدفنا الحالي يكمن في التساؤل أولاً عن هذا «العزل» للمفهوم الأساسي للسعي التمهيدي لتحليل الخطاب على أساس أصول أرشيف تحليل الخطاب في حدّ ذاته. في الواقع، نحن نمتلك نوعين من المصادر:

* بشكل خاص، ومن جهة النصوص الأساسيّة للمُؤرّخين، التّي نشرتها ريجين روبن (Régine Robin) ونحن أيضًا، حول الخطاب كموضوع للتاريخ، حيث توضّحت في بداية السبعينيات علاقة دراساتنا الأولى الملموسة بالتحديد القواعدي للتكوين الخطابي هاروش Haroche، هنري Henri، بيشو

Pêcheux ، (١٩٧١) في تقاطعها مع الماركسيّة . سنُضيف نصًا غير منشور كتبناه عند عودتنا من مؤتمر مكسيكو Mexico في ١٩٧٧ والذي من المُفترض أن يظهر لاحقا في البرتغال في مؤلَّفٍ جماعي حول ميشال بيشو M. Pecheux .

* من جهة أخرى ، تقلّبات تمّت إدارتها في نهاية السبعينيات بالاشتراك مع دنيز مالديدي Denise Maldidier ، في إطار تاريخ لتحليل الخطاب .

إنّ الأمر لا يتعلّق باقتراح رواية التّحوّل ، التّي ، بحبكها للمصدر الأساسي والمصدر النّقدي ، تسير بنا من حقائق ماركسية أولى إلى حقائق أكثر حداثة ، كلّها مستصاغة فيما بعد الحداثة ، مسار سيُبرّر عدم-عمليّة مفهوم-تصوّر التكوين الخطابي في بداية الثمانينيات في نصوص مؤرّخي الخطاب . ولا يتعلّق الأمر كذلك بمعرفة ما إذا كان مفهوم التكوين الخطابي متعايشًا مع تحليل الخطاب ، أي إن كان ينتمي إلى التصنيفات الأساسيّة لهذا العلم الجديد . إنّما بالأحرى يتعلّق الأمر ، في المنظور النّقدي ، بأن نتساءل ما هي المصادر التفسيريّة ، التّي يُسيّرها هذا المفهوم بشكل رئيسي ، وأن نتساءل حول صيرورتها بعيدًا عن استخدامها الواضح .

نحن نهتمّ إذن بما يُمكن أن نُطلق عليه ، مع جوليان بورق (Julian Bourg) (٢٠٠٢) ، بقلب القيّم المحايثة ، في الوقت الذي يُميّز فيه روح ماي ٦٨ . قلب القيّم في المعنى ، الذي تُتناقل فيه قيم مُرتبطة بمنفعة تحرّرية حتى داخل انتقال مفهوم التكوين الخطابي نحو إنهاكه المفهومي . ومحايثة بقدر ما تبقى الحركة المُؤسسة لتحليل الخطاب ، وتسجيلها في مادية اللّغة ، حسبنا ، حاضرة في كلّ مكان إلى يومنا هذا . إنّ التحريك الرئيسي لمصادر الماركسيّة حول مفهوم-تصوّر التكوين الخطابي تخضع إذن لتحوّلات في شيء ما غير متمثّل في النّفي ، انطلاقًا من الحفاظ على الماديّة والإمكانيّة التحرّرية لموضوع وسيط في غاية الجودة وهو الخطاب .

لهذا ، فإنّ وصف تحويل القيم يستوجب استعمال روايةٍ بهدف صيانة مسار

السرد للمفهوم باستمرار على خط أفق الذّات المتحدّثة . بدا لنا إذن أنّه من الممكن بناء رواية في كنف الدائرة الضيّقة لمُؤرّخي الخطاب ، في حدود أنّ عنصر «التكوين الخطابي» يتنقّل بطريقة محدودة ، بالتالي يُمكن إدراكه بسهولة . ومثل هذا المسار يصل ، بإنهاك مفهوم التكوين الخطابي ، إلى صياغة طبعة أولى لأفق الذّات المتحدّثة في تحليل الخطاب ، عبارة «نقل توجّه الذّات المتلفّظة» الذّي ذكره ميشال بيشو (Conein, Pecheux et al.1981,17) .

٢-١- التكوين الخطابي في مواجهة تعقيد التنسيقات الخطابية (في السبعينيات)

استفاد ميشال فوكو M. Foucault ، خلال السنوات ١٩٦٧-١٩٦٨ حيث كان يُدرّس في تونس ، من حقّ التصرّف ، الذي سمح له به غياب الالتماسات الفرنسيّة للقيام بـ (عمل في المنهجية يتعلّق بأشكال وجود اللّغة في ثقافة كثقافتنا) (١٩٩٤ ، I ، ٥٨٤) . أنشأ إذن مجموعة مفهومية فيما يخصّ الخطاب ، وسيبقيه في سريّة حتى ماي ١٩٦٨ ، على الرّغم من كونه قد حاز على تأكيد قدرته على إصدار كتاب ، نُشر في ١٩٦٩ تحت عنوان أركيولوجيا المعرفة . وفي وسط تصوير مفهوميّ كهذا يتواجد مفهوم التكوين الخطابي ، أو على الأقّل ، في صياغته الأولى ، عبارة «تكوين خطابي مُفرّد» (٦٧٥ نفسه) . يتعلّق الأمر إذن بالتركيز على أهمّية «حقل الأحداث الخطابية»(نفسه ، ٧٠١) ، وعلاقته المُتبادلة لتفريد التكوينات الخطابيّة ، بعلاقة مع الأرشيف المحدّد باعتباره «لعبة القواعد ، التي تُحدّد في ثقافة ما ظهور الملفوظات واختفاءها ، تخلّفها ومحوها ، وُجودها المُفارِق للأحداث والأشياء» (نفسه ، ٧٠٨) . بالتالي ، فإنّ معيار تكوين الخطاب هو واحد من بين المعايير الثلاثة ، مع معايير العتبة والترابط ، التّي احتفظ بها فوكو ليعرض «عالم خطاباتنا» . هو دون شكّ الأكثر «اتحادا» إنّه «ما يسمح بجعل الخطاب فرديًا» تحت قواعد سواء أكان من جانب الأحداث أو المواضيع والمفاهيم . إنّه لمن اللائق إذن ، على أساس عمل أرشيف- ميشال فوكو قارئ مُداوم على المكتبة الوطنية بتونس كما في باريس- من

الملائم إذن أن «نكشف ، داخل تكوين خطابي معيّن ، عن التغيرات التي تمسّ المواضيع ، والعمليات ، والمفاهيم ، والخيارات النظريّة» (نفسه ، ٦٧٨) . بالتالي ينفتح ، للتحليل الخطابي ، «ميدان شاسع [...] يُكوّنه مجموع كلّ الملفوظات الفعلية في نشرها للأحداث وفي الإنية الخاصّة بكلّ واحد» (نفسه ، ٧٠٥) . «مشروع وصفٍ صافٍ لأفعال الخطاب» بالتالي يأخذ مفهوم التّجسّد .

يُدافع ميشال فوكو M. Foucault ، في الوقت نفسه ، عن الخصوبة المنهجية للماركسية على خلاف مُغتابيه ومُعمّميه : إنّه يرى فيها (الخصوبة المنهجية) المُحاولة الأكثر نجاحا لـ«فهم مجموع العلاقات التي كوّنت تاريخنا في تعقيده» (نفسه ،٥٨٣) . إنّ هذا التّقارب الخاص مع ماركس Marx ، أي في نظرة هي في آن واحد قريبة وناقدة لـألتوسر (Althusser) (نفسه ، ٥٨٧) ، كان عليه أن يجلب انتباه جماعة من الباحثين ، انتباه قريب بالتأكيد من التفكير والنقد الجديد برجوعه المُستمر للماركسية ، لكن الاهتمام ينصبّ قبل كلّ شيء على التكوين التاريخي للعبة الانزياح ، والفجوات والمسافات في الخطابات . ميشال بيشو M. Pecheux هو الأكثر فاعلية : إنّه يشرف على مجيء الطبعة الأولى للمقولة - «التكوينات الإيديولوجية تحتوي بالضرورة كأيّة واحدة من مكوّناتها ، على تكوين خطابي أو أكثر مرتبطة فيما بينها تُحدّد ما يُمكن وما يجب أن يُقال . . .» (هاروش/هينري/بيشو ، ١٩٧١ ، ١٠٢)- من كلّ مرجع تمهيدي إلى مفهوم التكوين الخطابي في حقل تحليل الخطاب .

كلّ شيء يبدأ إذن ، من جهة المُؤرّخين ، مع التاريخ و اللّسانيات[1] لـريجين روبين (Regine Robin) ، مُؤلَّف منشور في ١٩٧٣ . لقد تمّ التطرّق إلى البعد المفهومي لتاريخ الخطاب في الفصل الرابع تحت عنوان «التكوين الاجتماعي ،

---

(١) باحث شاب ، شاركت في الأعمال التمهيديّة لهذا المُؤلّف ، الذّي عقد عند أرمون كولين (Armand Colin) وتمّ استرجاعه في الأصل من ريجين روبن Régine Robin وأنا شخصيًا . لكن كان علّي أن أتنازل عن هذه الشراكة لأتفرّغ بالكامل لمُسابقة الأستاذية .

تطبيق خطابي وإيديولوجي» . من المُؤكّد أنّ مفهوم تصوّر التكوين الخطابي غائب من هذا العنوان . لكن هذا من أجل إظهار الاقتراض المباشر ، بعد التذكير بالدّور الرئيسي لفوكو M. Foucault ، من تعريف ميشال بيشو M. Pecheux لمفهوم التكوين الخطابي ، الذي طالما تمّ التعليق عليه (روبين Robin ، ١٩٧٣ ، ١٠٤-١٠٥) ، ولعلاقته المُتعايَشة مع «نظرية الإيديولوجيات» ، مُراجعة ومُنقّحة من لويس ألتوسير(Louis Althusser)(١) .

إنّه الوقت الرئيسي حيث نضع ، ريجين Régine وأنا ، التكوينات الخطابية بجانب التكوينات الإيديولوجية ، بالتأكيد على استقلاليتها الخاصة ، أي في علاقتها مع أنظمة التمثيلات ، وبالتحديد مع شروط إنتاجها في كنف حقيقة اجتماعية طبعتها الإيديولوجيا المهيمنة . تُشير المقاربة النقدية الأولى (غيلهومو Guilhaumou ، مالديدي Denise Maldidier ، ١٩٧٩) لهذا السعي النظري التمهيدي أنّ الفضاء الخطابي كان مصنّفا بهذه الطريقة في الجنس «الإيديولوجي» ، وأنّ مسألة المعنى كانت قد أعيد إرسالها إلى الخارج الإيديولوجي الوحيد .

لطالما قيل أنّ هذه المقاربة قد أنجبت تصوّرا تخيّليا لـ«نظرية الخطاب» ، الذي لم يتواجد ، في الحقيقة ، إلاّ لوقت جدّ قصير ، بما أنّ هذا التّصوّر التخيّلي قد أُلغي بشكل دال ، منذ حقائق باليس les vérités de la palice (1975) ، من ميشال بيشو M. Pecheux نفسه في الملحقات بمساعدة تصحيح تهمّنا فيها الصياغة بالمرتبة الأولى : «إنّه لمن غير المعقول أن نزعم تأسيس 'علم جديد' أو 'نظريّة' جديدة ، حتى إن كانت 'النظريّة المادية للخطاب' . صحيح أنّنا

---

(١) أشار إتيين باليبار (Etienne Balibar) ، في مقدّمة الطبعة الثانيّة لماكس (١٩٩٦) ، كون التعريف الألتوسيري (Althusserienne) للإيديولوجيا لم يختلف في الحقيقة أبدا . لطالما أشار إلى «شكل الوعي واللاوعي ، الاعتراف والإنكار ، الذي يعيش فيه الناس علاقتهم بتقاليد وجودهم بشكل وهمي» (p.x) .

استخدمنا في العديد من المرات هذه الصياغة ، لكننا قُلناه ، إنّه أقلّ لتعيين حدود 'منطقة' علمية جديدة منه من تعيين بعض العناصر المفهومية (قبل كلّ شيء مفهوم التكوين الخطابي) .» (ص . ٢٦٦) .

لنُشر هنا إلى التعيين الواضح لخصيصة مقلّب القيّم لمفهوم تصوّر التكوين الخطابي ، كونه عنصرا مفهوميا غير ثابت مُؤقّتا ، في أفق مُعطى محايث ، ومادية دالة .

نُركّز ريجين روبين (Regine Robin) وأنا شخصيًا ، من جهتنا ، على العلاقة بالظرف ، إذن على المواجهة بين المواقف الخطابية ، المنقولة ، في الواقع ، بطريقة ماركسية ومواقف العمال في حقل الكفاح الاجتماعي والإيديولوجي . تُوضّح ريجين روبين (Regine Robin) بالتالي موقفها في نصّ لـ١٩٧٤ نُشرَ في ١٩٧٦ ، «الخطاب السياسي والوضع» ، الذي نجد فيه صياغة برنامجيّة في مقالها للجدلية ، حيث وقّع عليه بمشاركة ميشال جرينون (Michel Grenon) ، تحت الشكل التالي :

«دراسة التكوينات الخطابية في التكوين الاجتماعي ، وعلاقاتها بالسيطرة ، والمعاهدات ، والخصومة ، وانتشارها الاستراتيجي ، في ظرف مُعيّن ، هي دراسة قيد الإنجاز»(١٩٧٥ ، ٢٩) .

يحدث بالتالي انتقال مُهّم لتعريف التكوين الخطابي في كنف الخطاب كموضوعٍ للتاريخ نحو إشكالية لـلإستراتيجيات الخطابية[1] . وأكثر من هذا ،

---

(١) لقد أعلنت (١٩٧٥- أ) من جهتي عن هذا الانتقال في مقالي «التأليفي» الأوّل المنشور في العدد نفسه حول الجدلية ، تحت عنوان رسالتي الأولى للدورة الدراسيّة الثالثة ، إيديولوجيات ، خطاب وظروف في ١٩٧٣(١٩٧٨) . مع وضع عنوان فرعي بعض الأفكار حول النزعة اليعقوبيّة (Jacobinisme) ، أشرت إذن إلى الموضوعاتيّة . اليعقوبيّة ، التّي لم أتخل عنها منذ ذلك الوقت ، بما في ذلك علاقتها بالماركسية ، كما يُثبته عنوان مقال حديث (٢٠٠٢ب) ، «يعقوبيّة وماركسيّة : اللّيبرالية السياسيّة في نقاش» .

مفهوم-تصوّر التكوين الخطابي يتعقّد في الأعمال الجليّة لمُؤرّخي الخطاب بنقل مفاهيم ناتجة عن وضع واستراتيجية خطابية . بالتالي ، وبسرعة نُدخل دنيز مالديدي Denise Maldidier ، ريجين روبين Regine Robin وأنا شخصيا ، مفهوم التكوين البلاغي ، الذي ينزع إلى جعل مفهوم التكوين الخِطابي مُميّزا لتعيين الاستراتيجيات الخِطابية ، التي تمّ وصفها كآثار للوضع ، وكبيانات الوقت الراهن . إنّي أتكلم أيضا بطريقة فضفاضة عن آثار لحظة الوضع والحدث .

هو إذا ليس صدفة إن كانت صيغ هذا الانتقال بشكل أكثر وضوحا في دراسة ، نُشرت في ١٩٧٦ وأشرف عليها باشتراك كلّ من دنيز مالديدي Denise Maldidier و ريجين روبين Regine Robin ، حول حدث ماي ٦٨ ، شارليتي : Charléty

«بالتالي ، بالوقوف في المستوى الشكلي الصارم ودون أحكام مُسبقة للسيرورات الدلالية في علاقة مع الايديولوجيا والخطاب المشترك ، نحن نرى ، في جهاز الصحافة ، أنّ التكوين البلاغي ، الذي هو استهلالي يتلاعب بآثار الوضع ، الذي يُرجع إلى استراتيجية خِطابية» (١٩٧٦/١٩٩٤ ، ٦٢) .

بالعمل أيضا في جهاز الصحافة ، لكن في وضع ١٧٩٣ ، لم أكن أقوم آنذاك سوى بوصف استراتيجيات خِطابية ، مع الحفاظ ، في الأفق ، على الخطاب البيني اليعقوبي . والحالة الأكثر مثالية هي حالة إستراتيجية وضع قناع خاص بأحداث شعبية للخطاب اليعقوبي للأب دوشسن دي بير Duchesne d Hébert ، بالمُباينة مع إيديولوجية «السياسة المُباشرة» للصُحفيين «المُعيّنين» ، خصوصا جاك رو Jacques Roux في نفس فترة الثورة الفرنسية (غيلهومو Guilhaumou 1975 ب) .

في عودة نقدية ، نكتب إذن دنيز مالديدي Denise Maldidier ، ريجين روبن Regine Robin وأنا شخصيا :

«تُعيّن هذا التثبيت- الخطابات المشتركة- الفضاء الخطابي والإيديولوجي ، الذي تبسط فيه التكوينات الخطابية حسب علاقات الهيمنة ، والتبعية ، والتناقض ،

وكانت تلتقي بتساؤلاتنا الخاصة من خلال الأبحاث الجليّة ، التي عُيّننا فيها . منها وضعيّة مناقضة . كنّا نحاول استخدام كلّ جهاز مفهومي لنظريّة الخطاب . لكنّ كلّ صِنافة كانت تصطدم بتعقيد التنسيقات الخطابيّة» (١٩٨٩ ، ١٠) .

بهذه الطريقة نذكر مقطعا من نصّ غير منشور حول «اللّسانيات وتحليل الخطاب . قراءة أزمة» - حاليا في صدد النّشر- حيث أشكّك في إمكانيّة «عزل ، في الجسم المُعقّد ، خطابات لعناصر بسيطة مثل خطاب بوجوازي/خطاب إقطاعي ، خطاب يعقوبي/خطاب جريئ» . هذا النّص قد كُتب في جانفي ١٩٧٨ بعد مؤتمر مكسيكو Mexico (نوفمبر ١٩٧٧) الذي مهّد ، كما سنراه ، لتحوّل ثاني .

لكن لنختم بمُلخّص ، تحت ريشة دنيز مالديدي Denise Maldidier ، عن التحوّل الأوّل :

«آتيا من التاريخ ، كان جاك غيلهومو Guilhaumou وريجين روبن Regine Robin يُفكّران في العلاقة بين الإيديولوجيا و الخطاب ، لكن عندما واجهتهما ، في عملهما كمُؤرّخين ، الماديّة المُعقّدة للنّصوص ، ركّزا على تشويش التكوينات الخطابية . وتحدّثا عن الاستراتيجيات الخطابية ، للمواجهة ، وللمعاهدات» (بيشو Pêcheux ، ١٩٩٠ ، ٥٥) .

٢-٢- قلب القيَم في منظور مادية النصوص(الثمانينيات).

تُظهر بقيّة روايتنا كيف اقترب قلب القيم ، في بداية الثمانينيات ، من نهايتها ، الإختفاء السريع نسبيّا لمفهوم- تصوّر التكوين الخطابي لفائدة طريقة جديدة لإنشاء تاريخ الخطاب .

يقوم ميشال بيشو M.Pecheux في ميكسيكو Mexico في ١٩٧٧ بعودة إلى فوكو M.Foucault («لنذهب من فوكو إلى سبينوزا») . ينتج عنها نظرة مختلفة للإيديولوجيا ، لم تكن موجودة آنذاك سوى في ظلّ نمط الانقسام . و يُوضّح ميشال بيشو : «الإيديولوجية لا توجد سوى في التناقض ، الذي يُنظّم في ذاته

الوحدة ونضال الأضداد» (١٩٩٠ ، ٢٥٥) . إنّ التحليل التركيبي ، الذي نقترحه من جهتنا (١٩٨٠) ، يوظّف في المعنى نفسه مع أعمال حول الخطابات السياسية المعاصرة ، وفي مركزها ، عمل جون بيير فاي Jean-Pierre Faye ومفاهيم مقبوليته للخطاب وآثر الرواية .

ينتج نقد للاستخدام «المُوحِّد» لمفهوم تصوّر التكوين الخطابي . بالتالي يترك هذا المفهوم حيّزا كبيرا للتجربة الصِّنافيّة ، والنموذجيّة ؛ فهو يعيد نتاج مقاربة شموليّة وخارجة عن التكوين الخطابي المُهيمن ، الذي يتباين كلّيا مع الطريقة التي يصف بها جون بيير فاي Jean-Pierre Faye آليات قابلية الإيديولوجيا النازية (١٩٧٢) . لم يعد من الممكن إذن أن نكتفي بتمييز التكوينات الخطابية على أنّها أنظمة تقديم لا يكون لها معنى سوى في الخطاب المُهيمن .

يتمّ التركيز من الآن فصاعدا على اللّعبة المتناقضة للتكوينات الخطابية ، وعلى العلاقة الداخلية ، المحليّة التّي تحتفظ بها مع خارجها الخاص ، ما يُعادل اعتبارها سواء من المنظور الإقليمي لفائدتها الخاصة أو من منظور ماركسي لصراع الطبقات . كان من الملائم أيضا ، لمُؤرّخ الخطاب ، أن يُركّز الانتباه على التواصل بين الأفعال الخطابية والتطبيقات غير خطابية بطريقة غير تشاكليّة ، وبالطريقة التي يطرح بها المُؤرّخ رينهارت كوسيليك (Reinhart Koselleck) (١٩٧٩) فهم الواقع انطلاقا من شروط التكوين اللّغوية ، دون أن يختلط معه .

دائما وبمتابعة لميشيل بيشو M. Pecheux ، كان يجب أن ننتهي مع إدراك للتكوين الخطابي ككتلة مُتجانسة مكمّلة لإيديولوجية مُهيمنة : هي مأخوذة من الآن فصاعدا على أنّها غير مُطابقة لنفسها ، بالرجوع إلى الفئة المؤيّدة للتناقضات السبينوزية . كان الأمر يتعلّق إذن بطرح سؤال تواجد إيديولوجيا مُهيمَنَة في كنفه ، ما ليس دون تأثير على خيارنا الحالي في إعادة التفكير في مفهوم التكوين الخطابي في إطار بحث حول الاستبعاد[1] . تُعرض أيضا ، في هذا

---

(١) انظر الجزء الثالث .

الظرف الجديد ، حركة العودة إلى العادة الماركسية : تمّ التركيز مع ذلك على تاريخ الجماعات الاجتماعية الثانويّة ، على مثال غرامسكي (Gramsci) في الكراس الأخير من كراريس السجن (Guilhaumou) ١٩٧٩ .

بمُفارقة ظاهرة ، فإنّه في الوقت الذي تجتمع فيه كلّ العناصر لإضعاف الفاعلية الأساسيّة لـمفهوم تصوّر التكوين الخطابي ، فإنّنا نجده حاضرا بقوّة في تعبير جون جاك كورتين(Jean-Jacques Courtine) (١٩٨٠) وجون ماري ماراندين (Jean-Marie Marandin) (١٩٧٩) ، بينما كانا قد أنتجا وصفا للخطاب الشيوعي في رسالتهما على التوالي ، كما لو أنّهما أرادا إنتاج جهد أخير لتحديد ما آل إليه العمل النظري ، الذي تمّ إنجازه حول هذا المفهوم ، قبل إنهاكه . «نحن نعتبر تكوينا خطابيا على أنّه غير مُتجانس مع نفسه» وبهذا يختمان مداخلتهما في المؤتمر حول الماديات الخطابيّة كوناي وآخرون Conein et al 1981 .

وبذلك ، فإنّ مفهوم تصوّر التكوين الخطابي أخذ في نهاية المطاف في عدم التجانس ، لم يعد يُحيل إلى أماكن ملفوظية محيلة إلى خارج إيديولوجي . يُصبح وصف العلاقة في كنفها بين الخطاب الداخلي والخطاب الخارجي ، أي انتقال الذّوات ، والانتقال من حيّز تلفّظي إلى آخر أساسيا . يختفي الخطاب الواصف حول المواقف الملفوظية لفائدة انتباه لما يُطلق عليه بيشو M. Pecheux ، في مُقدّمة مؤتمر 'الماديات الخطابية' ، بـ«النقل النَّزعي للذات المتلفّظة» في كنف مادية النصوص ذاتها(١) .

---

(١) ستُترجَم هذه الصياغة النظرية في دراساتنا التجريبيّة الأولى حول الناطقين بلسان اليعقوبيين بالتباين مع الكلام المُهيمن للممثّلين المقرّرين بداهة ، وكان من المفروض أن يوصلنا إلى منفعة خاصة للكلام الخاص بـــاللا حصّة لهم (١٩٩١ ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٨ أ وب) . إنّه في الواقع في أثناء الثمانينات حيث قُدنا جيّدا تحقيقا واسعا في الأرشيف حول «المبشّرين الوطنيين» بهدف إرجاع المصادر التأويلية لممّثليه المميّزين من اليعقوبيين البارزين ، قبل أن نأتي ، بعد أحداث ١٩٩٥ ، إلى الاهتمام بالناطقين باسم الحركة الاجتماعيّة .

في الحقيقة فإنّ نقد مُؤرّخ الخطاب يحمل أساسا على ثِقل الخطاب الواصف ، الذي ينزع إلى إيقاع الخطابات المُحلّلة في إيديولوجية خارجية . وبالتشكيك في تسيير الخطاب الواصف هذا بدهاء ، وبالتالي جعل الماديّة الخاصة بالنصوص غير قابلة للاقتحام ، فإنّ مفهوم تصوّر التكوين الخطابي لن يكون قطّ أكثر استخداما من قِبل مُؤرّخي الخطاب إلى غاية التساؤل الحالي .[1]

أبعد عن حالات مُؤرّخي الخطاب ، فإنّ la RCP «تحليل الخطاب وقراءة الأرشيف» (١٩٨٢-١٩٨٣) يُسجّل جيّدا اللحظة التي يختفي فيها هذا المفهوم معجميا من حقل تفكير مُحلّلي الخطاب القلقين دوما حول المادية الخطابية . إنّ عملية جديدة القراءة ، قراءة الأرشيف ، بالعودة إلى مفهوم الأرشبف عند فوكو M. foucault ، مع جعله إشكاليّة ، تُثبت عمل أرشيف مُؤرّخي الخطاب .[2] هل يتعلّق الأمر إذن بتفويت المنافع الماركسية على نموذج فوكو؟هو ليس أيّ شيء ، ولا يختفي الاهتمام بالمفهوم الماركسي للتكوين الاجتماعي من أفق مُؤرّخ الخطاب ، إن كان صدى الماركسية لعبارة «التكوين الخطابي» يختفي لفائدة مقاربة سيروراتية للآليات الخطابية ، فإنّ هذا لا يمنع من بقاء البعد التأثيري لدراسة التكوينات الخطابية ، وقيمة هويتها إزاء تقاطع الاجتماعي و الخطاب ، دون أن نمرّ من استخدام مصطلح التكوين .

نحن نشهد إذن لانسحاب «إستراتيجي» لمفهوم التكوين الخطابي ، نظرا لعدم تموضعه الخارجي ولفائدة المصادر التفسيريّة الداخليّة للأرشيف : سلسلة

---

(١) غير أنّه باستثناء بارز لمارك دلابلاس (Marc Delaplace) في مقاله لسنة ١٩٩٦ ، وفضلا عن ذلك ، هو مُؤلِّف كتاب في تاريخ الخطاب حول مفهوم الفوضى (٢٠٠٠) .

(٢) هي الفترة التّي ، كلّ شيء في الآن نفسه ، أنجزنا فيها أبحاثنا حول مسألة البقاء على قيد الحياة في القرن الثامن عشر و حول انتشار كلمات النظام في الوصف الخطابي في ١٧٩٣ حول الأحداث المهمّة ، مثلا موت مارات (Marat) ، مع نشرها في فترة طويلة (١٩٨٤ ب ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٩ ، ٢٠٠٠) .

بأكملها من الفئات الوصفيّة آخذة مكان الخطاب الواصف ، محيلة إلى حكم المعرفة لعمل المُؤرّخ . وسيُصبح حينها من الممكن تسجيل سعي مُؤرّخ الخطاب في تحوّل تأويلي وتفسيري (دوس ، ١٩٩٥ ؛ غيلهومو Guilhaumou ، ١٩٩٣) ، على أساس فوكو M. Foucault من جهة «أمين المحفوظات الجديد» (دلوز Deleuze ، ١٩٨٦) ، ومن جهة أخرى من المرجع المهّمل لقابلية ترجمة اللّغات والثقافات عند غرامسكي (Gramsci)[1] ، و أخيرا من المعرفة ، بفضل السوسيولوجي بيرنار كوناين Bernard Conein ، الذي يشتغل لزمن حول الثورة الفرنسية (١٩٨١) ، من المنهجيّة الأجناسيّة ومن قابليّة تفكير التصويرات الاجتماعية . ومن التكوين الخطابي إلى ملفوظ الأرشيف ، فإنّ الأمر يتعلّق الآن بالذات المتلفّظة ، وبالموضوع الخطابي ، وبمفهوم التصور في علاقة جوهريّة بالملفوظ في حدّ ذاته . كلّ خطاب ينتمي إلى ملفوظ ، والتمييز بين النصّ والسياق يفقد زمنا من وجاهته .

لقد كان تدّخلنا هنا عام ١٩٨٣ في مؤتمر التاريخ واللّسانيات دالا في الوقت نفسه عن آليّة قلب القيم الموصوفة الآن ، وآثارها ، أي اختفاء مفهوم التكوين الخطابي . نحن نعيد رسم خطّ سير على مدى عشر سنوات لمؤرّخ الخطاب دون استغلال مفهوم التكوين الخطابي ، في حدود ما يتعلّق الأمر فيه خصوصا بإعادة اكتشاف النصوص ، تحت رعاية وصف تجريبي لمادية اللّغة في كنف خطابية الأرشيف .

---

(١) بعيدة عنّا إذن فكرة عزل المرجع عن الماركسية . على العكس ، فإنّ العادة الماركسيّة هي ذاتها تأخذ قيمة بعد تأويلي أعلى من صياغاته الأولى- في مسار الثورة الفرنسيّة للشاب ماركس Marx - بحقيقة إشعار قابليّة الترجمة بين اللّغة السياسيّة الفرنسيّة والفلسفة التطبيقيّة الألمانيّة ، كما أشرنا إليه في مقال-تقرير لسنة ١٩٩٦ ، المُعنون بشكل دال «ثورة فرنسية وتقليد ماركسي : رغبة في الترميم» .

يُمكننا بالتالي أن نُلاحظ ، عند قراءة نصوص هذا العصر ، التطوّر التالي :

- عملية مُراقبة الفرضيات التاريخية المُستهدفة هنا باعتبارها مرجعيّة ، مع هدف وحيد هو وضع ، على المستوى الخطابي ، آثارا للظرف قد تمّ إدراجها قبلا في تاريخ الإيديولوجيات ،
- في عملية اكتشاف تأريخية ملفوظات الأرشيف أيضا على أساس مفهوم المسار الموضوعاتي ، الذي يُعطي مرتبة تفسيريّة لتصور المصادر الناتجة عن مادية الملفوظات ذاتها .

وبعيدا عن الجرد الفئوي الأدنى لهذا التطوّر والتموضع الجديد الذي يلي- ما نُقدّمه في مداخل تاريخ/ خطاب ، تصوير/أرشيف و مسار موضوعاتي لمعجم تحليل الخطاب- فإنّ مُؤرّخ الخطاب يضع أبحاثه الخطابية للتقاطع ، من الآن فصاعدا ، بين وصف ملفوظات الأرشيف مُصوّرة مسارا موضوعاتيا ، وتوضيح آثار المعنى ، التي يُمكن تحديد موقعها في تحليل زمني من المدوّنة . هكذا هو الأمر أيضا فيما يخصّ الأعمال الأكثر حداثة لمُؤرّخي الخطاب الشباب على سبيل المثال مارك ديليبلاس (Marc Deleplace) (٢٠٠٠) ، فيما يخصّ مفهوم-تصوّر الفوضى خلال الثورة الفرنسية ، وديديي لو غال (Didier Le Gall) (٢٠٠٣) ، فيما يخصّ مفهوم- التصوّر الأساسيّ للخطاب الليبرالي النابوليوني : الإثنان يُركّزان بعد هذا على الإعداد التصوّري للمفاهيم من خلال ديناميكيتها الخطابية الخاصة أكثر من تركيزهما على علاقتها بخارج إيديولوجي . والأمر نفسه ، حين يُشير دامون مايافر(Damon Mayaffre) (٢٠٠٠ ، ٢٠٠٢) ، فيما يخصّ الخطاب الشيوعي للثلاثينيات في فرنسا ، إلى أنّ التناقض الفردي لهذا الخطاب الشاذ يتأتى أكثر من التطوّر الداخلي لمعجميته أكثر ممّا يتأتى من التأثير الخارجي للنقاش الجمهوري .

وفي الحركة نفسها ، وبطريقة أكثر تضييقا ، تُعاد صياغة الفائدة العظمى بقوّة زائدة ، من جهة اللّسانين ، في وضعنا وبالاشتراك مع دنيز مالديدي Denise Maldidier ، ثمّ مع صونيا برانكا Sonia Branca وفرانسين مازيير Francine

Mazière[١] ، وذلك من أجل اشتغالات لسانية مُحدّدة ، مُسجّلا بالتالي ترسيخا للخطاب في مادية اللغة . هذا الاهتمام هو في مركز المُؤلّف الذي نشرناه ، ريجين روبن Régine Robin وأنا شخصيا ، في ١٩٩٤ حول أعمالنا المشتركة مع دنيز مالديدي Denise Maldidier بعد اختفائه المفاجئ ، سنجده عشر سنوات من بعد ضمن مساهمتنا في المُؤلّف الجماعي الحديث حول مقاومات الاستبعاد (ميسيني Mesini ، بيلين Pelen ، غيلهومو Guilhaumou ، ٢٠٠٤) ، بالتأكيد حسب وجهة نظر أخرى ، على إعادة بناء الخطاب .

هل يجب أن نستنتج من هذا كلّه أنّ العودة إلى الاستخدامات «القديمة» لمفهوم تصوّر التكوين الخطابي لا معنى له قطٌّ في الأفق الحاضر للمُؤرّخ اللّساني؟ هل يجب أن تستنتج أنّ هذا المفهوم ، مع كونه لعب دوراً هاماً في زمانه ، يتطابق في الواقع مع التاريخ اللّساني للاستخدامات المفهومية (٢٠٠١) مثلما ندركه حالياً في أفق الترابط التجريبي بين الحقيقة والخطاب ، ترابط نابع من التمييز بين الأحداث الحقيقية وأحداث الخطاب ، مع التوضيح أنّ معرفة الحقيقة التاريخية تمّر من وصف شروطها اللّغوية للوجود؟ سنعود إلى هذه النقطة في كلامنا الختامي . ومن المُؤكّد أنّه بالوصول إلى الصياغة المركزيّة لـ«نقل توجّه الذات التلفّظية» بقلم ميشال بيشو M. Pecheux ، فإنّ المفهوم «البنيوي» للتكوين الخطابي كان ينزع إلى ترك المكان ، في ميدان التاريخ اللّغوي للمفاهيم ، للمفهوم الأكثر ديناميكية للذات التجريبية ، الذات الرّاسخة في مراكز الحقيقة وموجودة في آثار خطابية عرضية في الآن نفسه .

إنّ البعد المفهومي لتحليل الخطاب يُستثمر من الآن فصاعدا في بناءات غير ظاهرة ، ناتجة عن مواد تجريبية- في هذه الحالة عناصر اللّغة التجريبية-

---

(١) لنرى حول هذه النقطة ، تفكيرنا ، المُقدّم بمشاركة صونيا برانكا-روزوف Sonia Branca-Rosoff ، أندري كولينوت André Collinot ، فرانسيس مازيير Francine Mazière ونحن أيضا ، حول «مسألة التاريخ والمعنى» (١٩٩٥) .

مجموعة على أساس روح التحرّي لدى الممثّلين التاريخيين والمعاصرين . إنّه إذن يتقاطع بأكثر سهولة مع تاريخ التطبيقات اللّغويّة ، مُتفاديا بالتالي التصنيف البديهي للخطابات x, y, z التّي ستكون كثيرا من التكوينات الخطابية .

لِنُذكّر مرة أخرى أنّنا لسنا هنا في رواية تحوّل ، إنّ الأمر لا يتعلّق بتبرير إهمال مفهوم ، مُرتبط بشكل أساسي بالعلاقة المُركّبة بين فوكو M. Foucault والماركسية ، لفائدة الوصف الوحيد للمصادر النّصيّة في أفق تأويلي ، مع الأخذ بعين الاعتبار كون ملاحظة أنّ هذه الحقائق الأساسيّة كانت مأخوذة في خطاب واصف خارج عن النصوص . وعليه ، فإنّ روايتنا لقلب القيّم محايثة ، تركّز على الجانب المحايث للّغة ، وعلاقتها بمادية اللغة ، مع تثمين التصويرات النصّية لأحداث تحرّرية ، حيث يقرّ ذاتيا الناطقون باسم الممثّلين الشرعيين أنفسهم بشكل بديهي ، إذن غير ثابت مقارنة بالوضعية الأصلية . إنّه يُشير فقط إلى أنّ اللّقاء ، العرضي في الواقع ، بين فوكو M. Foucault والعادة الماركسية ، بواسطة مفهوم التكوين الخطابي- في هذا المعنى الذي يُدافع فيه فوكو M. Foucault عن الماركسية في حين أنّه يُطوّر تصنيفه الخاص خارج الحقل الماركسي-الألتوسيري المُهيمن آنذاك- له أكبر الأثر على مستقبل تحليل الخطاب مقارنة بالمفاهيم الأخرى الأكثر كشفا للوهلة الأولى عن حقل البحث هذا . إنّ التركيز على العرضية في حدّ ذاتها ، التّي تُنتج سيرورة انتقال القيم يكمن في الانفصال عن الإدراك المألوف للبناء العلمي لعلم جديد على أساس أصناف ضروريّة .

هكذا ، على خلاف تحليل خطاب باعتباره علما مُؤسّسا ، كان السؤال حول ضرورة الحفاظ هذا المفهوم الأساسي أو ذاك ، وحاليا مفهوم التكوين الخطابي ، فإنّ مُؤرّخ الخطاب يُسجّل نفسه بالأحرى في عادة تأويلية ، مبنيّة حول الماركسية ، وعموما في روح ماي ١٩٦٨ حيث يحفظ المدخل التحرّري لتحليل الخطاب بإزاء شكله المنقلب القيّم في مساره من وقت لآخر .

بعيدا عن أيّ خيبة أمل ، نحن نبقى إذن في رواية تغيّرات المظهر ، تحويلات ، في كنف الترجمة ذاتها بين النظرية والتطبيق ، باختصار في قلب

القيّم المحايثة ، التي سمحت بوضع جهاز ثابت نسبيًا لتحليل الخطاب من جهة التاريخ ، دون التخلّي عن الوضعيّة الماركسية الأساسيّة . على خلاف كلّ حالة للأشياء الموجودة ، فإنّ وصف مادية النصوص يُركّز انتباهنا على التطبيقات الخطابية لأفعال التلفّظ مأخوذة في علاقات التبادل في أفق وظيفة حرّة ، إذن تحرّرية . لقد تمّ التركيز على البعد الإبداعي ، إذن التأويلي للملفوظ .

المقصود أنّه حول استخدام المفاهيم ، وبالنّظر إلى مفهوم التكوين الخطابي في المنظور الماركسي ، تواجدت مصادر تأويلية ، وترجمة للمفهومي في التطبيق ، فتحت إمكانيات ، وسمحت باستكشافات خطابية جديدة . إنّ الكلام التحرّري للمُسيطر عليهم كامن في نهاية هذا المسار . حاولتُ أن أبيّنه في مُؤلَّفي حول كلام Des Sans (١٩٩٨ب) . لكن كان من المفروض آنذاك إنهاء خطّ سير مُعقّد مع الحفاظ على القيم الأخلاقية لتحليل الخطاب . لطالما ابتعدت عن الضرورة الظاهرة لإعادة إنتاج حالة الأشياء لفائدة التّركيز ، على مُحلّل الخطاب المُؤكّد إلى حدّ إعادة بناء إشكاليتها التحرّرية بالمصادر الخاصة للمُمثّلين ، مواضيع ومفاهيم-تصوّرات . والأمر نفسه في عملنا الحديث ، بالتعاون مع بيتريس ميسيني Béatrice Mesini وجون نوال بلين Jean-Noel Pelen (2004) ، حول «روايات الحياة» للذين يقال عنهم مستبعدون عن المجتمع المعاصر ، وعلاقة أعمالهم التحرريّة بالعادة المدنيّة الناتجة عن الثورة الفرنسية(دونزل ، غيلهومو Donzel, Guilhaumou ، ٢٠٠١) .

٣. فضاء البناء المشترك في تحليل الخطاب

رأينا للتوّ أنّ ديناميكيّة القيم التحرّرية لها مدخل أخلاقي قويّ ، مدخل عن مفهوم التكوين الخطابي ، يستمر طوال الانتقال ، خلال السبعينيات والثمانينيات ، من أفق الذّات المتحدّثة الخاص بتحليل الخطاب إلى ما يُسميه ميشال بيشو M. Pecheux «نقل توجّه الذات التّلفّظية» . بالتالي فإنّ الفعل التدشيني لتحليل الخطاب يُحدث قلبًا للقيّم ، في المعنى الذي يفرض فيه نفسه

ويحتفظ على الفور ، بالرّابط من الطبيعة نفسها بين مادية اللغة وخطابية الأرشيف في المقاربة الخطابية للأدوات التجريبية المبنيّة في أفق ذات تحرّرية .

وبتسجيل أعمالنا التجريبيّة لتحليل الخطاب في أفق كهذا ، نحن إذن نهتمّ ، في فضاء الكلام الخاص باللا حصّة لهم des sans-part (رانسيير Ranciere ، ١٩٩٥) ، بالطريقة التي يُبنى فيه بشكل مشترك ، في كنف التبادل الخطابي بين الباحث و عضو المجتمع ، ذات تحرّرية قريبة جدا من المصادر الخاصة بالممثّلين الذين يقال عنهم «مستبعدون» . هل سينتج نمط جديد للتكوين الخطابي؟

٣-١- سعي أخلاقيّ

في الحقيقة ، أنا أتعرّض دائما لاستنكار من زُملائي ، عندما أبدي الأوصاف الخطابية لتصنيف موضوع البحث بالتطابق مع حجج المُمثّلين ، إذ يقولون أنّها افتراضية . صحيح أنّني أتهرّب ، في حدود الإمكان ، كلّ خطاب يتعالى على المصادر الأرشيفية و التحرّيات السوسيولوجية ، التي تُمثّل في الآن نفسه أدواتي التجريبيّة للعمل ومصادري التأويلية . هذا الابتعاد عن الخطاب الواصف ، الذّي يعني الإتقان العلمي في دلالات أخرى ، لم أختبره قطُّ بهذه الحدّة إلاّ في البحث الذي قُمت به بالمشاركة مع بياتريس مسيني Béatrice Mesini وجون نويل بلين Jean-Noël Pelen حول مدوّنة «روايات الحياة» للذين يقال عنهم مستبعدون .[١] هذان الباحثان قد جمعا هذه الروايات طوال مدّة تحريّهما على الاستبعاد اليوم في المنطقة المارسيلية ومنطقة فالي دو تارن la vallée du Tarn (مسيني ، بلين ، غيلهومو ، ٢٠٠٤) . بالتالي بُني ، من رواية لأخرى ، عمل حواري حيث تقرر باستمرار نوعيّة التموضع النّسبي بين الشاهد

(١) لقد اخترت أن أقدّم لهذا البحث الشخص الأوّل ، لهدف تفريد مسيرتي إلى أقرب من مادة التحرّي ، في كنف حقل بحث محدّد بوساطة مُقاربات أخرى في علاقة مباشرة على ميدان التحرّي .

والباحث ، مُؤلّفٌ ذو قيمة همزة وصل بين الشاهد والباحث في حدود أنّه «يعمل على أن يكون هناك اتّفاق حول الطابع الاستقرائي لحقيقته ، التي لا أو (لم) تكن قد أُعطيت سلفاً» (نفسه ، ص٢٢٦) ، ما يستدعي في الحقيقة تنقّل الباحث من موقفه المتعالي المعتاد . بالتالي ، يستخلص جون نويل بيلين Jean-Noël Pelen (نفسه ، ص٢٢٧) ، أنّه «إذا كان هناك موقف أساسي 'المُتحرّي' و'التحرّي' ، والذّي يُطالب فيه الأوّل ، بمعلومته ، وشهادة الثاني ، قبول هذا الأخير للشهادة ينتج عنه تعقيد للتبادل ، بما أنّ المُحقّق هو الذي يُصبح في النهاية ، بالنسبة للراوي ، شاهدا عن نطقه» .

أثناء هذا العمل الخطابي ذو الطابع الخاص نوعا ما ، كما سنراه ، كان إذن لي فرصة وصف ما يُمكن أن نُسمّيه «رواية مبنيّة جماعةً» ، أي فضاء خطابي بني بالمشاركة بين المتحرّي والتّحري في الاحترام الأخلاقي لكلّ واحد . سمح لي هذا العمل أيضا أن أقود ، مع جون نويل بيلين (Jean-Noel Pelen) ، تفكيرا حول الفضاء الأخلاقي حيث تظهر ، في الحركة الخطابيّة نفسها ، مسؤوليّة الباحث والسعي التحرّري لعضو المجتمع الذي يقال عنه «مستبعد» (غيلهومو Guilhaumou ، بيلين Pelen ، ٢٠٠١) .

أردت إذن أن أصف تصورات ذات معنى غير منشورة أسهمت في تثمين مواضيع بارزة . و يتعلّق الأمر بتعيين أشكال جديدة للتذيّت ومواضيع مفهوميّة غير منشورة في الوقت ذاته ، حيث يُدرك فيها الباحث مسؤولياته الخاصة به . ومن تحليل حكاية إلى أخرى ، ناشئ من الملفوظ الأوّل للحكاية «أنا وُلدت» ، حاولت أن أوضّح ، بواسطة الاشتغالات اللّسانيّة الدقيقة ، حركة مجموعة سعي للاستقلالية الخطابيّة . أجهدت نفسي إذن لتوضيح فضاء التذيّت في التقاسم المشترط للحجج في كنف العلاقة مُتحرّي- مُتحرّى عنه ذاتها .

بالتالي ، يسمح التحليل الخطابي لـ«حكايات الحياة» للذين يقال عنهم «مُستبعدون» باستفراد مسار سردي ، خصوصا في طريقة استخدام كلمات من أخرى ، ونقل معانيها ، وقلبها أحيانا ، وبالطّبع تعريفها حسب «نظام جديد

للأشياء» . يُميّز تحليل الخطاب ، على نطاق أوسع ، قدرة وفضاء تعبير الشهود المُتميّزين لـ«الإقصاء» المعاصر في سعي لـلاستقلاليّة ذات الصدى الأخلاقي القويّ .

إنّ تورّط المُؤرّخ اللّساني في التحليل الخطابي ينزع هنا إلى تقييم الاستقلاليّة التأويلية لموارد هذا الفضاء الخطابي الخاص ، وإعطاءه دوراً واقعيّاً بالوصف المشترك لخصوصياته السردية والجدلية ، بالتالي ، من خلال تكوين هويّة سرديّة وجدليّة ، يتشكّل منطق وجودٍ مُتميّز لوظيفة تحرّرية . يوجد إذن نفع تحرّري في التأكيد الانعكاسي للأنا في كنف «حكايات الحياة» هذه . ويُؤسّس هذا الاهتمام أحكامًا سواء للمُتحرّي أو المُتحرّى عنه ، ويخلق رابطا ضيّقا بين العالم الأخلاقي والعمل الفردي للروح ، التّي يُمكن تعيينها تحت مفهوم المنطق الخطابي .

إنّ حصّة المنطق الخطابي في التحرّي تتأتى إذن ، كما يبدو لي ، من كون أنّ مُحلِّل الخطاب لا يكتفي بإعادة بناء سردية وحيدة لمسارات الذّوات ، التي قيل عنها (مُستبعدة) ، وبدراساتها المقارنة . يُحيلنا هذا المنطق على وجه التحديد إلى حجج التحليل مثلما أُعيد بناؤها عن طريق جديّة أدوات المؤلفين المشاركين في التّحري في خضّم الديناميكية التداولية الناتجة عن الملفوظ الأوّل لحكاية «أنا مولود» . يبدأ هذا المنطق من اعتراف مُتبادل حيث يقرّ كلّ واحد بالآخر ويجعله على قدم المساواة ، وبالتحديد ، يحاجج حول حدوس الآخر ، مُترجما بذلك العنف ، الذّي يمارسه المجتمع على من يُقال عنه (مُستبعد) في شكل من أشكال التصالح الخطابي . في خطيّة أفكار جون مارك فيري (Jean-Marc Ferry) المُحفّزة (١٩٩٦) ، نحن نعتبر إذن أنّ إعادة البناء الخطابي ، الذي أنجزه تحليل «حكايات الحياة» ، يزيح السرد عن المركز ليضعه في فضاء الفهم المتبادل المبني بحجج خلال زمن تقاسم مشترك من أبطال رواية التبادل في الميدان .

لهذا ، ظهور كلام من يُقال عنه «مُستبعد» ، بوساطة الرواية يجعل المُتحرّي باستمرار في مُواجهة ذاتيّة كثيفة الحضور ، إلى حدّ أصبحت مُتعذّرة الرّفض في

كلّ رُؤية لموضوع مستقلّ اجتماعيّا . إذن ، مُنادى من بحث للاستقلاليّة ، فإنّ المُتحرّي لا يكتفي بترك قناعات المُتحرّى عنه يُعبّر . لديه نصيبه من المسؤوليّة في نُشوء البعد الذي يُضفي الطابع العالمي للتعبير الشخصي ، وينتهي بالمشاركة وبفاعليّة في الأوقات المنتجة للحجج في مجرى مسار الحكايات .

٣-٢- إعادة الوصف الخطابي

٣-٢-١- «عمل السلبي»: تحليل لساني

لنأخذ حالة رواية حياة يانيك (Yannick) ، ٣٢ سنة ، صانع العرائس (marionnettiste) ومُؤسّس ، في مرسيليا ، لجمعيّة الدفاع عن الأشخاص ذوي الدّخل المتدنّي Rmistes ، الذين سنعطي عنهم مقتطفات قصيرة في الملاحق . نرى في روايته ومن الوهلة الأولى تتابع ، سلسلة اقتراحات سلبيّة ، حول حصّة الخصومة في حياته ، واقتراحات إيجابيّة حاملة للتحرّر إلى اللحظة ، التي يُصبح فيها المُتحرّي نفسه ، وفي هذه الحالة جون نويل بيلين (Jean-Noel Pelen) ، هو الذّي يُصيغ الحجّة المركزية للمسار السردي . في الواقع ، يطرح على يانيك Yannick ، في نهاية المطاف ، سُؤال مُلخّص للرابط بين السلسلة المزدوجة من الاقتراحات ، «ماهو السلبي والإيجابي؟» ، ليتوصّل ، على إثر جواب يانيك Yannick ، إلى محضر تحرّري ذي قيمة قابلة التحديد : بشكل أساسي ، بالنسبة لك ، أن تكون مُستبعَداً هو أن تكون مُستَبعداً» . لنتتبّع التحليل اللّساني عن كثب .

تُبنى الحركة الخطابيّة لـ«رواية الحياة» ليانيك Yannick حول رابطة متعدّدة الأشكال ومُؤكّدة على الفور(«لا أحبّ أن أحكي حياتي ، لكن في الوقت نفسه أحب أن أقوم بذلك») ، لكن مدركة في وقت مُتأخّر من المُتحرّي تحت عبارة : «السلبي والإيجابي» . إنّ هذه الرابطة المُنوّعة إلى أقصى الحدود تسمح بالانتشار المستمر ، عن طريق الاستخدام المتكرّر للروابط بين جمل مُتميّزة ، حتى المُتقابلة دلاليّا ، لعبارة الذاتيّة القويّة ، التي تنطلق من «سلِب» حياة ما («أفضّل أن أقول

السلبي في الأوّل والإيجابي فيما بعد») لتضع في العمق «إيجاب» بناء هويّة في الاستبعاد («وجدت هويّةً في هذا الاستبعاد») .

يرتكز إذن الخيار الأوّل للرواية في «السلبي» ، في الملفوظات التّمهيدية للرواية التّي ذكرناها للتّو ، على الاستخدام المستمر للروابط - خصوصا ولكن- ، التّي تُعزّز التأسيس التدريجي لعالم مراجعي مُؤسّس على انقلاب السلبي في الإيجابي .

لِنُلاحظ أنّه قبل استخدام لكن ، في وضعيّة مركزيّة في استراتيجيّة الروابط (ديكرو O. Ducrot ، ١٩٨٠) ، الذي يسمح ، من رواية جزء من حياة لآخر ، بتقييم الجزء الثاني من الاقتراحات المُنسّقة بشكل تدريجي ، مُحيلا بالتالي إلى الإيجابي ، بعلامة مراحل بروزه التدريجي . أقّل ما يبقى أنّ الأمر لا يتعلّق بالتأكيد على أنّ الاستخدام المتكرّر للروابط دال كما هو ، خصوصا أنّ الشفهي يُقرّ بتكاثر الروابط : إنّ حضورها المُؤكّد في سياق استقلاليّة خطابيّة ، بتحرير الإيجابي في السلبي ، هو الذّي يُعرّف بقيمتها الكشفيّة .

من الآن فصاعدا ، وبدخولها في إطار نظرة تجاه الحياة ، التي يتمّ تنظيمها حول التقابل بين مُتَضَمّن/مُستَبعد ، بجعل تموضع المُتَضمّن في المُستبعَد ، فإنّ رواية الحياة ، الجدّ «حساسة» والجدّ «واقعيّة» ، تُوضّح ، في أثناء السرد ، وجوداً مفعما بشكل مُتميّز . بالتأكيد ، لا يذهب المُتَحرّى عنه إلى حدّ السيطرة الصريحة للانقلاب ، على خلاف «رواية حياة» أخرى ، رواية زونبو (Zonpo) ، لأنه يعود للمُتحرّي نفسه أن يثبّت هذا الانقلاب في نهاية الرواية ، لكنّه يُزوّد شبكة العناصر القابلة لأن تسمح التعبير النهائي عن هذا الانقلاب .

إنّ المسار الحجاجي ليانيك Yannick يُمكن أن يُلخّص باختصار في الوصلة المزدوجة للملفوظات المثبّتة التالية : أن تكون ابن . . . ، هو أن تكون فرنسيا مُتوسّطا ، هو أن تتضايق/عكس/أن تكون مُستبعدا ، هو أن تجد ، بطاقتك الخاصة ، هويّة في الاستبعاد .

أخيرا ، المُتحرّي ، و قد قُلنا ذلك من قبل ، هو الذي يُصيغ ، ويثبّت ، في

نهاية المسار ، الانقلاب انطلاقا من تعبير مُعمِّم لاستخدام الروابط .

«ما هو السلبي والإيجابي؟

وجدت أخيرا هويّتك الإيجابيّة في الهامش ، أن تكون مُستبعَدا ، هو أن تكون مُتَضَمّناً»

إنّ تكرار الرابطة حسب تدرّج تقديمي على شكل استفهامي(ما هو x؟) له تثبيت تباينيّة (إنه في x حيث) و تعريفيّة (x هو y) ، يُشير هنا إلى الانتقال النهائي نحو تقديم «إيجابي» مُتعدّد الأشكال للهويّة في الاستبعاد (Riegel, 1990) : بالتالي فإنّ المُتحرّي يصل إلى تثبيت «الهامش» بعمليّة استخلاص خطابيّة مزدوجة (برتود Berthoud ، ١٩٩٢) وتعريف رياجل (RIEGEL ،١٩٩٠) : إنّه بالتالي يُعمّم «الهويّة الإيجابيّة» ليانيك Yannick الناتجة عن انقلاب السلبيّة الأولى .

في النهاية ، تُشكّل «رواية حياة» هذه حركة خطابيّة مرتكزة على خيار عرض سردي أوّلي «السلبي» مع السماح بتقديم رواية الحياة في ذاتيّتها ذاتها . أليس «السلبي» ، الذي تحدّثنا عنه هنا ، الوجه الحقيقي للخَطابة ، هو ما يُسمّيه علماء الأدب بعمل السلبي ، بتعبير آخر «النمط الذاتي للحركة» (Bergougnioux, 1991)؟ «ستكون رواية حياة» ليانيك Yannick إلى حدّ ما مصدراً تمهيديّاً لرواية أدبيّة أكثر تجهيزاً . عرفت في الواقع ، بعد إنهاء هذا التحليل ، أنّ يانيك Yannick كانت لديه وظيفة كتابة مُستقلّة .

يُمكننا آنذاك الحديث بشكل عام عن منطق خطابي في نفس الوقت مُنشِيء لكلمة تحرّر لمن يُقال عنه «مُستبعد» ، و مُتقاسَم مع المُتحرّي في فضاء تواصلي بين الذّوات .

٣-٢-٢- البناء الخطابي المُشترك

في نهاية المطاف ، في هذا التحرّي ، التقينا أيضا بممثّلين بارزين في كنف حقل الصراع ضدّ الاستبعاد ، إذن مُتعهّدين في حركة DES Sans . لقد تعرّفت

فيه مرّة أخرى على فضاء الناطق باسم، صورة مُتواجدة في مركز أبحاثي التاريخيّة وتساؤلاتي المُعاصرة (١٩٩٨أ و ب).

وفي كنف مُدوّنة روايات الحياة، مثال جميل وهو مثال باتريك Patrick، المُلقّب بنونورس (nounours)، أحد مُؤسّسي «حركة العمل ضدّ بطالة مرسيليا». إنّه يظهر فعلا باعتباره - «لسان حال التّافهين» في أثناء المسيرة ضدّ البطالة والإقصاء في ١٩٩٤.

صحيح أنّه يحتفظ بكلمة رائد، لكن من أجل قلب نصيبه من الحكم المُعتاد المُعطى له من الطبقة السياسية: «عندما أقول رائد، فإنّ هذا يُغيظني، لأني لست واحداً منهم (...) رائد، هو شخص فوضوي، يستطيع تحريك أشياء دون أن تكون له السلطة». إنّه يُنادي نوعا ما بتبديد الرائد: «لا بدّ من وجود كثير من الناس ممّن لديهم القليل من السلطة أو ممّن هم روّاد». يُفهم من رائد هنا رجل عمل، يُثير تحريكا لمُواطنين جُعلوا في البداية غير فاعلين بخلافهم. حاليا، يتعلّق الأمر بالناطق بلسان الذي يُختار هكذا. في حالة يانيك Yannick، التّي تطرّقنا إليها مُسبقا، كان الأمر يتعلّق أيضا بموقف الناطق بلسان، لكن مُرسّخ أكثر في التقاسم التدريجي للحجج بين المُتَحرّي والمُتحَرى عنه.

لنُؤكّد أخيرا على ما يُمثّل، بالنسبة لنا، الموقف الأخلاقي لمُحلّل الخطاب: تقييم وظيفة الأنا، وللفضاء الممنوح للشخص باعتباره كائنا حرّا، مقرّرا ومُستقّلا، بالتالي حاملا لاهتمام تحرّري.

يُمكن للمُقال عنه «مستبعد»، بشعوره كفعّال في حركة ذاتيّة نحو الاستقلالية، أن يُؤكّد «العيش مع الناس»، أي التّعامل معهم لهدف «اعتناء الناس بأنفسهم»، حسب تعابير باتريك Patrick. يصبح بالتالي التقاسم المُشترك ملازما للفعل في الحركة. ويبدو لنا أنّ الشيء نفسه في البعد التداولي لـ«رواية الحياة»: المُتحرّي حسب تعريف جزئي، وفي الوقت نفسه مُؤلّف مُشارك وممثّل مشارك لحجج السرد التي يُسجّلها. يُعرّف المنطق الإيثنوغرافي الباحث نفسه كنتاجٍ للقصّة المُلاحَظَة، في وضعيته كمُؤلّف مشارك خاضع للالتقاء مع الآخر.

ويُدخلنا المنطق الخطابي إذن ، بطريقة ثانوية ، إلى «رواية الحياة» حيث للمُلاحِظ-المُتحرّي نصيبه باعتباره مُمثّلا مُشاركا ، فهو إذن يُمارس مسؤوليته مباشرة في ما يُقدّم المعنى حتى في كنف «رواية الحياة» (Guilhaumou, Pelen, 2001) .

لنُحدّد أخيرا أن طريقة اشتراك الباحث في التحرّي الميداني إلى جانب الذين يقال عنهم «مستبعدون» على أساس «رواية الحياة» الخاصة بهم- توالي أحداث فرديّة لا تخلو من الانشغالات الشمولية- تمنع تحديد فضاء التمثيلات ، التي يعطيها كلّ واحد عن نفسه وعن الآخرين ، والشيء نفسه مع تمثيلات المُتحرّي في طريقة تتبّعه لـ«رواية الحياة» بإحيائها في كلّ وقت ، وأيضا تمثيلات موضوع «الاستبعاد» باحثا عن الاستقلاليّة الخطابيّة .

لهذا السبب أيضا ، فإنّ هذا التحرّي الخطابي حول ممثّلي حقل التّهميش نتج عنه وضوح رؤية فضاء التبادل بين الأشخاص الذين يقال عنهم «مهمّشون» ، بما في ذلك الناطقين بأسماء ، والباحثين الذّين ، وهم يتقاسمون المسؤوليّة الأخلاقيّة لأفعالهم التحرّرية ، ليسوا هم الناطقون باسم . يُرجعنا فضاء التّبادل إلى العادة المدنية للفعل الديموقراطي ، إلى مستقبل-ذات المواطنات والمواطنين . لكن هنا ندخل في طريق آخر للبحث كنّا قد استكشفناه ، بالاشتراك مع سوسيولوجيا أندري دونزيل André Donzel ، في حالة سكان مارسيليا (دوننزال ، غيومو ٢٠٠١ A. Donzel, J. Guilhaumou,)

يجب على الباحث ألا يشتغل فقط ، في مساحة اختباراته التجريبية الخاصّة بتحليل الخطاب ، دور شاهد موضوعي وعلمي ، و لا دور ناشط ملتزم : ما هو أيضا وخصوصا سوى ذات من ضمن ذوات أخرى في خضمّ تجربة مشتركة ، حيث باعتباره مراقبا ، هو أيضا مُراقب . صحيح أنّه عضو من المجتمع في وضعيّة علميّة مقرّرة . لهذا كلّه ، يعود له أن يُقلّص المسافة الاجتماعيّة للذي يقال عنه «مستبعد» كونه يختبر مركزية حركة تحرّرية مؤسّسة من خلال البناء الخطابي المشترك .

٤. بمثابة خاتمة

في خضمّ فضاء هذا التّقاسم المشترك، هل يُمكن للتكوين الخطابي أن يُحافظ على مكانته؟ . أوّلا ، كُنّا نميل إلى اعتبار اختفائه في مقدّمة المشهد الخطابي نهائي ، مع ترك حيّز فارغ معبّئ باستمرار بشيء موجود وشخص يتحدّث- وبالنّظر إلى وجود موضوع تجريبي- في أفق حالة اجتماعيّة معيّنة . لكن ، بالتفكير جيّدا ، فإنّ التكوين الخطابي يُمكن أن يُشير إلى هذا الشيء كونه جنسا خطابيا أكثر قيمة ، بقدر ما يتضّح أنّه موضوع مناسب للفكر والخطاب ، الحقيقة والكلام ، إذن يُسجّل في فضاء مُعيّن ، بالنّظر إلى البحث الاجتماعي عن التحرّرية البشرية . بكلّ بساطة ، يُرجع مفهوم التكوين الخطابي ، في أفق تعيينيي (Kaufmann, Guilhaumou, 203) ، إلى الوساطة الضرورية لنظام الخطاب بين الحقيقة والفكر : بالتالي ، يُسجّل نظام الخطاب حضوره بقوّة في كنف العلاقة بين الحقيقة والروح .

إن الحديث عن التكوين الخطابي لتوضيح انتظام الملفوظات المُشتّتة والمتنوّعة ، في تصوّر ميشال فوكو M. Foucault ، سيرجع إذن إلى التركيز على النمط الأصلي وغير المنفصل لوجود الفكر والخطاب . سيكون التفكير الخطابي إذن الجنس الذي تنتمي إليه كلّ ذات ، وكلّ موضوع و كلّ مفهوم قادر على أن يعني الوجود المتّصل لحقيقة التفكير والخطاب ، بالوجود التجريبي للظواهر اللّغوية . نحن أكثر قربا من عالم المتكلّمين ، أي في مفصل استخدام الكلمات ، إذن من اهتمامها ، وعلاقتها بالتفكير ، أي من حقيقتها . إن ما قيل عن موضوع منفرد تحت مفهوم خاص لا يمكن فصله عمّا يُمكن أن يُقال في ظروف تجريبية مُعيّنة . هناك حتما شيء يُمكن أن يُقال حول جسم الإنسان بطريقة وجوديّة ، إذن بطريقة مُتميّزة ، مع البقاء متجذّرين في حقيقة اللّغة[١] .

---

(١) على هذا الأساس يُطرح إشكال مكانة تحليل الخطاب في محاولة توحيد إشكاليات الدلالة في علم اللّغة ، لإعادة صيغة لفرانسوا راستيي (1991) François Rastier . إذا كانت الأسئلة المنطقيّة =

إذا كـان مُـهم أن نتـسـاءل حـول جـوهر كلمـات الخطاب ، أي حـول أبعـادها الوجوديّة ، بالتالي أن يعني ذلك الرسوخ المرجعي في الحقيقة الوحيدة للشخص التجريبي ، فإنّه من المُلائم بمكان أن نشير إلى وجودها حتّى في مثل هذه رابطة تجريبيّة بين الحقيقة والخطاب . يُمكن بالتالي لمفهوم التكوين الخطابي أن يُشير إلى المجموعة المنظّمة لأسماء خاصة مرتبطة بعموميّة خطاب «و يُذكّرنا هذا المفهوم باستمرار أنّ الخطاب يصدر في الآن نفسه من خصوصيّة الأشخاص المتكلّمين ومن عموميّة نتاجاتهم اللّغويّة المشتركة .

= تحيلنا إلى المرجع ، والتداولية من جانب الاستدلال ، وعلم الدلالة من جانب الاختلاف ، ألا يطرح الخطاب مشكلة المشاركة في المرجع ، انطلاقا من وضع رابطة بين ما يحدُث اختلافا في الاستخدام الخطابي وما يحيل إليه في الواقع على خلاف كلّ تساؤل استنتاجي؟ يبقى أن نعيد ، في هذا الإطار ، صياغة الطابع التأويلي لتحليل الخطاب بعمق ، على ضوء أهميّة الاستنطاق التأويلي في كنفه . من الملائم هنا ، كما يبدو لنا ، أن نمنح امتيازا للمسار التأويلي للمفاهيم في حالة استعمال داخل الخطاب حول قيمتها سواء المرجعيّة أو الاختلافية ، بالتالي العودة إلى ظاهرة البناء المشترك .

ملحق

يانيك (Yannick) ، مقابلة مع جون نويل بيلين ، مقتبس ، ميسيني (Mesini) ب . ، بيلين ج .ن ، غيلهومو (Guilhaumou J.) ، (٢٠٠٤) ، ص ١٢١-١٣٩ .

يانيك (Yannick) : أنا ، ليس صعبا ، إنّه شيء نادرا ما أقوم به ، لا أحبّ أن أحكي عن حياتي . لكن في الوقت نفسه أحبّ أيضا أن أقوم بذلك (. . .) . لطالما كنت مستبعدا عن الآخرين ، هكذا . في الوقت نفسه مستبعد وفي الوقت نفسه مثل المُتشرّد الذّي تمّ التعرّف عليه . لقد وجدت هويّة في هذا الاستبعاد على الرّغم من أنّي كنت فرنسيا متوسطا . لم يكن عندي أي شيء يستبعدني ، لكني كنت دائما على الهامش (. . .) أشعر أنّهم لطالما استخفوا بي مقارنة بما كنت أستحقّه حقّا ، بخس القيمة (. . .) أن تكون مُستبعدا ، هو أن تجد ، بطاقتك الخاصة ، هويّة في الاستبعاد (. . .) الجانب الإيجابي أيضا هو أنّني قمت بالكثير من المغامرات الغراميّة (. . .)

بدأت رواية كلّ حياتي بالجانب السلبي . أفضّل القول كلّ الجانب السلبي أوّلا لأبرز الجانب الإيجابي . وهذا من التواضع ، تواضع مُزيّف أحبّ أن يكون عندي كثيرا منه . لكني أفضّل أن أبدو مُغفّلا في البداية ومن ثمّ أظهر أكثر ذكاء ممّا أبدو عليه . أظهر الجيّد وأتخيّل . ليست المسألة مسألة ظهور ، إنّها . . . . .

جون نويل (Jean-Noel) : أنا لا أحكم لا على هذا ولا على ذاك

يانيك (Yannick) : نعم أعرف أنّك لا تحكم ، لكن حتى هكذا ، أنا أفضّل دائما قول السلبي في الأوّل والإيجابي فيما بعد . مع ذلك الجنس ، هو مع ذلك هو الجزء الذي لا يُمكن السيطرة عليه في حياتي .(. . .)

لطالما تمّ وضعي رُغما عنّي في موقف الإدّعاء . عندما كنت في المدرسة ، في الثانويّة ، رشّحني زُملائي رئيسا للقسم ، ووجدت نفسي في دورٍ جعل

الأساتذة يكرهونني (. . .) ، لطالما أحببت أن ألاحظ وأقول ما لم يكن على ما يُرام ، وأن أكون صريحا وواضحا ، ولا أكون مُنافقا . وكنت دائما مُستبعدا لهذا السبب ، لأني ألاحظ وأقول ما ليس على ما يُرام (. . .) لطالما كنت مستبعدا . لطالما وجدت نفسي في الاستبعاد . ليس في الاستبعاد إنّما في المُطالبة وفي عدم المتابعة (. . .)

جون-نويل (Jean-Noel) : عندما قُلت أنّك وصفت السلبي أولاً ، والإيجابي ثانيا ، ما هو السلبي والإيجابي؟

يانيك (Yannick) : السلبي هو الأساس السلبي لحياتي : ما لم أعشه جيّدا ، ما أفتخر به أقلّ ، كلّ ما جلب لي اكتئابا في الداخل ، والذي لديّ منذ وقت طويل . السلبي ، هذا هو : هو أن تكون لدينا أشياء لا نستطيع حقّا قولها للجميع . هو ما عاشه الآخرون سلبيّا وأنا أيضا . والإيجابي هو ما يصنع مفخرة في المحيط الاجتماعي ، ما يُمكن قوله ويأتي بدلالة (. . .) . على أيّ حال بالنسبة للمستبعدين ، أنا برجوازي ، لأنّه لم يعد لديّ موقف برجوازي ، طريقة كلام برجوازية نوعا ما ، على أيّ حال عندما أكون مع المستبعَدين ، الكلام أكثر تماسكا وأكثر تحضّرا ، وعندما أكون مع البرجوازيين ، لا يعود لديّ كلام شخص مُستبعد . أنا دائما ألعب دوراً مضادا ، ألعب دائما هذا الدّور(. . .)

جون-نويل (Jean-Noel) : هل تشعر أنّك مُستبعَد؟

يانيك (Yannick) : لا ، كنت أحسّ نفسي مُستبعَدا أكثر في الطفولة ، عندما لم أكن مُستَبعَدا قَطُّ (. . .) لم أعد أحسّ نفسي مُستَبعَدا عندما عشت قليلا في الهامش . لم أحسّ نفسي أبدا مُدمجا في المجتمع عندما كنت افتراضيا على هامش المجتمع أكثر ممّا كنت عليه عندما كنت بالكامل في المجتمع .

جون-نويل (Jean-Noel) : في الهامش وجدت هويّتك الإيجابيّة .

يانيك (Yannick) ، إيجابي ، هذا هو (. . .) هي مُفارقة ، لكن هذا هو . وأنا أحرّك المجتمع أكثر بهذه الطريقة ، بوجودي في الاستبعاد أكثر منه من كوني في المجتمع .

جون-نويل (Jean-Noel) : في النهاية بالنسبة لك، أن تكون مُستبعدا، هو أن تكون مُتضمّنا؟

يانيك (Yannick) : نعم، هذا هو. هي قدرة البديل. إنّه الجانب الإيجابي للبديل (...)

جون-نويل (Jean-Noel) : ماذا يعني «المُستَبعَدون» بالنسبة لك؟ أنت تتكلّم عن الاستبعاد، من هم المستبعدون، هل هذا موجود؟

يانيك (Yannick) : نعم هم موجودون. هم من يعتبرون أنفسهم مُستَبعَدون، هم من يقولون «أنا مُستَبعَد» (...) المسألة ذهنية.

المراجع

- Althusser, L. (1965/1996) Pour Marx, avant-propos d'Etienne Balibar, Paris, La Découverte.
- Auroux, S. (1998) La raison, le langage et les normes, Paris, PUF.
- Bergounioux, P. (1980) Le tremblement authentique, Quai Voltaire, N°3.
- Berthoud, A.-C. (1992) Deixis, thématisation et détermination, La deixis, Morel A.-M., Danon-Boileau, L. éds, Paris, PUF, pp. 527-542.
- Bourg J. (2002) Les contributions accidentelles du marxisme au renouveau des droits de l homme en France dans l après-68, Actuel Marx, N°32, pp.125-138.
- Branca-Rosoff, S. et al. (1995) Questions d histoire et de sens, Langages, 117, pp. 54-66.
- Charaudeau, P., Maingueneau, D. (2002), Dictionnaire d'analyse du discours, Paris, Seuil.
- Chaurand, J. éd. (1990), La définition, Paris, Larousse.
- Conein, B. (1981) La position de porte-parole dans la Révolution française, Peuple et pouvoir, Presses Universitaires de Lille, pp. 153-164.
- Conein, B., Pêcheux, M. et al., eds (1981), Matérialité discursives, Presses Universitaires de Lille.
- Courtine, J.J. (1982), Analyse du discours politique. Le discours communiste adressé aux chrétiens, Langages, N°62.
- Deleplace, M. (1996), La notion d'anarchie pendant la Révolution française. Un parcours méthodologique en analyse de discours, Revue d histoire moderne et contemporaine, 43-2, avril-juin 1996.

- Deleplace, M. (2000), L'anarchie de Mably à Proudhon (1750-1850). Histoire d une appropriation polémique, Lyon, ENSéditions.
- Deleuze, G. (1986), Foucault, Paris, Editions de Minuit.
- Détrie, C., Siblot, P., Verine, B. eds (2001), Termes et concepts pour l analyse du discours. Une approche praxématique, Paris, Champion.
- Donzel, A. , Guilhaumou, J. (2001) Les acteurs du champ de l'exclusion à la lumière de la tradition civique marseillaise, Exclusions au cœur de la Cité, D. Schnapper ed., Paris, Anthropos, pp. 69-100.
- Dosse, F. (1995), L'empire du sens. L'humanisation des sciences humaines, Paris, La Découverte.
- Ducrot, O. et al. (1980), Les mots du discours, Paris, Editions de Minuit.
- Fairclough N. (2003), Analysing Discourse. Textual analysis for social research, London, Routledge.
- Faye, J-.P, (1972), Langages totalitaires, Paris, Hermann.
- Faye, J-.P. (1997), Qu est-ce que la philosophie ?, Paris, A. Colin.
- Ferry, J.-M. (1996), L'éthique reconstructive, Paris, Editions du Cerf.
- Foucault, M. (1979), L'archéologie du savoir, Paris, Gallimard.
- Foucault, M. (1994), Dits et écrits, trois volumes, Paris, Gallimard.
- Grenon, M. , Robin, R. (1974) Pour la déconstruction d'une pratique historique, Dialectiques, N°10-11, pp. 5-32.
- Guilhaumou, J. (1975a) Idéologie, discours et conjoncture en 1793, Dialectiques, N°10-11, pp.33-58.
- (1975b) Moment actuel et processus discursif : Hébert et Roux, Bulletin du centre d analyse de discours, N°2, Presses Universitaires de Lille, pp. 147-173.

- (1978) Discours, idéologies et conjoncture. L'exemple des discours révolutionnaires (1792-1794), Thèse de 3ème cycle, Université de Provence, M. Vovelle dir.
- (1979) Hégémonie et jacobinisme dans les Cahiers de prison. Gramsci et l'histoire de la France contemporaine, Cahiers d'histoire de l'Institut Maurice Thorez, N°32-33, pp.159-187.
- (1980) Orientaciones actuales sobre et analisis del discurso politico contemporane, in Estudios sobre la Revolucione francesca y el final del antiguo regimen, Madrid, Aka/Universitaria, pp. 165-198.
- (1984a) Itinéraire d'un historien du discours, Actes du colloque Histoire et linguistique, Paris, Editions de la MSH, pp.33-42.
- (1984b) Subsistances et discours publics dans la France d'ancien régime (1709-1785), Mots, N°9, pp. 57-87.
- (1986) La mort de Marat à Paris. Description d'un événement discursif, in La mort de Marat, Paris, Flammarion, pp. 39-81.
- 1793. La mort de Marat, Bruxelles, Complexe.
- (1991) Les porte-parole et le moment républicain (1791-1793), Annales E.S.C., pp. 4-91.
- (1992) Marseille républicaine (1791-1793), Paris, Presses de la Fondation Nationale des Sciences politiques.
- (1993) A propos de l'analyse de discours : les historiens et le tournant linguistique, Langage et société, n 65, pp.5-38.
- (1998a) L avènement des porte-parole de la République (1789-1792), Lille, Presses du Septentrion.
- (1998b) La parole des sans. Les mouvements actuels à l'épreuve de la Rév-

olution française, Lyon, ENS Editions.

- (2000a) Subsistances (pain, bled, grains), in Handbuch politisch-sozialer Grundbegriffe in Frankreich, 1680-1820, Heft 19, Munich, Oldenbourg, pp. 141-202.
- (2000b) De l histoire des concepts à l'histoire linguistique des usages conceptuels, Genèses, 38, pp. 105-118.
- (2001) La connexion empirique entre la réalité et le discours. Sieyès et l'ordre de la langue, Marges-linguistiques.com, N°1.
- (2002a) Histoire/discours, archive/configuration, trajet thématique, événement discursif/linguistique, in Dictionnaire d'analyse de discours, Paris, Seuil.
- (2002b) Jacobinisme et marxisme : le libéralisme politique en débat, Les libéralismes au regard de l histoire, Actuel Marx, 32, pp. 109-124.
- (2003) Geschichte und Sprachwissenschaft: Wege und Stationen in der analyse du discours, in Handbuch Sozial-wissenschaftliche Diskursanalyse, R. Keller und al. (Hrsg.)., Band 2, Opladen, Leske+Budrich, 2003, traduction et présentation de Reiner Keller, 2003, pp. 19-65.
- Guilhaumou J. , Maldidier D. (1979) Courte critique pour une longue histoire, Dialectiques, N°26, pp. 7-23.
- Guilhaumou J., Maldidier D., Robin R. (1989) Jalons dans l histoire de l'analyse de discours en France: un trajet des historiens du discours, Discours social, pp. 3-89.

-Guilhaumou J., Maldidier D., Robin R. (1994) Discours et archive. Expérimentations en analyse de discours, Liège, Mardaga.

-Guilhaumou J., Pelen J.-N. (2001) De la raison ethnographique à la raison

discursive. Les récits de vie dans le champ de l'exclusion, in Terrenoire (Jean-Paul), La responsabilité des scientifiques, Paris, L'Harmattan, pp. 277-292.

- Guilhaumou J., Robin R. eds (1975) Sur la Révolution française, Bulletin du Centre d analyse de discours de Lille III, N°2
- Habermas, J. (1976), Connaissance et intérêt, Paris, Tel Gallimard.
- Habert, B., Nazarenko, A., Salem, A., Les linguistiques de corpus, Paris, A. Colin
- Haroche, C., Henry, P. , Pêcheux ; M. (1971) La sémantique et la coupure sausurienne : langue, langage, discours, Langages , n°24, pp. 93-106.
- Jäger, S. (1999), Kritische Discursanalyse, Duisburg : DISS.
- Kaufmann, L., Guilhaumou, J. eds (2003), L'invention de la société. Nominalisme politique et science sociale au 18ème siècle, collection "Raisons pratiques", Paris, Editions de l'EHESS.
- Keller, R. (2004), Diskursforschung. Eine Einführung für Sozialwissenschaftkerlnnen, Opladen, Leske+Budrich.
- Keller, R., Hirseland, A., Schneider, W., Viehöver, W. hrsg. (2001-2003), Handbuch Sozialwissenschaftliche Diskursanalyse, Band 1 et 2, Opladen, Leske+Budrich.
- Koselleck, R. (1979/1990), Le futur passé. Contribution à la sémantique des temps historiques, Paris, Editions de l'EHESS.
- Le Gall, D. (2003), Napoléon et le Mémorial de Saint-Hélène. Analyse d'un discours, Paris, Kimé.
- Maldidier, D., Robin, R. (1976/1994) Du spectacle au meurtre de l'événement. Reportages, commentaires et éditoriaux à propos de Charléty (mai 1968), An-

nales E.S.C., 3-1976. Repris dans Discours et archive.., op. cit. pp. 19-74.

- Marandin, J. M. (1979), Problèmes d analyse de discours. Essai de description du discours français sur la Chine, Langages N 55.
- Mayaffre, D. (2000), Le poids des mots. Le discours de gauche et de droite dans l entre-deux-guerres, Paris, Honoré Champion.
- Mayaffre, D. (2002) 1789/1917 : l'ambivalence du discours révolutionnaire des communistes français des années 1930, Mots, N 69, pp. 65-80.
- Mésini, B., Pelen, J.-N., Guilhaumou, J. eds. (2004), Résistances à l'exclusion. Récits de soi et du Monde, Aix-en-Provence, Publications de l'Université de Provence, 2004.
- Pêcheux, M. (1981) Ouverture, in Bernard Conein et alii éds., Matérialités discursives, Lille, Presses Universitaires de Lille, pp.15-18.
- Pêcheux, M. (1975), Les vérités de la Palice, Paris, Maspero.
- Pêcheux, M. (1990), L'inquiétude du discours, textes de Michel Pêcheux présentés par Denise Maldidier, Paris, Editions des Cendres.
- Rancière, J. (1995), La Mésentente, Paris, Galilée
- Rastier, F. (1991), Sémantique et recherches cognitives, Paris, PUF.
- Riegel, M. (1990) La définition, acte de langage ordinaire. De la forme aux interprétations, in Chaurand, J., éd., La définition, Paris, Larousse, pp. 97-110.
- Robin, R. (1973), Histoire et linguistique, Paris, A. Colin.
- Robin, R. (1976) Discours politique et conjoncture, in L'Analyse du discours/Discourse Analysis, sous la dir. de P. R. Léon et H. Mitterand, Montréal: Centre éducatif et culturel, pp. 137-154
- Sarfati, G.-E. (1997), Eléments d'analyse du discours, Paris, Nathan/ Université, 1997.

لماذا يحتاج تحليل الخطاب إلى نظرية ذهنية؟(*)
آن ريبول وجاك موشلر

ترجمة
د . ذهبية حمو الحاج

١ . مقدّمة

في الأدب الصادر حول الخطاب خلال الثّلاثين سنة الماضية ، ظهرت فرضية جادّة تقول إنّ الخطاب يتمثّل في وحدة لسانية جديدة في نفس درجة الفونيم والمورفيم والجملة . توجد طريقتان لصياغة هذه الوحدة : ففي صورة المونيم أو المورفيم ، فهو وحدة دنيا ، لا يمكن النّزول إلى أكثر منها ، وفي صورة الجملة ، فهو وحدة قابلة للتّقسيم ومؤلّفة من عوامل من صنف أدنى ، ولكن لها قواعدها الخاصّة ، وتسيّر بناءها الجيّد وتأويلها .

في كتابين حديثين لريبول وموشلر Reboul et Moeschler و(١٩٩٨ a وb) ، وقفنا ضدّ هذه الفرضية ، التي تجعل [الخطاب][1] وحدة لسانية كاملة ، وأيّدنا فكرة ، حيث يكون إنتاج الخطاب وتأويله غير مرتبط بقواعد مميّزة ، ولكنّه يخضع

(*) in Berthoud, A-C. & Mondada, L. (eds) (2000)!: *Modèles du discours en confrontation*, Berne, Peter Lang, 185-203

(١) الحروف الحاملة للبنط الغليظ ، وتبعا للمواضعة المقحمة في ريبول وموشلر Reboul et Moeschler (1998b) ، تسمح لنا بتمييز مفاهيم تحليل الخطاب (التي سوف ننتقدها) عن مفاهيم تداولية الخطاب ، التي تبقى بالبنط العادي .

للمبادئ التّداولية العامّة ، التي تسيّر تأويل الملفوظات . ولذلك طوّرنا ، في إطار النّظرية التّداولية للإفادة (سبربر وولسن ١٩٩٥) تحليلا لما يدعى بتحليل الخطابات ، منطلقين من تعريف مختصر للخطاب .

تعريف الخطاب: الخطاب متوالية غير اعتباطية من الملفوظات.

إنّ هذا التّعريف يضع الخطاب بشكل واضح في ميدان التّداولية (يتعلّق الأمر بالملفوظات) ، بدلا من ميدان اللسانيات (لا يتعلّق الأمر بالجمل)) . في منظور نظرية الإفادة ، للمتكلّم الذي ينتج ملفوظا مقصديتان : القصد الإخباري (وهو القصد الذي يبرز فيه المتكلّم للمتلقي مجموعة من الافتراضات أو يجعلها أكثر بروزا ، والقصد التّواصلي (وهو قصد الإبراز التبادلي لامتلاك المتكلّم قصدا إخباريا) . يستقصد المتلقي استرجاع مجموع الفرضيات ، التي تشكّل موضوع القصد الإخباري للمتكلّم . ويرتكز مجموع النّظام على فكرة أنّ التّواصل مرتبط بطريقة حاسمة بالقدرة المقدّمة للآخر فيما يخص المعتقدات والمقاصد . وهذه القدرة هي التي عينّاها في الأدب الحديث وفي العلوم المعرفية بنظرية الذّهن[١] .

يرتكز نموذج تأويل الخطابات ، الذي طوّرناه على مفاهيم القصد الإخباري والقصد التّواصلي ونظرية الذّهن . وفي رأينا ، يمتلك متكلّم خطاب ما على قصد تواصلي شامل متلائم مع مجموع خطابه ، كما يوجد قصد إخباري متلائم مع مجموع خطابه ، إذن ، فإنّ مهمّة متكلّم الخطاب هي بناء خطابه ، حيث يمكن للمتلقي الوصول إلى تحديد القصد الإخباري الشّامل للمتكلّم فيما يخص مجموع خطابه ، وذلك يعني انطلاقا من استرجاع المقاصد الإخبارية الموضعية المتواصلة ، والخاصّة بكلّ ملفوظ . إنّ هذا البناء الخطابي هو الذي ينتج نوعا من

---

(١) فيما يخص نظرية الذّهن يمكن العودة إلى كاروتارس وسميث (1996) Carruthers et Smith ، ويمكن العودة أيضا إلى دافيد وستون David et Stone (١٩٩٥ a و١٩٩٥) .

الأوهام فيما يتعلّق بوجود بنى خاصّة بالخطاب ، أو الخاصّة ببعض أنواع الخطابات وفيما يتعلّق بضرورة المفاهيم من قبيل مفهوم الانسجام[1] .

تبيّن في المراجع المذكورة أعلى ، أنّه بإمكاننا العيش دون أوهام ، فهذا ما لدينا من تصوّر للخطاب فيما يتعلّق بإنتاجه وتأويله ، وسوف ندافع عن هذا التّصوّر لاحقا ببعض من النماذج ، التي تشكّل مدوّنتنا ضمنها .

٢- تعريف خصوصيات تقطيع الوحدات الدلالية:

٢-١- فرضية تحليل الخطاب:

يمكننا أن نقلق بشأن الوحدة أو الوحدات ، التي نركّز عليها في تحليلنا للخطابات ، باعتبار أنّنا نرفض كون الخطاب وحدة ، إذن ، على أيّ وحدة أو وحدات يمكننا الاشتغال؟ في المراجع المذكورة أعلى ، دافعنا عن مقاربة ابستمولوجية لمشكل تحديد الوحدات ، وذلك بصياغة مقاربة اختزالية وسياقوية لمشاكل الخطاب ، فتهمنا عبارة «الاختزالية» في هذه الفقرة . إنّ النّزعة الاختزالية هي منهجية عامّة في المجال العلمي . هناك طريقتان ، الطريقة التي نقترح فيها ترجمة كلّ العبارات العلمية لتخصّص معيّن (البيولوجيا الجزئية مثلا) في المصطلحات العلمية الخاصّة بتخصص آخر (الفيزياء مثلا) ، والطريقة التي نبحث فيها عن تفسير ظاهرة معيّنة بمصطلحات العناصر المكوّنة لها والتّفاعلات السّببية الحادثة بين هذه العناصر . فيما يخصنا ، سوف يكون اهتمامنا بالطريقة الثانية .

لماذا نرفض الفرضية التي تعتبر الخطاب وحدة؟ فيما يكون المونيم ، أو المورفيم أو الجملة من أفضل المرشحات لتمثيل الوحدات اللسانية؟ إنّ الفونيم لا

---

(١) نريد التّذكير هنا ، وحسب رأينا إنّ مفهوم «الانسجام» ليس بضروري وهو مضرّ في حدود عدم احتماله لتحديد غير دائري ، ولأنّه أيضا سمح لنا باعتقاد إمكانية التّخلي عن تحليلات دقيقة حول الروابط ، المرجعية المصاحبة ، الأزمنة الفعلية ، أو المختصرات .

يختزل في العناصر التي تكوّنه ، والسبب بسيط لأنّه غير مكوّن من العناصر اللسانية[1] . المورفيم مكوّن من الفونيمات ، لكنّه لا يختزل إلى الفونيمات التي تكوّنه ، لأنّنا لا نستطيع تفسير معنى المورفيم انطلاقا من تركيبه الفونولوجي ومن التّفاعل بين العناصر الفنولوجية . أمّا بالنسبة للجملة ، فهي مكوّنة من المورفيمات ، إلا أنّ تكوينها الجيّد وتأويلها مرتبطان بالقواعد الخاصّة بها ، والتي لا تفسّر لا عن طريق المورفيمات ذاتها ، ولا عن طريق تفاعل هذه المورفيمات ، فماذا نقول إذن عن الخطاب؟ ما هي الحجج المقدّمة لتأييد أو معارضة وضعه كوحدة لسانية؟

ينبغي أوّلا ملاحظة شيئا ، إذا كان الخطاب مثلما يريد ذلك محلّلو الخطاب وحدة بأتمّ معنى الكلمة ، فلن يكون مثل المونيم لا يقبل التقسيم ، وإنّما سيكون مثل الجملة وحدة قابلة للتقسيم ، ولكن له قواعده الخاصّة ، ولا يفسّر عن طريق مكوّناته ولا عن طريق تفاعل هذه المكوّنات . ، إذن السؤال المطروح سوف يكون سؤالا حول مكوّنات الخطاب . ما هي العناصر التي تشكّل الخطاب؟ وما هي القواعد الخاصّة التي ينبغي على الخطاب التركيز عليها؟ إن كانت موجودة . في حدود ما يُبنى الخطاب في ذهن محلّلي الخطاب كوحدة لسانية ، فإنّه يسمح باعتقاد أنّ الوحدة الافتراضية ، التي هي الخطاب مكوّنة من وحدة لسانية من صنف أدنى وهي الجملة . والخطاب بهذا المنظور سيكون مكوّنا من الجمل ، ولن يكون الخطاب مختزلا إلى مجموعة من الجمل ، التي تكوّنه ، لأنّنا لا يمكن اعتبار ذلك على أساس الجمل ذاتها وتفاعلاتها السببية .

سيكون هناك إذن مستوى خاص بالقواعد الخاصّة بالخطاب ، التي يمكن أن ندعوها اختلافا بالتّركيب الأكبر ، أو تركيب الخطاب ، أو تنظيم الخطاب أو نحو النّص . وسوف نلاحظ أنّه لن تكون هناك أيّة مصداقية لافتراض هذا المستوى

---

(١) بالفعل ، ليست الملامح الفنولوجية بعوامل للصوت في حدود ما إذا لم تسمح في ذواتها بتحقيق الوحدة اللسانية .

من القواعد ، إذا كان الخطاب غير تركيبي ، بمعنى إذا غابت العوامل التي تؤّسس عليها القواعد ذاتها . إنّ أرضية وجود تركيب أكبر لا معنى لها ، إذا لم تصاحبها فرضية التركيبية ، التي تقول بشكل واضح على أيّة وحدات تُؤسّس القواعد . ولعلمنا ، فإنّ التّركيب الأكبر لم ينجح أبدا في استخلاص أيّة قاعدة من القواعد الخاصّة بالخطاب الذي يطبّقه ، وهو ما ينتج برنامج بحث ثابت ، حيث لم يشهد أيّ تطوّر متحقّق منذ ظهوره على السّاحة العلمية . لهذا السبب على الأقل ، يبدو لنا أنّه حان الوقت لإقحام تطوّر جديد ، مؤسّس على مسلّمات مختلفة ، ويمكن أن يحتمل نجاحات أكبر .

٢-٢- فرضية تداولية الخطاب

في الوقت الذي ينظر تحليل الخطاب إلى الخطاب كونه ظاهرة لسانية ، فإنّ تداولية الخطاب ترى فيه ظاهرة تداولية ، حيث يعتبر تحليل الخطاب استجابة الخطاب لمجموعة من القواعد الخاصّة به ، فإنّ تداولية الخطاب تعتبر أنّ الخطاب بإمكانه أن يحلّل انطلاقا من المبادئ التّداولية نفسها المطبّقة على الملفوظ . وفي الأخير ، فإنّ تحليل الخطاب يرى أنّ مكوّنات الخطاب هي وحدات لسانية ، أو جمل ، وتداولية الخطاب ترى أنّ مكوّنات الخطاب هي وحدات تداولية ، أو ملفوظات(١) .

تعدّ التّفرقة بين الجملة والملفوظ مركزية في التّداولية ، وسوف نذكّر بذلك . إذا كانت الجملة كيانا نظريا محدّدا بقواعد التّكوين الجيّد (التركيب) قابلة للتطبيق ، فإنّ الملفوظ يتطابق مع تلفّظ متكلّم معيّن في وضعية معيّنة لجملة

---

(١) نقدّم هنا تعبيرا معقولا لتحليل الخطاب ، معظم النّماذج من تحليل الخطاب تعتبر عكس ذلك ، حيث أنّ تحليل الخطاب مكوّن من و حدات الخطاب (وليس وحدات لسانية) ، وتترك مسألة العلاقة بين الوحدات اللسانية (الجملة بالخصوص) ، وتترك مسألة العلاقة بين الوحدات اللسانية ووحدات الخطاب كاملة وغير محلولة .

محدّدة . يقدّم هذا التّعريف الأول التّفرقة الأولى بين الجملة والملفوظ ، في حين أنّ الجملة ذاتها يمكن أن تكون مصدر عدد لا متناه من الملفوظات ، وأيّ ملفوظ كان مقيّد بظروف إنتاجه ، وبعبارة أخرى ، يمكن لشخصين مختلفين النّطق بالجملة ذاتها ، ولكنّهما لا يستطيعان إنتاج الملفوظ ذاته . إذن ، لا يوجد نوع من الاستقلالية في التّركيب . تسمح هذه التّفرقة الأولى بين الجملة والملفوظ إقحام معطيات معجمية في ميدان التّداولية ، ولا يمكن تأويلها في المستوى اللساني ، مثلما يحدث مع الإشاريات ، فللمثال (a١) دلالات مختلفة حسب ظروف إنتاجه[١] .

(١) (a) أنا هنا الآن

(b) أين أكون غدا لأقول أنّ ذلك كان البارحة؟

(François Weyergans)

بالتالي أكثر من التفرقة بين الجملة والملفوظات ، أحالت الإشاريات إلى معطيات غير لسانية من أجل تأويلها ، فإنّها سوف ترتكز على المعطيات المعجمية (المحتوى مرتبط بالمؤشرات معجميا) . ولكن عددا معتبرا من النّماذج تسمح بتبيان أنّ الشّرخ بين التأويل اللساني المحض (الجملة المطابقة) ، والتأويل التّداولي الكامل لملفوظ معيّن لا يمكن أن يتمّم عن طريق نظام بسيط من الثّوابت أو بظروف الإنتاج فحسب ، لنأخذ هذا المثال :

(٢) (a) يقول الأب لابنه : اذهب لتنظّف أسنانك؟

(b) الابن : لا أشعر بالنّعاس .

حتّى يؤوّل الأب وبطريقة صحيحة إجابة ابنه على أنّها رفض للطاعة ، ينبغي أن يأخذ في الاعتبار أكثر من ظروف الإنتاج فقط ، في حقيقة الأمر أن يقدّم لأبنه اعتقادات (لأنّ تنظيف الأسنان يسبق الذّهاب إلى النّوم بفترة قليلة

---

(١) يمكننا فهم عبارة «ظروف الإنتاج» كمعادلة للثوابت التداولية السياقية ، وتتمثّل في العموم في المتخاطبين والظروف الزّمانية والمكانية .

مثلا) ورغبات (الابن لا يرغب في النّوم) ، وينبغي عل الأب أن يستعمل هذه الاعتقادات والرّغبات كمسلّمات في المسار الاستنتاجي ، الذي يسمح له بالتأويل الكامل لـ (٢) (b) .

لقد قلنا سابقا ، أنّ الملفوظ وحدة تداولية ، كيف يمكننا تبرير هذا الإثبات؟ وإذا كان الملفوظ وحدة تداولية فمن أيّ نوع هذه الوحدة؟ هل هي وحدة قابلة للتّقسيم مثل الفونيم ، أم هي جملة تركيبية بقواعدها الخاصّة مثل الجملة؟ في رأينا ، الإجابة بسيطة ، لا يمكن للملفوظ أن يجزّأ ، إضافة إلى أنّه يقوم باحترام القواعد الخاصّة به[1] ، التي تسيّر إنتاجه وتأويله على حدّ سواء . تسمح هذه القواعد انطلاقا من الدّلالة اللسانية للجملة المطابقة بالولوج إلى التأويل التّام للملفوظ . وبذلك ، فإنّ الخطاب في رأينا ليس وحدة لسانية ولا وحدة تداولية ، ولكنّه مكوّن من وحدات تداولية ، أو ملفوظات . يمكن أن نتعرّض للمعارضة بسبب عدم معرفتنا كيفية تقطيع الخطاب إلى ملفوظات ، وتبدو لنا هذه المعارضة غير مؤسّسة ، فإذا تطابقت الملفوظات مع تلفّظ الجمل النّحوية ، فإنّ التّقطيع يرتكز على قواعد التّركيب ، التي تسيّر التّكوين الجيّد للجمل ، ويمكننا من جديد مقابلة التّفرقة القديمة بين التركيب اللفظي والتركيب الكتابي . تبدو لنا هذه المعارضة أيضا غير مؤسّسة سواء تقبّلنا التّفرقة أو لم نتقبّل بها . بالفعل ، ينبغي على مؤيدي وجود التّركيب اللفظي ، الذي يحمل قواعده الخاصّة ، تقبّل أنّه في حال وجود هذا التّركيب ، يجب تحديد الوحدات بالطريقة ذاتها في حال التركيب الكتابي ، حتّى إن كانت القواعد مختلفة[2] .

---

(١) بأكثر تحديد ، هذه القواعد ليست قواعد لسانية ، ولكن مبادئ معرفية عامّة تتلائم مع جميع المسارات المعرفية من مستوى أعلى ، إن لم يكن ذلك لجميعها .

(٢) يمكننا أن نُفكّر هنا في الاختلاف بين التجمع التركيبي ، والتجمع الإيقاعي ، إذا وُجد التّركيب اللفظي ، يمكننا توقّع أنّ للوحدات التي تقوم بتحديدها حدودا مشابه للحدود الخاصّة بالتجمعات الإيقاعية .

يمكننا القول أنّ هذه الوحدات خطابات وليست جملا ، ولكننا نعود بذلك إلى المعارضة المعبّر عنها سابقا ، بحيث نلحظ أنّها ملائمة أيضا لما يدعى بالتركيب اللفظي وفي معرفتنا ، لم ننجح في استخلاص القواعد الخاصّة بالخطاب والقواعد الخاصّة بالتركيب اللفظي . وسوف يُسمح لنا ببعض الشّك إزاء برنامج البحث المتمثّل في التركيب اللفظي . وفي انتظار النتائج الافتراضية ، نفضّل اعتبار وجود أكثر من لغتين (أو أكثر) : لغة للفظ ولغة للكتابة ، وهناك تركيبان : تركيب للفظ وتركيب للكتابة[١] ، فاعتبار خصوصيات الخطاب المنطوق يبدو لنا من الأفضلية العودة إلى مفهوم التّركيب الجزئي ، الذي اقترحناه سابقا (ريبول وموشلر Reboul et Moeschler ١٩٩٥) . وسنلاحظ حاليا أنّ مقاربات من هذا النّوع هي في طريق الاستفادة من المخابر الهندسية اللسانية (ليزنجلر Laezingler 1998 ، لوبز Lopez بصدد الإنجاز) . وبذلك ، فإنّ مقاربة اختزالية (الخطاب يختزل إلى الملفوظات التي تكوّنه) ، وسياقوية (المبادئ التي تحكم تأويل الخطابات) ، هي نفسها المبادئ التي تحكم تأويل الملفوظات ، وترتكز على مفهوم السياق كثيرا .

٣. اندماج مستويات تحليل مختلفة

يبدو لنا في تحليل الخطاب أنّ الخيار الممكن والوحيد متمثّل في التركيبية المرتبطة بفرضية تركيب الخطاب ، المتحكّمة في هذه التركيبة (أو بعبارة أخرى ، التي تتحكّم فيما يدعى بـ«البنى» الخاصّة بالخطاب) . وفي تداولية الخطاب ، الاختيار التركيبي لا يعني تغييب فرضية أيّ تركيب خطابي . في حقيقة الأمر ، لا تتمثّل المشكلة في تفسير أو تبرير وجود الخطاب كوحدة لسانية بأتمّ معنى الكلمة ، ولكن تتمثّل في شرح كيف يمكننا التّوصّل إلى تأويل الخطابات

(١) نلحظ أنّ إنكار التّمييز بين التركيب اللفظي والتركيب الكتابي لا يعود إلى إنكار وجود مستويات لغوية (ميلنر Milner ١٩٨٩) . نتقبّل وجود مستويات للغة .

على أساس مختلف المبادئ التّداولية التي تحكم تأويل الملفوظات . حسب رأينا ، سوف نتذكّر أنّ تأويل الخطابات يمرّ بالمبادئ التّداولية ذاتها التي يمرّ بها تأويل الملفوظات ، التي تقوم نظرية الإفادة بوصفها .

إنّ الملفوظات معروفة الآن ، ولن نذكّر بها هنا[١] ، إلا بهدف الإلحاح على كونها سياقوية . وبالعودة إلى الخطاب ، نطرح السؤال : كيف ننتقل من التأويلات المتسلسلة للملفوظات ، التي تشكّل خطابا معيّنا إلى تأويل هذا الخطاب؟ وكيف ننتقل من المقاصد الإخبارية الموضعية إلى المقاصد الإخبارية الشّاملة؟ نلحظ هنا فرضيتين ممكنتين :

i . إنّ مسار تأويل الخطابات هو مسار ذهني تدريجي محض ، حيث نُضيف تأويلات الملفوظات المتسلسلة بعضها إلى بعض ، ومجموع هذه التأويلات يشكّل تأويل الخطاب ذاته[٢] .

ii . إنّ مسار تأويل الخطابات ليس بمسار ذهني تدريجي محض ، فهو يشغّل مسارات استنتاجية ، ويرتكز بشكل أساس على نظرية الذّهن ، وبالخصوص على قدرة المتكلّم على القيام بفرضيات مسبقة ، قابلة للمراجعة فيما يتعلّق

---

(١) القارئ المهتم يمكنه العودة إلى سبربر وولسن Sperber et Wilson (١٩٩٥) ، أو إلى ريبول وموشلر Reboul et Moeschler (١٩٩٤) ، أو إلى ريبول وموشلر Reboul et Moeschler (١٩٩٨a) ، ولوصف أكثر دقّة للطريقة التي تطبّق بها المبادئ التّداولية للإفادة من تأويل الخطابات ، يمكن قراءة ريبول وموشلر Reboul et Moeschler (١٩٩٨b) .

(٢) إنّه الخيار الذي تفضّله الدلاليات الحركية ،

FCS (*File Change Semantics*, cf. Heim 1982), DRT (Discourse Representation Theory, cf. Kamp & Reyle 1993), SDRT (*Segmented Discourse Representation Theory*, cf.Asher 1993).

بما يتضمّن ذلك نسختها المتعالية (cf. Chierchia 1995) .

بالقصد الإخباري الشّامل للمتكلّم[1] . لقد كانت لنا الفرصة للحديث عن الفرضيات المسبقة (ريبول Reboul 1992 ، ريبول وموشلر Reboul et Moeschler 1996) ، وسوف نعود بإيجاز هنا إلى مثال شهير[2] :

(٣) (a) هل أجرؤ على رواية هذه الحكاية الطريفة ، التي عُهدت بها ، وأنا أستمتع بالبرودة في ظلّ جدار المقبرة في منطقة لوزارن ذي الاخضرار الخلاّب .

(b) لما لا؟ (c) أنا بالفعل مُهان بقول حقائق تُربك موضة ١٨٣٨ .

(d) لم يكن الكاهن شيخا بتاتا ، (e) النادلة كانت جميلة ، (f) تثرثر كثيرا ، وهو ما لم يمنع شاب من القرية المجاورة من مغازلة النّادلة . (g) في يوم من الأيام ، يخبئ ملاقط المطبخ في فراش النّادلة . (h) عندما تعود بعد ثمانية أيام من ذلك ، تقول له النّادلة : (i) «هيّا ، قل لي أين وضعت الملاقط ، التي بحثت عنها في كلّ مكان بعد رحيلك . (j) وهنا أسوأ مُزاح» (k) العشيق يقبّلها ، والدّموع في عينيه ، ويبتعد .

(Stendhal, Voyage dans le midi, Divan, 115)

بشكل عام ، تسمح بداية الفقرات وكذلك الجمل (3d") و(3e) بالقيام بفرضية مسبقة (وهي الفرضية المثبتة في نهاية النصّ) حول العلاقة ، التي يقيمها الكاهن مع النّادلة ، بينما في المثال الموالي ، يدفعنا النصّ إلى القيام بفرضية مسبقة لمعارضته فيما بعد .

(٤) (A) تتكوّن مدينة سوفرونيا (Sophronia) من قسمين . في القسم الأوّل ، يوجد الثمانية الكبير الطائر ذو الحدبات الخشنة ، لعبة الخيل الخشبية

---

(١) ينطبق التحليل ذاته على حال وما يلزم المحادثة ، وحول هذه النّقطة يمكن العودة إلى ريبول وموشلر Reboul et Moeschler (b١٩٩٨ ، الفصل٨ ، الفقرة ١٠) .

(٢) نظرا لضيق المكان ، نتفادى تقديم تحليل مفصّل .

بسلاسلها شبيهة بأشعة الشمس ، العجلة(الدولاب) بأقفاصها المتحرّكة ، بئر الموت مع سائقي الدراجات الرأس إلى الأسفل ، قبة السيرك مع عنقود المربع المنحرف المُعلّقة من منتصفها . أما القسم الثاني من المدينة فهو من حجر ، من رخام (مرمر) ومن اسمنت ، إضافة إلى البنك ، المصانع ، القصور ، المذبح ، المدرسة وكلّ الباقي . إحدى أقسام المدينة ثابت ، أما الآخر فمُؤقّت ، وعندما تصل نهايته إلى حدّها ، يقتلعون مساميرها ، يُفكّكونها ، ويأخُذونها من أجل إعادة نصبها على الأراضي البور لقسم آخر من المدينة .

(B) هكذا ، في كلّ سنة يأتي اليوم ، الذي ينزع فيه العمال الجبهية (زخرف المدخل) الرخامية ، يُنزلون حيطان الحجر ، بوابات الإسمنت الضخمة ، يُفككون الكهنوت ، النصب ، المرافئ ، معمل تكرير البترول ، المستشفى ، يُحمّلونها فوق مقطورات ، ليتتبّعوا ، من مكان لمكان ، مسار كلّ سنة . ما يبقى هنا ، هو نصف سوفرونيا للقذف بها نحو الهدف ، وألعاب الخيل الخشبية ، مع الصراخ المُتدلي في سلة الثمانية الطائر الرأس مقلوب ، وتبدأ في حساب كم شهراً ، كم يوماً عليها الانتظار لكي تعود القافلة وتبدأ من جديد حياة بأكملها .

في (٤) ، يسمح الجزء A للقارئ بالارتكاز على المعارف الموسوعية حول الأعياد السوقية من جهة ، وحول العمارات ، من جهة أخرى القيام بفرضية مسبقة (معرضة فيما بعد) عن الخاصية العابرة للحفلة السوقية وعلى الخاصية الثّابتة للعمارات العمومية . أضف إلى ذلك ، يبدو لنا أنّ مفهوم الانسجام ، الذي ليس إلا مفهوما حدسيا وما قبل تاريخي بالنسبة لنا غير موظّف لغايات علمية ، يمكن أن يفسّر في نظريتنا ، أو بأكثر تحديد ، تمكننا من شرح أحكام الانسجام واللا نسجام ، التي نميل تلقائيا إلى إسقاطها على الخطابات . إنّ حكم الانسجام الذي نسقطه على خطاب ما متعلّق بالسهولة ، التي نجدها في بناء قصد إخباري شامل لهذا الخطاب ، ويتعلّق كذلك بثراء وتعقّد هذا القصد

الإخباري الشامل . ومن هذا المنظور ، يكون المثال (٣) والمثال (٤) نماذج نصّية جيّدة ، حيث نكون ميالين إلى إسقاط الحكم الإيجابي للانسجام .

وإذا أتينا الآن إلى اللانسجام ، يبدو لنا المثال (٥)[١] مثالا جيّدا للخطاب غير المنسجم :

(٥) فضلا عن ذلك ، أنني أحببت دائما الجغرافيا . المدرّس الأخير الذي كُلف بتدريسي هذه المادّة كان الأستاذ أوغوست Auguste A ، كانت عيونه سوداء . أحبّ أيضا العيون السوداء . يوجد كذلك العيون الزّرقاء والرّمادية وأنواع أخرى أيضا . سمعت بأنّ للثّعابين عيونا خضراء . كلّ النّاس لديهم عيون . هناك أيضا من هم عُمْي . يوجّه الولد هؤلاء العمي . يبدو الأمر فظيعا في حال عدم التّمكّن من النّظر . هناك بعض الأشخاص ممّن يسمع أكثر من اللازم . هناك كثير من الأشخاص المصابين في برغولزلي Burgholzli ندعوهم المرضى .

يبدو لنا هذا المثال نموذجا من الخطاب غير المنسجم ، ورغم ذلك نلحظ أنّه يمثّل نوعا من الاستمرارية الموضوعية من نوع : خيط- خيط ، شعر- شعر ، هلب- هلب ، حصان- حصان ، سباق- سباق . . . .إلخ ، ورغم محاولات عديدة ، لم ينجح تحليل الخطاب من إنتاج قواعد أكثر تحديدا حول أصل الانسجام واللانسجام الخاص بالنصّ . ومن المحتمل أن يكون التّحليل عاجزا عن تفسير التباين بين لخطابات مثل (٣) و(٤) والخطابات من قبيل (٥) . ولكن تداولية الخطاب تفسّر ذلك وبكلّ بساطة بصعوبة بناء قصد إخباري شامل لـ (٥) ، وبسهولة بناء القصد ذاته لـ(٣) ، وعن طريق ثراء القصد الذي يمكن أن نبنيه لـ(٤)[٢] . نريد الآن الوصول إلى المشاكل الأكثر تحديدا ، التي

---

(١) جمعه بلووير Bleuler في ١٩١٣ ، وذكره فريث Frith في ١٩٩٦ ، ص١٢٩ .

(٢) لمزيد من التّحاليل الأكثر تفصيلا لتبرير الأحكام الخاصّة بالانسجام ، نرجع إلى ريبول وموشلر Reboul et Moeschler (b١٩٩٦ ، الفصل الثامن) .

يطرحها تأويل المعطيات المعجمية ، ويمكن أن تؤول في مستوى الجملة ، ويزعم تحليل الخطاب تفسيرها عن طريق مفاهيم مثل : الخطاب أو الانسجام ، الروابط ، التكرارات الخطابية ، أزمنة الفعل ، والحذف . ولمبرّرات مقامية ، لن نعالج إلا التكرارات الخطابية وأزمنة الفعل .

٤. ما هو قابل للملاحظة

٤,١ التّكرار الخطابي: مشكلة المرجعية والمرجعية المصاحبة

أغلب المقاربات الخاصّة بالتّكرار ، والتي تدعى بالتّخاطبية ، أو ما بين الجملية تطرح مشكلة مصطلحات المرجعية المصاحبة . يتعلّق الأمر بتحديد أصول التكرار ، الذي يكون ضميرا للغائب ، أو اسما إشاريا ، أو وصفا محدّدا . . . .إلخ . ترتبط الصعوبة من منظور تحليل الخطاب في اعتبار التكرار الخطابي كمبرز لعلاقة لسانية غير منبثقة من التّركيب (مادام التكرار الخطابي يقوم بإعمال المقاطع اللسانية التي تظهر في جمل مختلفة) ، ولكن من البنية التركيبية الكبرى . ومرّة أخرى ، يبدو أنّه من الصّعب استخلاص قاعدة أو قواعد محدّدة تسمح بتحديد الأصل أو السبق الجيّد لتكرار خطابي معيّن .

بالنسبة لنا ، يفسّر هذا الفشل بالخطأ في كيفية طرح المشكل ، وفي الحقيقة ، نعتقد أنّ اختيار مصطلح التكرار الخطابي يعدّ خطأ . بالتأكيد بين ما يدعى بالتكرار الخطابي وما يدعى بالسابق الخاص به ، يوجد في العموم مرجعية مصاحبة ، ولكن من جهة أخرى ومثلما أشار إلى ذلك ميلنر Milner (1982) ، فإنّ المرجعية المصاحبة غير كافية للعلاقة التكرارية ، ومن جهة أخرى تستنتج المرجعية المصاحبة ذاتها من إقرار المرجعية لكلا المصطلحين ، ولا تستنتج مرجعية المصطلحين من مرجعيتهما المصاحبة . يبدو أنّ التّوليديين على حقّ فيما يخصّ هذه النّقطة ، والمصطلحات التّكرارية تتمثّل فقط في : الضمائر الانعكاسية ، والضمائر التبادلية ، وبعض المحذوفات .

وغالبا ما أثرنا أيضا الفرضيات المعرفية من نوع الذّاكرة الخطابية أو

التّمثيلات الذّهنية . إنّنا مرتابون فيما يخص مفهوم الذّاكرة الخطابية ، أي ذاكرة خاصة بالخطاب ، وبالمراجع الخطابية ، التي لا يظهر عليها أيّ إثبات تجريبي ، ولكنّنا نعتقد أنّ مفهوم التّمثيلات الذّهنية ضروري ، إلا أنّه من الأهمية إعطاءه مضمونا محدّدا ، وهو ما تقوم به نظرية التّمثيلات الذّهنية .

إنّ الفكرة الأساسية وراء نظرية التّمثيلات الذّهنية[1] ، هي أنّ حلّ المرجعية لا يتمّ على مستوى اللغة (أو الخطاب) ، ولكن على مستوى أكثر تعقيدا من تمثيلات المراجع ، والتمثيلات الذّهنية . ويمكننا إدراك التمثيلات الذّهنية على أنّها مفاهيم خاصّة ، بمعنى أنها مفاهيم تسمح بتحديد الموضوع كموضوع مطابق للتمثيلات الذّهنية الموضّحة ، وليس بإقرار حول دخول موضوع معيّن في صنف مطابق للمفهوم . وفي هذا المفهوم نلحظ أنّ التّمثيلات الذّهنية تلمّ بجميع المعلومات الضرورية حول موضوع معيّن ، وعلى الأقل وبكلّ سهولة ، فإنّ بعض هذه المعلومات ليست لسانية .

تتمثل فرضيتنا في أن يتضمّن التّمثيل الذّهني الحقول أو المداخل التالية :

١- عنوان أو بطاقة خاصّة بالتّمثيل الذّهني الموضّح ، والذي يسمح بالولوج إليه .

٢- مدخل منطقي يشير إلى العلاقات المنطقية بين التّمثيل الذّهني و(أو) مجموع التمثيلات الذّهنية .

٣- مدخل موسوعي يلمّ في الآن ذاته :

٣-١ المعلومات الموروثة الافتراضية عن صنف ، حيث يستنتج الموضوع المطابق .

٣-٢ المعلومات الخاصّة بالموضوع المطابق .

٤- مدخل بصري يتضمّن :

---

(١) حول نظرية التّمثيلات الذّهنية ، نحيل إلى آن ريبول (في طريق الصدور) ، وريبول وآخرين (١٩٩٧) .

٤-١ صورة موروثة افتراضية عن صنف ، حيث يستنتج الموضوع المطابق .
٤-٢ تاريخا حول التّغيّرات البصرية الظّاهرة للموضوع .
٥- مدخل مكاني يشير إلى :
٥-١ التّوجه الأصلي للموضوع المطابق .
٥-٢ العلاقات المكانية المحتملة ، التي يقيمها الموضوع المطابق مع الموضوعات الأخرى في فضاء معيّن وفي تاريخ انتقالاته المحتملة .
٦- مدخل معجمي يشير إلى المقاطع اللسانية المستعملة للإحالة على الموضوع المطابق ، وإلى الموضوعات التي يمكن أن تكون كذلك عن طريق الانزياح الموفولوجي .
٧- مدخل للتّحديد يسمح بتثبيت التّمثيل الذّهني في عالم ممكن أو مجموعة من العوالم الممكنة .

تتحمّل التمثيلات الذّهنية عددا من العمليات ومنها :

أ . الابتكار الذي يسمح ببناء تمثيل ذهني جديد انطلاقا من المفهوم المطابق للصنف ، الذي يستنتج منه الموضوع .
ب . التّعديل الذي يسمح بإضافة معلومات جديدة أو تعديل معلومات سابقة .
ت . الاندماج الذي يتدخّل عندما نلاحظ مطابقة تمثيلين ذهنيين لموضوع واحد ، حيث يأخذ هذا الأخير التّمثيلين الذّهنيين كمدخل لتقديم تمثيل واحد دون افتقاد للمعلومات .
ث . التّضعيف الذي يتدخّل مثلا عندما يكون ملف ما منسوخا ، وذلك للسماح ببناء تمثيل ذهني ثاني انطلاقا من الأول .
ج . الجمع
ح . الاستخلاص

يمكن لكلّ هذه العمليات أن تنتج عن طريق المعطيات المكانية والبصرية ، مثلما تنتج عن طريق المعطيات اللسانية . والعمليتان الضروريتان لحدّ الآن

تمثّلتا في الجمع والاستخلاص ، اللتين سوف نتحدّث عنهما في بعض الكلمات ، وحتّى إن كان الجمع والاستخلاص ضرورين بعيدا عن معالجة الجمع ، وإنّما يصبح من السّهل وصفهما عن طريق هذه المعالجة الخاصّة بالجمع . لنتفحّص المثالين التّاليين :

(٦) a . *رجل وامرأة يدخلان* . ويتوجهان للجلوس في عمق الحانة .

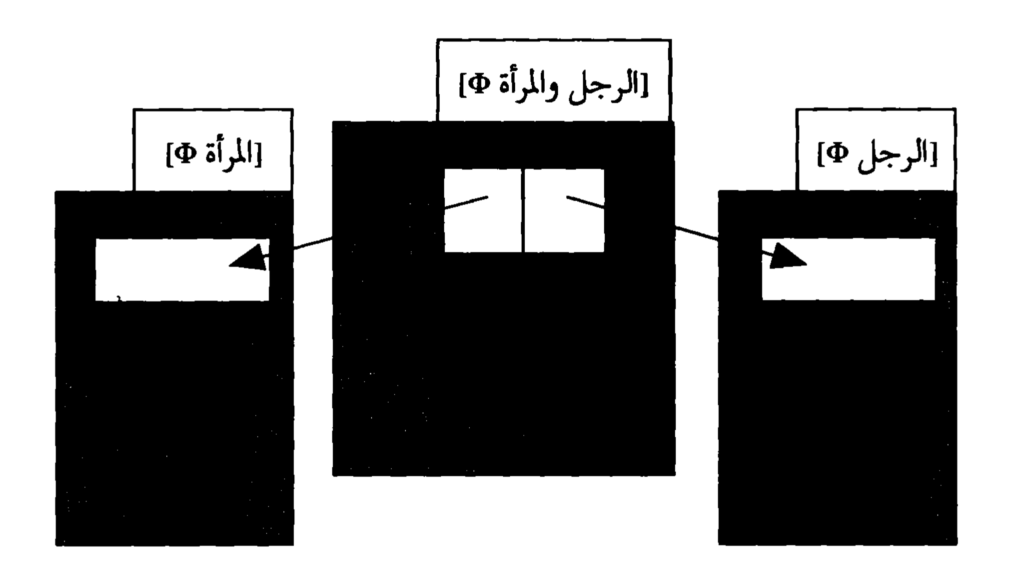
b . لفريد تسع *خرزات* ، تركها تسقط ، ولم يعثر إلا على ثمانية ، والأخيرة تدحرجت تحت الأريكة .

سوف نهتمّ خصوصا بالعبارتين المرجعيتين المكتوبتين بشكل مائل . في (٦) a . الرّجل والمرأة يعيّنان مجموعة من الأفراد ، الذين نعرف أنّهم يختلفون بعضهم عن بعض ، ولكن نعرف أيضا في ما يختلفون ، بتعبير آخر يمكننا التّمييز بينهم . وفي (٦) b . تعيّن الخرزات التّسع مجموعة من تسعة أفراد ، نعرف أنّهم مختلفون ، ولكن لا نعرف في ما يختلفون ، وبتعبير آخر لا يمكننا التّمييز بينهم .

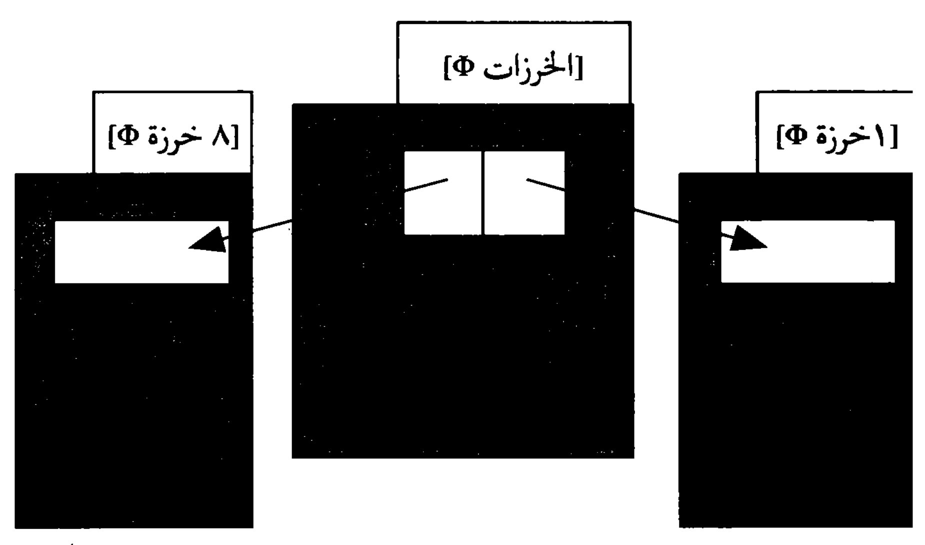
يبدو لنا حضور أو غياب التّمييز بين هذه الأمثلة مبرّرا للمعالجات المختلفة ، عن طريق الجمع في الحالة الأولى ، وعن طريق الاستخلاص في الحالة الثّانية . بالنسبة لـ (٦) a . تتمثّل العملية فيما يلي ، نقوم ببناء تمثيلا ذهنيا بالنسبة للرجل [الرجل Φ] وتمثيلا ذهنيا بالنسبة للمرأة [المرأة Φ] ، والرّابط (و) يشير إلى عملية الجمع الذي يتّخذ التمثيلين الذّهنيين [الرجلΦ] و[المرأة Φ] كمدخل ويبني مدخلا جديدا وهو [الرجل والمرأة Φ] .

يقيم التّمثيل الذّهني الجديد علاقة منطقية مع التّمثيلين الذّهنيين للأبوين ، علاقة التوزيع التي تظهر في مدخلها المنطقي ، مثلما تظهر في العلاقات المنطقية للتمثيلين الذّهنيين الخاصّين بالأبوين ، والمجموع يتلقى التّمثيل التالي[١] :

١٧- يدخل في إطار التقليد الصارم لعلم الخانات boxologique .



في هذه الصّورة مثّلت المداخل المنطقية بوساطة المستطيلات البيضاء الواردة على عمق رمادي ، وإذا انتقلنا إلى الاستخلاص ، ففي المثال (٦) b . ومثلما ذكرنا ذلك سابقا ، من المستحيل التّمييز بين الخرزات ، ونظرا لعدم التّمكن من التّمييز ، فإنّ مجموع الخرزات التّسع ينبغي أن يتمثّل بتمثيل ذهني واحد [الخرزاتΦ] ، ولكن الجملة الثالثة من (٦) b . (لم يعثر إلا على ثمانية خرزات) تسمح بالتّمييز بين الخرزات الثمانية ، التي تمّ العثور عليها ، وتلك الخرزة التي لم يتم العثور عليها . وبالتالي ، نلجأ إلى عملية الاستخلاص انطلاقا من التّمثيل الذّهني [الخرزاتΦ] ، الذي يقدّم تمثيلين ذهنيين جديدين [الخرزاتΦ] بالنسبة للخرزات التي عُثر عليها و[الخرزاتΦ١] بالنسبة للخرزة ، التي لم يعثر عليها . ومن جديد ، فإنّ العلاقات المنطقية بين التّمثيل الذّهني (أبوين) ، والتّمثيل الذّهني (أطفال) قد أشير إليهما في مداخلهما المنطقية المحدّدة . يمكن أن نمثّل هذه العملية الجديدة بالطريقة التالية :



يرتكز الجمع والاستخلاص على عملية تزيينية مشتركة ، بينما للتّوزيع لخصوصيات التّالية :

- فهو يحدّد مجموعات فرعية داخل المجموعة .
- المجموعات الفرعية المحدّدة عن طريق التوزيع لا تحتمل التقاطعات .
- المجموعة الخالية لا تنتج عن طريق التّوزيع .

نلاحظ أنّ التّمثيل الذّهني ذاته يمكن أن يكون موضوعا لعدّة عمليات مختلفة بين كلّ من الجمع والتّوزيع ، لأنّ هذه العمليات لا تسمح فقط باعتبار مختلف أنواع الجمع ، وإنّما تسمح أيضا بمعالجة المكمّمات ، بما في ذلك المكمّمات العامّة . مثلما تسمح التّمثلات الذّهنية الخاصّة بالأحداث بمعالجة الأحداث في تسلسلها[1] . وعموما تسمح نظرية التّمثيلات الذّهنية بمعالجة مشاكل الرّبط ، التي أثارها تاسموسكي دو ريك Tasmowsky-de Ryck وفريلتن Verluyten (١٩٨٢ و١٩٨٥) ، مثلما تثير المشاكل ، التي تطرحها المراجع التّطورية ريبول Reboul في طريق الإصدار) .

(١) لأسباب مرتبطة بضيق المكان ، لن نُطوّر أكثر وصف النّظرية الذّهنية التمثيلية . يمكن للقارئ المهتمّ أن يعود إلى ريبول Reboul وآخرين ١٩٩٧ .

٤,٢ عبارات المرجعية الزّمنية

سوف نقدّم الآن نموذجا ثانيا من الظّواهر ، التي نعتقد أنّنا ستعيد لها الاعتبار بطريقة مفيدة انطلاقا من مسلّمات تداولية الخطاب . يتعلّق الأمر بمسألة المرجعية الزّمنية وعلامات المرجعية الزّمنية ، ومثل هذا الميدان الخاص بالأحداث ومسألة العبارات المرجعية كاشفة عن الاختلاف الموجود بين تحليل الخطاب وتداولية الخطاب . ليس للعبارات الزّمنية الممثّلة بالأزمنة الفعلية وظيفة مرجعية ، ولكن وظيفة خطابية أو نصّية ، فهي تشير إلى نوع من النصّ بدل الإشارة إلى أنواع من الاحتمالات[١] . هنا ، لن نُعيد إنتاج الحجج التي يتبنّاها تحليل الخطاب ، ولا الحجج التي تتبنّاها تداولية الخطاب (بالنسبة للخلاصة ، يمكن العودة إلى موشلر Moeschler 1998a) ، وبذلك سوف نكتفي بالإدلاء بملاحظتين : ملاحظة إيجابية وملاحظة سلبية :

١ . تتمثّل الملاحظة السلبية في التّحقّق أنّه منذ فاينريش (1973) Weinrich الأولى ، لم نشهد أيّ تطوّر حول تحليل الزّمن في اللغة وفي الخطاب بالمنظور النصّي . تستنبط بعض المحاولات للمواصلة على مستوى تحليل الخطاب والمقدّمة من لدن تحليل اللسانيين المهتمّين بالزّمن (فتير Vetter 1996) من نظرية دلالية للصورة والمرجعية الزّمنية للتّطبيقات ، التي ليست بتطوّرات للسانيات النصّية . والمفارقة الكامنة ، أنّه بالنسبة لضيق وتعقّد الملاحظات ، التي يقدّمها النّحو التقليدي ، فإنّ الأوصاف التي يقدّمها تحليل الخطاب شكّلت تخلّفا وليس تقدّما إلى الأمام .

٢ . تتمثّل الملاحظة الايجابية في ظهور نظريات جديدة حول الخطاب ، لإظهار ما كانت الدلاليات الصّورية الكلاسيكية غير قادرة على حلّه في مستوى الجملة . نحن نُفكّر هنا في مسألة التّكرارات الخطابية والأزمنة الفعلية ،

---

(١) لانتقادات أكثر دقّة نُحيل إلى ريبول وموشلر Reboul et Moeschler (١٩٩٨b ، الفصل ٥) ، وإلى موشلر Moeschler وآخرين (١٩٩٨ ، الفصل ٤ والفصل ٧) .

وبالتـالي فـإنّ النّمـاذج الدّلاليـة الصـورية للخطاب من قـبيل DRT لكامب Kamp (كــامب ورايل Kamp et Reyle 1993) ، وSRDT لأشــيــر Ascher (1993Ascher) ، وكــذلك DAT (Dynamic Aspect Trees) لـ ترمــولن Ter Meulen (1995) ، تُشكّل ما يضاهيها من النّظريات الدّلاليـة للخطاب ، التي تستهدف شرح ما كان تحليل الخطاب غير قادر على القيام به ، وضمن ذلك تقديم مرجعية زمنية للملفوظات داخل الخطاب .

لن نقوم هنا بتطوير المقاربات الدلالية للخطاب ، لأنّها لا تبدو لنا رغم طبيعتها التّامة والمشكّلة مستجيبة لمجموعة من المستلزمات ، التي نخصّصها لتداولية الخطاب[1] ، وبالمقـابل للإشـارة إلى كـيـفـيـة تمكّن تداوليـة الخطاب من اعـتـبـار تخصيص المرجعية الزّمنية للملفوظات . وسنبيّن في الخاتمة كيف لمثل هذه المقاربة أن تتشكّل أيضا في نظرية التّمثيلات الذّهنية التي شرعنا فيها سابقا .

سوف ننطلق من معاينة بسيطة ، إلى حدّ أنّ كلّ تحليلات الخطاب أو تقريبا (باستثناء أعمال المؤسّس لابوف Labov 1978) أسقطتها في الحكاية (بالمعنى التّقني) ، فالأحداث منظّمة زمانيا ، ونظام الملفوظات يحترم نظام الأحداث . وهذه المعاينة المبدئية كانت مجهولة جزئيا في تقليد تحليل الخطاب لسبب بسـيط ، حيث أنّ كلّ حكاية (بالمعنى العـادي) لا تحـترمه كلّيـة . بالفـعل ، الأحداث في الحكاية لا تكون منظّمة فقط ، ولكن يمكنها أن تكون في علاقة الأسبقية ، وأن تكون مندمجة بعضها في بعض ، وأن تستتر جزئيا ، وأن تكون محدّدة زمنيا ، وهو ما يبيّنه بكلّ فعالية المقطع الحكائي التالي :

(٧) أخذ شـارلكهومس زجاجته على حـافّة طاولة المدفأة ، والمحقنة المعدّة للاستعمال تحت الجلد من علبة زرقاء اللون . وبأصابعه الطويلة المضطربة ، بدأ

---

(١) يعدّ هذا صحيحا من جهة تقديم القصد الإخباري للمفوظ المتكلّم ، ومن جهة أخرى ، لتحديد القصد الإخباري الشّامل لخطاب المتكلّم ، والسبب في الأساس هو أنّ المنظور الدّلالي للخطاب كثيرا ما يكون من طبيعة تدرّجية .

يحضّر إبرته الدّقيقة ، ثمّ قام بلفّ كمّ قميصه . ولمدّة قصيرة من الوقت ، توقّفت عيناه باهتمام على ساعده القوي ، المبقّع بعدد لا يُحصى من علامات الوخز والنّدوب . أخيرا ، دفع بالنقطة الحادّة ، وضغط على المكبس ، واسترخى في أريكته المخملية وبتنهّد طويل دال على الرضى .

لقد حضرت هذه العملية ثلاث مرات في اليوم ومنذ عدّة أشهر ، ولكن ذهني لم يتكيّف أبدا مع هذه العادة يوما بعد يوم ، أزعجني هذا المشهد كثيرا ، ووعي كان يعاتبني بانتقادات حادّة حول التفكير ، الذي لم يسمح لي بإيجاد الشّجاعة للرفض ، ولمرّات عديدة عاهدت نفسي بإراحة ذهني إزاء هذا الأمر .

إنّ هذا النصّ ، في بداية الرّواية ، التي تروي مغامرات شارلكهومس ، يوضّح في الفقرة الأولى العلاقة بين الأحداث الخاصّة بالحكاية ، بمعرفة النّظام الزّمني ، المدعو بالسّرد في دلالية الخطاب . كلّ حدث ملفوظ جديد يصف حدثا مستقلا ، وتامّا ، ومحدودا ، ويوضع في علاقة تسلسل زمني مع الحدث الذي يسبقه مباشرة . في اللغة الفرنسية ، تتمثّل الطريقة التّواضعية للتّعبير عن النّظام الزّمني في استعمال الماضي المستمر ، وهو ما يبيّنه نموذجنا[1] . في الفقرة الثّانية الأحداث الممثّلة في علاقة أسبقية وليس في علاقة تسلسل زمني مع الأحداث ، التي تمّ وصفها في الفقرة الأولى ، ولكن كلّ ملفوظ يصف حدثا يدخل في علاقة مع سابقه وفقا للتسلسل الزّمني .

وبذلك إذا أدركنا أنّ مجموع أحداث الفقرة الثانية قد نتجت قبل أحداث الفقرة الأولى ، مثلما نفهم أيضا أنّ كلّ حدث من الفقرة الثانية ينتج في نظام ،

(١) نُشير في الحين إلى أنّها ليست الطريقة الوحيدة للتعبير عن النّظام الزّمني . فمثلما سوف نلاحظ ذلك ، يمكن للماضي الفائق أن يقوم بالمهمّة ذاتها ، والماضي المستمر المدعو بماضي السّرد (يومان بعد ذلك ، يموت) هو طريقة تواضعية للتعبير عن النّظام الزّمني ، والماضي المركّب في توظيفه الزّمني (لوشر Luscher ١٩٩٨ ، وستيول Sthioul في انتظار الصدور) ، يمكنه التّعبير عن النّظام الزّمني مثل الحاضر السردي .

فما هو الزّمن الفعلي ، الذي له القدرة على مثل هذا الإنجاز؟ إنّ اللغة الفرنسية مثل اللغات الأخرى محظوظة كثيرا ، فهي تملك هذا الزّمن الفعلي ، الذي هو الماضي الفائق ، الذي يعبّر جوهريا عن علاقة الأسبقية ، ويسمح بتسلسل الجمل إثر النّظام الزّمني . مثل هذه الظواهر لم تكن من اهتمام تحليل الخطاب إلا بنسبة ضئيلة ، ورغم أهميتها وكثرة تواردها ، لم تتلق هذه الظّواهر أيّ تفسير واف . لماذا؟ يرتبط السبب الأساس كون التّفسير لا يمكنه أن يركّز على الأزمنة الفعلية والسابقة الزّمنية بالنسبة للماضي المستمر والماضي الفائق ، ومن جهة أخرى لأنّ استعمالها لا يضمن توظيفها أو استعمالها النموذجي ، وبالتالي ، ودائما في المرجع ذاته لسير أرثير كونان دويل Sir Arthur Conan Doyle ، فإنّ الماضي المستمر لا يقوم بتاتا بتقديم الزّمن ، ولا يقوم إذن بوسم النّظام الزّمني .

(٨) كانت وجبتنا لذيذة . كان هولمس متحدّثا مميزا لما يشاء ، وقد شاء أن يكون كذلك في ذلك المساء ، فبدا في حالة حماس عصبي قوي . لم أره أبدا بمثل ذلك التألق ، حيث تطرق تدريجيا إلى عدة مواضيع : غرائب العصر الوسيط ؛ الفخار القرنوسطي ؛ كمنجات ستراديفاريوس ؛ بوذية سايلان ؛ سفن المستقبل الحربية . وقد عالج كلا منها كما لو أنه تعهدها بدراسة عميقة . وطبعت فكاهته المتقدة ردّة الفعل التي تبعت تشدّد الأيام السابقة . وبدا أتيلني جونس كشخص اجتماعي في ساعات التسلية تلك ، بتصرفه كإنسان خفيف الروح أثناء العشاء . أما أنا فقد أحسستُ بنشوة وأنا أفكر أننا موشكون على إنهاء مهمتنا ، وقد غمرتني فرحة هولمس . لا أحد منا لمّح إلى القضية التي جمعتنا ونحن نتناول الطعام .

فماذا ينبغي أن يتوفّر لدينا لشرح مثل هذه العلاقات البسيطة بين الأحداث؟ تتمثّل فرضيتنا في العلاقات بين الأحداث في الخطاب ، وهو ما ندعوه في موضع آخر بالاستنتاجات التوجيهية (الاستنتاجات السابقة والاستنتاجات اللاحقة) ، وهي نتيجة تركيب المعلومات الإدراكية ، والإجرائية والسياقية . تقدّم المعلومات الإدراكية عن طريق المفاهيم ، حيث يتطابق المدخل

المعـجـمي مع المسلّمـات ومع أسـمـاء الفـعل ، في حين يُشـار إلى المعلومـات الإجرائيـة عن طريق الأزمنة الفعليـة والرّوابط في حال وجودها . أخيـرا ، تكون المعلومات السياقية افتراضات سياقية سهلة البلوغ في المحيط المعرفي الخاص بالمتكلّم ، وبذلك فجهاز معالجة المعلومة يعمل بالطريقة التّالية :

i . المعلومة الإجرائية هي أكبر من المعلومة الإدراكية ، عندما يحدث الخلاف في العلامات السببية بين المسلّمة والمعلومات الإجرائية المقدّمة من طرف الأزمنة الفعلية ، فإنّ المعلومات الإجرائية هي التي تنجح ، مثلما يبيّن ذلك المثال (٩) ، الذي يتحصّل على القراءة الزّمنية اللاحقة .

(9) Jean tomba, Max le poussa.

ii . المعلومة الإجرائية القولية تُهيمن على المعلومة الإجرائية المورفولوجية ، فعندما يدخل الرّابط في خلاف مع زمن فعلي مثلا ، فإنّ الرّابط هو الذي يهيمن دائما ، وهو ما يبيّنه المثال (١٠) ، الذي يتلقى هذه المرّة القراءة غير الزمنية (أو السببية) السّابقة .

(10) Jean tomba, parce que Max le poussa.

iii . المعلومة السياقية أقوى دائما من المعلومة الإجرائية ، وبالتالي من المعلومة الإدراكية ، فمثلا إذا كان من الواضح تبادليا بالنسبة للمتكلّم والمخاطَب أنّه : «إذا دفع ماكس جون ، فإنّه سيسقط» ، فإنّ القارئ يستنتج بغرابة القراءة اللاحقة لـ (١١) ، بخلاف ما سيطلبه منّا الرابط لأنّ (parce que) .

(11) Max poussa Jean, parce que Jean tomba.

إنّ هذا النّموذج ، الذي عُرض بإيجاز قد تمّ تجريبه على مجموعة من التركيبات المحتملة للمسلّمات pousser-tomber مع الماضي المركّب والماضي الفائق ، والماضي المستمر ، والرابط (و) والرّابط (لأنّ) . والنتائج كانت متقاربة وتثبت كلّها المبادئ i ، وii ، وiii ، في حين بقي تقديم تفسير صريح وصوري ، وفي كلّ الأحوال فإنّ تركيب المعلومات من طبيعة ومصادر مختلفة تؤدي طبيعيا إلى وصف تداولي للخطاب .

٥. الخلاصة

في الوقت الحالي، يبدو لنا الطريق المستقبلي لتداولية الخطاب متمثّلا في تركيب التّحليلات الخاصّة بالاستنتاجات التّوجيهية مع التّمثيلات الذّهنية لأحداث نظرية التّمثيلات الذّهنية TMR، تجعل الاستنتاجات التوجيهية قيودا على العمليات المحتملة حول التّمثيلات الذّهنية للأحداث، فضلا عن ذلك فإنّ نظرية التّمثيلات الذّهنية بصدد التّطوّر لنمذجة التّمثيلات الانعكاسية، التي تفترضها نظرية الذّهن. يبدو لنا إذن، أنّ برنامج البحث الجديد المتمثّل في تداولية الخطاب برنامج مستقبلي، وسيسمح في السنوات القادمة بتقديم نمذجة صورية مقنعة لعمليات تأويل الخطابات.

ننهي الحديث مشيرين باختصار إلى مصادر مدوّنتنا، فهي تتعلّق بنصوص، بخطابات، أو بمحادثات حقيقية. تمثّلت النصوص في القصص القصيرة، التي يمكن أن تُفهم بطريقة مستقلة ومستوحاة من كتابين لستندال Standhal، وهما: «Rome, "De l'amour" Naples et florence».

ومراجع لـ إيطالو كالفينو Italo Calvino، وبالخصوص: Les invisibles وPour Autant، لا تمتنع من الإشارة واستغلال النّماذج إثر قراءتنا، مثلما يتبيّن ذلك في المثال (٧) و(٨)، ووجدنا روايات لبيير مانيون Pierre Margnan أو جون جيونو Jean Giono ضرورية جدا، وكذلك الرّوايات البوليسية لـ ب.د جامس P.D.James أو لباتريسيا كورنوال Patricia Cornwell. لقد كانت لنا المناسبة بعد عدّة سنوات أن نقوم بجمع مدوّنة حول المراجع التّطوّرية، التي نضعها في متناول المهتمّين، مثلما اشتغلنا أيضا على مدوّنات خاصّة بحوار الإنسان-الآلة، التي جمعها باحثون من CRIN-CNRS من خلال التّجارب Des expériences magicien d oz.

في الأخير، ومثلما يبيّنه المثال (٦)، نستعمل أيضا وبانتظام أمثلة حقيقية للخطابات المرضية (الفُصام، الانطواء، والحُبسة)، التي تسمح لنا بتوضيح خلاف مقاصدنا.

المراجع

Asher, N. (1993). Reference to Abstract Objects in Discourse, Dordrecht, Kluwer.

Carruthers, P. & Smith, P.K. (eds) (1996). Theories of Theories of Mind, Cambridge, Cambridge University Press.

Chierchia, G. (1995). Dynamics of Meaning. Anaphora, Presupposition and the Theory ofGrammar, Chicago, The University of Chicago Press.

Davies, M. & Stone, T. (eds) (1995a). Folk Psychology. The Theory of Mind Debate, Oxford, Basil Blackwell.

Davies, M. & Stone, T. (eds) (1995b). Mental Simulation. Evaluations and Applications, Oxford, Basil Blackwell.

Frith, C.D. (1996). Neuropsychologie cognitive de la schizophrénie, Paris, PressesUniversitaires de France.

Heim, I. (1982). The Semantics of Definite and Indefinite Noun Phrases, Ph D. dissertation, University of Massachussets, Amherst. Publiée en 1989 par Garland Press, New York.

Kamp, H. & Reyle, U. (1993). From Discourse to Logic. Introduction to Modeltheoretic Semantics of Natural Language, Formal Logic and Discourse Representation Theory,Dordrecht, Kluwer.

Labov W. (1978), !La transformation du vécu à travers la syntaxe narrative! , in Leparler ordinaire. La langue dans les ghettos noirs des États-Unis, Paris, Minuit, 289-335.

Laenzlinger, Ch. (1998). "!Les outils TALN du LATL sur Internet!", Langues 1.Lopez, P. (en préparation).

Luscher J-M. (1998a), "!Procédure et interprétation du Passé Composé!", in MoeschlerJ. et al, Le temps des événements, chapitre 8, Paris, Kimé, 181-196.

Luscher J-M. (1998b), Éléments d'une pragmatique procédurale. Le rôle des marques linguistiques dans l'interprétation, Thèse de doctorat, Université de Genève, En préparation.

Milner, J-C. (1982)!: Ordres et raisons de langue, Paris, Le Seuil.

Milner, J-C. (1989). Introduction à une science du langage, Paris, Le Seuil.

Moeschler J. (1998a), "!Le temps dans la langue!: de la grammaire à la pragmatique!", Langues1, John Libbey Eurotext.

Moeschler J. (1998b), "!Linguistique et pragmatique cognitive. L'exemple de la référence temporelle!", Le Gré des langues15, Paris, L Harmattan.

Moeschler J. et al. (1998), Le temps des événements. Pragmatique de la référence temporelle,Paris, Kimé.

Moeschler, J. & Reboul, A. (1994). Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, Paris, Le Seuil.

Reboul, A. (1992). Rhétorique et stylistique de la fiction, Nancy, Presses Universitaires de Nancy.

Reboul, A., à paraître, "!Reference, evolving reference and the theory of mental representations!", in Coene, M., De Mulder, W., Dendale, P., D Hulst, Y. &Vetters, C. (eds), Hommages à Liliane Tasmowski-De Ryjck, Padoue, Unipress.

Reboul, A. et al.,1997, Le projet CERVICAL: Représentations mentales, référence aux objetset aux événements, Publication électronique, disponible sous http://www.loria.fr/~reboul/.

Reboul, A. & Moeschler, J. (1995). “!Le dialogue n est pas une catégorie naturelle scientifiquement pertinente!”, Cahiers de Linguistique Française17, 229-248.

Reboul, A. & Moeschler, J. (1998a). La pragmatique aujourd'hui. Une nouvelle science de la communication, Paris, Le Seuil.

Reboul, A. & Moeschler, J. (1998b). Pragmatique du discours. De l'interprétation del'énoncé à l'interprétation du discours, Paris, Armand Colin.

Reboul & Moeschler Lausanne, 12-14 novembre 1998 26 Saussure L. de (1998), Procédure d interprétation temporelle, Projet CERVICAL, Nancy, LORIA-CNRS.

Saussure L. de (en préparation), Pragmatique temporelle des énoncés négatifs, Universitéde Genève, Thèse de doctorat.

Sperber, D. & Wilson, D. (1995). Relevance. Communication and Cognition, Oxford, Basil Blackwell. 2°édition.

Sthioul B. (à paraître), “!Le passé composé!: une approche instructionnelle!”, CahiersChronos4, Amsterdam, Rodopi.

Tasmowski-De Ryck, L. & S.P. Verluyten (1982). Linguistic control of pronouns. Journal of semantics1.4: 323-346.

Tasmowski, L. & S.P. Verluyten (1985). Control mechanisms of anaphora. Journal Of semantics 4.4: 341-370.

Ter Meulen A. (1995), Representing Time in Natural Language, Cambridge (Mass.), MITPress.

Vetters C. (1996), Temps, aspect, narration, Amsterdam, Rodopi.

Weinrich, H. (1973), Le temps. Le récit et le commentaire, Paris, Seuil.



تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب

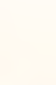
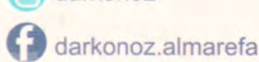
نقدّم في هذا الكتاب مجموعة من المقالات التي رأيناها مفيدة للقارئ العربيّ نظرًا إلى ما تضمنته من تساؤلات تؤسس لمرحلة جديدة من مراحل الدّرس التّداوليّ ومقاربات تحليل الخطاب؛ إذ تمثل مصراعًا لانفتاح بحثهما على مناهج وعلوم متصلة لها أثرها في تقييم فرضيّاتنا الحاليّة، وفي تعرّفنا على طرائق جديدة في التّحليل، وتطويعها لغايات تضمن فهمًا أعمق للظاهرة اللغويّة موضوع البحث.

فمن تساؤلات التّداوليّة ما يتصل بتاريخها وأفكارها التي سبقت ظهور أعمالها التّأسيسيّة الباكرة، ومنها ما يتصل بمدى الفائدة المجتباة من توجهها الإمبريقي، وكيفية تحقيق هذا التّوجه، أو يتصل بعلاقة التّداوليّة في نسختها الفلسفيّة بالتّداوليّة العياديّة مما يجعلها تتمتع بجانب كبير من الشموليّة يضمن لها مقاربة الكفاية التّداوليّة وصورها لدى الإنسان في مختلف حالاته.

أما التساؤلات بشأن تحليل الخطاب، فتدور حول إشكاليّة التّعريف، وتقويم المناهج، وجدوى الاستمرار في التّحليل، وتعيين حدود المنهجيّة المبتغاة، وعلاقة تحليل الخطاب بالنّظريّات الذهنيّة ومآلاته وأهدافه على ضوء تفاصيل هذه العلاقة. ناهيك عن دور المحلل وأهمية التّحليل في ظل تضارب إيديولوجيّ وصراع حاد حول مكانة الخطاب وسلطة التّحليل.



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ص.ب 712577 عمان (11171) الأردن
هاتف 877 4655 فاكس 875 4655 6 962+
www.darkonoz.com
dar_konoz@yahoo.com info@darkonoz.com


darkonoz
darkonoz

darkonoz.almarefa


ISBN 995774534-4
9 789957 745349